موندو وحكايات أخرى


آداب عالمية
1



موندو وحكايات أخرى

جان ماري غوستاف لوكليزيو

ترجمة: عماد موعد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

موندو وحكايات أخرى/ جان ماري غوستاف لوكليزيو؛ ترجمة عماد موعد. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م .- ٢٨٤ص؛ ٢٥ سم.

(سلسلة آداب عالمية؛ ١)

١- ٨٤٣ف ل و ك م ٢- العنوان ٣- لوكليزيو

٤- موعد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

ماذا! تسكن بغداد، وتجهل أن السيد سندباد البحار يعيش هنا،

هذا المسافر الشهير الذي طاف كلّ البحار

التي تضيئها الشمس!

حكاية السندباد البحري

لوكليزيو: روح تبحث
عن الفطرة الأولى

عند سؤاله عام ٢٠٠١ عمّا يود قوله في حفل تسليم جائزة نوبل، إن حصل عليها[١]، أجاب لوكليزيو: «إنه سؤال افتراضي للغاية. لا أعلم ماذا يمكن أن أقوله بالنسبة لجائزة نوبل ولكنني أعلم ما يمكن أن أقوله علانية. أود الحديث عن الحرب التي تقتل الأطفال، فهي بالنسبة لي من أبشع الأمور التي تجري في عصرنا الحالي. والأدب أيضاً هو وسيلة للتذكير بهذه المأساة وإظهارها في المقدمة. لقد تم مؤخراً في باريس وضع حجاب على تماثيل السيدات للتنديد بحال المرأة في أفغانستان وإنكار حريتها. وهذا أمر جيد جداً. وبنفس الطريقة، يجدر بنا أن نضع علامة حمراء ناحية القلب على كل تماثيل الأطفال للتذكير بأنه في كل لحظة في مكان ما في فلسطين وأمريكا اللاتينية وأفريقيا هناك طفل يموت بطلقات الرصاص. ما من أحد يتكلم عن هذا الأمر أبداً.»

يقول لوكليزيو دائماً الأشياء التي لا تقال، حدث ذلك عدة مرات، حدث ذلك حين طُرد من تايلاند، بعد أن أشار بصوتٍ عال إلى دعارة الفتيات الصغيرات في مواخير بانكوك وفي معسكرات «اللهو والتسلية» التي أنشأها الأمريكان. وحدث ذلك أيضاً حين هاجمته الأوساط المقربة من إسرائيل بعد نشره لجزءٍ من روايته «نجمة تائهة» تحت عنوان «مخيم نور شمس» تناول فيه مأساة اللجوء الفلسطيني عام ١٩٤٨. كما كان لوكليزيو دائم الترحال، لا غاية

---

(١) حصل لوكليزيو على جائزة نوبل عام ٢٠٠٨.

له من ذلك، سوى سماع تلك الأصوات التي لا يسمعها أحد، يكسرُ الصمت الذي أحاط بها، وجراء ذلك اتّهمه بعضهم بالسذاجة والإفراط في تبسيط الأمور، وبأنه وقع في أسطورة «الإنسان البدائي الطيب».

ولد جان ماري غوستاف لوكليزيو في نيس عام ١٩٤٠ من أب بريطاني ذي أصل بريتوني وموريسي ومن أم فرنسية تعود أيضاً إلى ذات الأصل الموريسي لوالده (أبناء عم أشقاء). قبل التحاقه بوالده عام ١٩٤٨ في نيجيريا، ربّته أمه وجدّته، حيث كان لتلك المرحلة أكبر تأثير على اتجاهه نحو الكتابة، فقد اكتشف فيها الكتب التي كانت تملأ المنزل العائلي، إضافة إلى أن الجدة كانت تمتلك مخزوناً كبيراً من الحكايات.

عند رحيله إلى نيجيريا، عام ١٩٤٨، للقاء والده الذي كان طبيباً استعمارياً في الجيش البريطاني - حيث يمضي عاماً - يكتب خلال الرحلة البحرية الطويلة التي أخذته إلى هناك محاولتين روائيتين، **سفر طويل**، و**أورادي الأسود**، استعادهما فيما بعد في عدد من أعماله. حيث غدت هذه الرحلة رحلة مؤسّسة في حياته وفي مشروعه الأدبي، يشير إلى ذلك قائلاً: «من الصعب تخيل شيء أكبر من قلق ركوب سفينة، غداة الحرب للذهاب إلى بلد مجهول، للقاء رجل مجهول، يقال إنه والدك.»

نشر لوكليزيو عام ١٩٦٣ روايته الأولى «المحضر الرسمي»، التي حصلت على جائزة رنودو. وقد كان آدم بولو، الشخصية الرئيسية، مجنوناً في نظر المجتمع، أما في نظره فلم يجنّ، كلما غاص في جنونه وجد نفسه. ثم أصدر عام ١٩٦٥ كتابه الثاني «الحمى» الذي كان عبارة عن تسع قصص عن الجنون، الجنون العادي، جنون الحياة اليومية، استمد مادتها من تجربة عائلية واقعية، رغم الخيال الذي احتوت عليه، مفصحاً فيها عن المشاعر التي يخزنها الإنسان كل الأيام، ثم يجد صعوبة في إخراجها.

في تشرين الثاني ١٩٦٦، يكتب لوكليزيو في العدد الأول من المجلة الأدبية، مقالة مكرسة لكتاب ترومان كابوت Truman Capote دم بارد قائلاً: «روائي القرن العشرين لم يعد عليه أن يكون «رجلاً شريفاً» يكتفي بثقافته وبتجربته وبلغته. الكاتب، اليوم، في الوقت ذاته، عالم أخلاق وإناسة ونفس، وخبير جريمة أيضاً. على الروائي أن يسبر بأي وسيلة كانت، وبروح العلم، جزءاً من العالم، والجماعات الإنسانية، ويقدّمها، لا كما هي في واقعها، ولا كما يجب أن تكون، ولكن كما يقدمون هم أنفسهم.»

في عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ أصدر لوكليزيو ثلاثة كتب: «الطوفان» (١٩٦٦)، «النشوة الحسية» (١٩٦٦) والتي ضمنها النص الذي كتبه في عمر سبع سنوات «أورادي الأسود» و«Terra Amata» (١٩٦٧). لقد أراد لوكليزيو في هذه الكتب، كما يشير بنفسه إلى ذلك، بناء كتاب يكون ماقبله العدم وما بعده العدم. «إن ما يسبقك وما يليك يماثلان العدمين اللذين يحيطان بالغرفة المذكورة في الحكاية التي ترويها مارغريت يورسنار عن زعيم ساكسوني يدخل قلبه الإيمان ويعتنق المسيحية، برؤية عبور طائر. قال له بيّد الجليل، الذي كان موجوداً في أثناء الحادثة: «الحياة تماثل هذا الطائر الذي دخل هذه الغرفة، وعبرها مبهوراً بالنور، وخرج طائراً من النافذة الأخرى. يذهب من العاصفة إلى العاصفة، يدور للحظات في الغرفة ثم يغادر». الصورة كانت قوية جداً، بحيث إن الزعيم الساكسوني آمن بسماع هذه الكلمات. أجد أننا أمام صورة استعارية للأدب والرواية. نذهب من عدم لا أدبي إلى عدم لا أدبي، وللحظات نطير في فوضى جلية، وفاتنة.»

كان عام ١٩٦٧ عاماً حاسماً في حياته الشخصية والأدبية، حيث أدى خدمته العسكرية في بانكوك من خلال نظام مهام التعاون، غير أنه أُرسل فيما بعد إلى المكسيك بعد أن تّم طرده من بانكوك إثر إدلائه بأقوال لصحيفة الفيغارو عن دعارة الأطفال في تايلند ودور الأمريكيين فيها. غير أن اكتشافه

للمكسيك كان صدمةً حقيقية، حيث بدأ بالعمل على تراث الهنود الحمر. فقد شارك لوكليزيو، ما بين ١٩٧٠-١٩٧٤، الشعوب الهندية في مقاطعة دارين البنمية حياتها، حيث كتب عن هذه التجربة: «إنها صدمة حسية كبيرة، صعبة، كان الجو حاراً، وكان عليّ أن أمشي مسافات طويلة على الأقدام. كان عليّ أن أصبح خشناً، صلباً. منذ تلك اللحظة، اللحظة التي لامست فيها هذا العالم لم أعد كائناً عقلياً. أثرت هذه اللاعقلية فيما بعد في كلّ كتبي.»

ولّدت المكسيك شعور لوكليزيو بأن علّيه أن يسمع أصواتاً أخرى، الأصوات التي لا تصل، أصوات هؤلاء الناس الذين ازدرتهم الحضارة الغربية لوقتٍ طويل، مكتشفاً أن لديهم أشياء كثيرة ليقولونها. جاءت هذه الأصوات من النصوص القديمة، ومن الأشخاص الأحياء الذين التقاهم، مثل ريغوبرتا منشي، التي تعلن بصوتها الهادئ والواثق عن أشياء بسيطة، أصيلة، باهرة، صادقة.

في بداية الطريق نحو هذه الأصوات، كان عند لوكليزيو دائماً رغبة الذهاب عميقاً في معرفة ليست ذهنية، الاتصال مباشرة مع الكون، مع حساسية الماء والنهر، مع فكر السماء والشجر، مع الكائن الموجود في أوراق الشجر، مع اللغة الفسيحة التي نسيت اللغة.

تدعونا أصوات الهنود إلى عدم الخشية من الزمن، عدم التعلق بالوجود كثيراً، امتلاك ما يلزم للارتباط بالوجود فقط كي تجري الأشياء لخير العالم... تقول هذه الأصوات أيضاً إن قدر الإنسان منقوش في داخله. مهما حاولنا تغييره، سيظهر دائماً كما هو مقدّرٌ أن يكون، في نهاية المطاف، يختار دائماً أن يكون ما يجب أن يكون، ذلك الذي يتوافق مع ما هو في عمق ذاته.

وهكذا يكرس لوكليزيو العديد من الكتب حول المكسيك والهنود الحمر منها ترجمات عن النصوص القديمة «نبوءات شيلام بالام» (١٩٧٦) «علاقة ميشوكان» «الحلم المكسيكي» (١٩٨٥) «ديغو وفريدا» (١٩٩٤) «أغاني العيد» (١٩٩٧).

رأى لوكليزيو في كتابه «الحلم المكسيكي» أن الهنود لطالما كانوا حراساً «لأمنا «الأرض» ومراقبين لسنن الطبيعة ودورة الزمن. أما في «ديغو وفريدا»، فقد رأى لوكليزيو في ديغو ريفيرا وفريدا كاهلو انبعاثاً لازدواجية المكسيك الأصلية: أوميتكوتلي و أوميسيهوتل. وتأكيداً بأن الإنسان ينتمي إلى الأرض وليس العكس، وبأن هؤلاء الذين يعيشون اليوم، سيعيشون مرة أخرى، وسيكونون مرة أخرى.

ما بين عام ١٩٧٨ و ١٩٧٩، أصدر لوكليزيو «المجهول على الأرض»، و«موندو وحكايات أخرى» الذي حقق نجاحاً كبيراً في المكتبات، وفي ذات الفترة، أصبح عضواً في لجنة قراءة منشورات غاليمار. وفي عام ١٩٨٠ منح جائزة بول موران من قبل الأكاديمية الفرنسية، ونشر «ثلاث مدن مقدسة» و«الصحراء» التي حازت فيما بعد على جائزة غونكور.

يعود عام ١٩٨١ إلى جذوره الموريسية عبر رحلة إلى جزر موريس ورودريغس. وعن ذلك، يمكننا قراءة العبارة التالية في «رحلة إلى رودريغس» التي صدرت بعد خمس سنوات: «حتى اللحظة الأخيرة أشعر بهذا الدوار، كما لو أن كائناً ما انسل إلى داخلي. ربما لست هنا إلا لهذا السؤال، السؤال الذي كان لابد لجدّي أن يطرحه على نفسه، هذا السؤال الذي هو أصل كلّ المغامرات وكل الرحلات: من أنا؟ أو بالأحرى: ماذا أكون أنا.» وقد أنتجت هذه العودة إلى الجذور (الموريسية والعائلية) العديد من الأعمال لعل أهمها «الباحث عن الذهب» (١٩٨٥) «رحلة إلى رودريغس»(١٩٨٦) «العزلة» (١٩٩٥) و«ثورات» (٢٠٠٣)، «تراتيل الجوع» (٢٠٠٨).

لم يكن لوكليزيو يعرف جده إلا كرجل عجوز حالم ومتكبر، إلى أن يكتشف في علبة سوداء، لم يكن يستطيع الوصول إليها حين كان طفلاً، وثائق مرمّزة ومشفرة تشهد بأن الرجل العجوز أمضى جزءاً من حياته يبحث عن كنز. على خطاه، يشرع في كتابة «الباحث عن الذهب»(١٩٨٥) «رحلة إلى

رودريغس»(١٩٨٦): هل كان بإمكاني كتابة هذه الرواية، هل كان بإمكاني أن أحلم بكتابة «الباحث عن الذهب» لو لم يكن هناك هذا الصندوق الأسود الذي حفظ فيه والدي كل الوثائق المتعلقة بالكنز وكل هذه الخرائط، وهذه الأوراق المكتوبة بخط ناعم، والتي بدا لي أني تعرّفت فيها على خطي. إن لم تكن هذه الشعلة في أحلامي، هذه المقاطع التي تبدو كما لو أنها مأخوذة من كتاب لا أستطيع أن أجده بكامله إلا إن كتبته بدوري.»

في «العزلة»، يروي لوكليزيو حكاية جده الذي عُزل في جزيرة موريس. يلتقي الجد الطبيب رامبو في مقهى باريسي: إنها نقطة البداية في رواية تؤدي الأجيال بها دوراً كبيراً. «لو لم يقرّر جدي العودة إلى فرنسا بعد تجربة العزلة في موريس، لَما تزوج ولَما ولدتُ دون شك..»

ويروي لوكليزيو في «ثورات» و«تراتيل الجوع» الذاكرة العائلية، حيث يروي سيرة عائلته في مراحل مختلفة، ولاسيما حالة الإملاق التي عرفتها عائلته الموريسية في ثلاثينيات القرن العشرين.

شغلت الصحراء جزءاً من أعمال لوكليزيو. ولاسيما روايته «الصحراء» التي صدرت عام ١٩٨٠، و«سمكة من ذهب» التي أصدرها عام ١٩٩٧، يتحدث لوكليزيو عن نظرته للصحراء، قائلاً: «في البداية كانت حكاية أبي، حين حاول القدوم إلى فرنسا باحثاً عن أمي وأخي في نيس، غادر كانو في نيجيريا وعبر صحراء الهجر، وتوقف قليلاً قبل مدينة الجزائر، وجد نفسه مرغماً على العودة على عقبيه. فيما بعد كتب «شارل فوكو» التي تحمل وصفاً رائعاً للصحراء. كان لدي الإحساس بأن الصحراء مثل صندوق صدى، مكان ندرك فيه بطريقة أفضل كل ما هو إنساني.» «لم أقترب من الصحراء فعلياً إلا منذ وقت قصير. من قبل، عبرت بعض الصحارى، غير أني لم أتوقف فيها أبداً. كنت مجذوباً إليها عبر الكلام. عبر ماقاله الكتّاب عنها. كشخص يكتب، يُقاد إلى الصحراء بالأساطير والكلام، أو كالعالم مونو Monod أو كبعض علماء

الأعراق أو كـ Leiris الذين جُذبوا بالصحراء، بالإنساني الذي ينظرونه منه، لأنهم كانوا يعرفون بأنهم سيلتقون بأناس ويشعرون بأن ذلك سيغيّرهم.»

في روايته «سمكة من ذهب»، يتابع لوكليزيو سيرة فتاة مغربية ، ليلى، في مقتبل العمر، تنتمي إلى بني هلال اختُطفت وهي لا تتجاوز السادسة من عمرها. جالت في رحلتها الطويلة عوالم مختلفة من الملاحة في المغرب، إلى الولايات المتحدة، مروراً بفرنسا، لتعود في النهاية إلى قبيلة بني هلال في الصحراء جنوب المغرب حيث تصل إلى المكان الذي تتذكر ملامحه قبل اختطافها، بغية إيجاد حلٍّ لمأساة لبست حياتها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن لوكليزيو أصدر مع زوجته ذات الأصل الصحراوي المغربي، في العام ذاته، كتاب «أناس الغمام» يرويا فيه حكاية رحلتهما في الصحراء الغربية. يقول لوكليزيو فيه: «كنت أذهب نحو المجهول، فيما كانت جيما تعود نحو ماضيها». يشير لوكليزيو في مكانٍ آخر إلى أن جذور زوجته العائلية تعود إلى النبي الكريم.

كتبت فصول «سمكة من ذهب» بقدرةٍ عالية على السرد كما لو أنها كانت شلالاً يتدفق بلا توقف. عن ذلك يقول لوكليزيو: «كانت "سمكة من ذهب" حكاية لا ينبغي لها أن تستغرق أكثر من خمس عشرة صفحة، غير أنها أصبحت رواية رغماً عني. لم أستطع فعل شيء، لدرجة أن فصولاً لم أحسب لها حساباً كتبت فيها. لا أتكلم تماماً عن الشخصيات التي أفلتت، ولكن عن الحكاية نفسها، عن النص الذي تضّخم فجأة. يدفعني ذلك لأن أسأل إن لم يكن ذلك يشبه نوعاً من الغزو الجرثومي. للخيال جانب يشبه الغرغرينا.. جانب غازٍ.»

يقع لوكليزيو عام ١٩٨٨ في مواجهة مع الأوساط الصهيونية في فرنسا التي اعتبرته مشبوهاً على غرار جان جينيه بعد أن نشر جزءاً من روايته «نجمة تائهة» التي كان يعمل على كتابتها في مجلة الدراسات الفلسطينية وتمت ترجمته إلى العربية في مجلة الكرمل في ذات العام، متناولاً فيه مأساة اللاجئين الفلسطينيين والمراحل الأولى من تشكل المخيم الفلسطيني. وقد صدرت هذه الرواية كاملة عام ١٩٩٣.

بدأ لوكليزيو كتابة هذه الرواية بحكاية إستير الطفلة اليهودية التي كانت تعيش في قرية للاجئين قرب نيس، ثم اجتازت الجبال عند وصول الألمان، لينتهي بها المطاف في فلسطين. لكن بدا للوكليزيو أنه لا يمكن له أن ينهي الأشياء عند هذا الحد، لا بد أن تكون إستير شاهدة عند وصولها على طرد الفلسطينيين إلى مخيمات الضفة الغربية، بدا له ضروريا أن تقابل إستير الطفلة الفلسطينية نجمة. بحث لوكليزيو في تقارير الأمم المتحدة، حيث صُدم من اكتشاف ظروف الحياة في المخيمات الفلسطينية، معتقداً أن المأساة الفلسطينية هي أكبر مأساة للاجئين ما بعد الحرب وأنها أول فشل للأمم المتحدة من خلال محو شعب على الورق. يرى لوكليزيو في إستير ونجمة مجرد طفلتين ليس لهما أي دور سياسي أو اجتماعي، وإن روايته لا تشرح شيئاً، وإنما تسعى لفهم الطبيعة الإنسانية.

وقد تتابعت إصدارات لوكليزيو، حيث أصدر الربيع وفصول أخرى (١٩٨٩) أونيتشا ونجمة تائهة (١٩٩٣) سمكة من ذهب (١٩٩٧) مصادفة (١٩٩٩)، قلب يحترق (٢٠٠١) ثورات (٢٠٠٣) أورانيا (٢٠٠٦)، ballaciner (٢٠٠٧)، تراتيل الجوع (تشرين الأول ٢٠٠٨).

يمثل لوكليزيو في كثير من أعماله الكاتب الذي يبحث عن الصوت الآخر، سواء كان صوتاً خارجياً أم ذاتياً، سعياً إلى رفض أساطير العالم المعاصر الزائفة المدمرة وهرماً من معطياتها وشروطها: «من خلال علاقتي بالهنود غيّرت الصورة التي أحملها عن الزمن. قبل ذلك، كنت مذعوراً تماماً بكثير

من الأشياء التي لم تعد ترعبني: الخوف من الموت، المرض، القلق من المستقبل. ذلك لم يعد يرعبني الآن... ترعبني فكرة أن أطفالي يمكنهم أن يعرفوا المرض أو الموت، كذلك الحروب العبثية أو الوحشية مثل التي عشناها، وكذلك احتمال وقوع الكوارث البيئية. إن مسوؤليتنا أمام أجيال المستقبل مسؤولية كاملة. إذا تعلمنا العيش مثلما يعيش الهنود الأميركيون أو مثل هؤلاء سكان الصحراء، بالتأكيد لن يكون لدينا هذا القدر من الكوارث. بالتأكيد لن نكون بذات الدرجة من الكمال التقني، ولكننا لن نهدر بهذه السهولة فرصتنا للحياة....... هناك ضرورة ملحة لسماع أصوات أخرى، للإنصات إلى أصوات لا ندعها تجيء إلينا، أصوات أناس لا نسمعهم وقد استهين بهم لوقتٍ طويل، أو لأن عددهم ضئيل، ولكن لديهم الكثير من الأشياء لنتعلمها.»

كان لوكليزيو أحد الكتاب الذين اقتحموا العالم الهامشي للمجتمع المعاصر، ليكشف عن التعايش ما بين قسوة الحياة وما بين رقة المشاعر والعواطف. فينقل الهامش إلى قلب الحياة. تحتل الهوية مكاناً بارزاً في أعماله، حيث برزت مسائل الهوية المفتقدة والمنفى والاجتثاث في جزء كبير من أعماله.

ولعل معظم شخصياته الرّوائية ترحل في عالم من التيه، والتطواف، التطواف الذي يؤسس وجود الشخصية ويبرهن حريتها. وغالباً ما تكون هذه الشخصيات شخصيات أطفال ومراهقين، أنقياء جداً.. وفي الآن ذاته، قساة جداً. ينطلقون في الحياة، عليهم واجب التغلب على الصعاب لإنقاذ أنفسهم من التدمير والفساد. وكذلك فإن الحضور القوي للشخصيات النسائية يثير الاهتمام، إنهن من ينقلن الذاكرة والتجربة والنقاء.

دائماً، كانت روح لوكليزيو تفلت من هذا العالم كي تجد ملجأها الوحيد في الفطرة الأولى، ولعل «موندو وحكايات أخرى» مثالٌ عن هذه الروح التي تفر نحو هذه الفطرة.

* * *

يقدم لوكليزيو في مجموعة «موندو وحكايات أخرى» ثماني حكايات، يلعب الأطفال فيها الأدوار الأكثر أهمية، مثل معظم شخصيات لوكليزيو الروائية. يحملون فيها وعياً أكثر عمقاً وصدقاً من الكبار، كونهم أكثر قرباً من الطبيعة، ومن الأحلام.

تبدأ المجموعة بالإشارة إلى سندباد، المسافر البغدادي - من خلال الاقتباس الوارد في بدايتها - مما يجعلنا نميل إلى النظر في هذه الحكايات الثمانية، وقبل أي شي آخر، كرحلات عجائبية قديمة، رحلات كشف ومعراج صوفية، انتقال من «عالم البشر» إلى عالم علوي. أبطالها أطفالٌ لا تتعدى أعمارهم سن البلوغ. حكايات تحمل ذات السمات، وكأنها وجوه مختلفة لذات الحكاية، مما يدفعنا إلى قراءتها كما لو أنها حكاية واحدةً.

تطبع الرحلات المكانية والروحية التي تقوم بها شخصيات هذه الحكايات المجموعة بالفتنة. تواجه كل شخصية مغامرة في ظل افتتان غامض، وتنتشي في رحيلٍ محسوس أو غير محسوس (داخلي)، تاركةً كل شيء خلفها، وصولاً لمن يناديها دون أن تعرفه. عند وصولها إليه، تبدأ تعلّمها وارتقاءها، ليصير هذا التعلم عرفانا وكشفاً وتلقيناً للأسرار، عبره تتبدل كلّ شخصية وتغتني بتواصلها مع العالم المكتشف، متوائمة معه.

وقد تتضمن هذه العملية معاناةً، ولا يمكن الحصول إلا على فترة وجيزة من الحرية الحقيقية. وبالتالي، تتم العودة، ويتم اقتلاع الشخصية من لحظة الكشف والجوهر التي وصلت إليها. يفرض هذه العودة في كل مرة عدم القدرة على استدامة هذا الكشف، والالتفات إلى منطق ما هو محسوس.

غالباً ما تعود الشخصيات في هذه الرحلات من معراجها إلى نقطة انطلاقها، حدث ذلك في خمس حكايات. فيما لم تكن هناك أي عودة في الحكايات الثلاث الباقية، كأن هذه الشخصيات اجتازت حجبها وانتهت إلى بحرٍ من نور وعالم من الفناء لم تبرحه.

يبدو الوقت بطيئاً في المجموعة، بالكاد يجري، يمثل اليوم أساس قياسه، ترويه الحكاية بالتفصيل، أو أنها تروي تعاقب أيام متماثلة أو بالكاد تختلف.

إلا أن بطء هذا الوقت لا يعني أن الشخصيات في سكون، وإنما هي في حركة دائمة. تنتقل متأثرة بتلهف وجودي، وبحمى ميتافيزيقية، في حالة انجذاب للاقتراب من الوجود بحالته النقية، تحاول قطع الروابط مع «حسية العالم»، كي تنسلخ عنه في كل شيء. ليس مُرادها الخروج من هذا العالم، لكن العثور على جوهره والارتقاء بذاتها. لا يقدم لوكليزيو عن هذه الشخصية إلا الإشارات الضرورية لفهم الحكاية، دون أن يقدم ماضيها، كما لو أن ماضيها ليس مهما لمعراجها، ما دامت قد سارت في طريقه.

لقد اختار لوكليزيو صيغة الغائب، على نحو يبدو فيه الراوي موضوعيا. إلا أن فحص النص على نحو متأنٍّ يسمح باكتشاف أن وراء حيادية الراوي الظاهرة هناك الكاتب، الذي يختفي تارة وتارة يتدخل بجلاء، حسب حاجة الحكايات. يرافق شخصيته في تجوالها، ويعرف كل أفكارها ومشاعرها، لدرجة يظن القارئ أن هذه الشخصية ما هي إلا قناع لوكليزيو نفسه.

يتوجه لوكليزيو إلى مستمعيه بنبرة الحكواتي، مستخدماً أساليب تتكرر في الحكايات، مثل إعادة عبارات معينة أو تكرار لوازم محددة. بكتابته الشفافة، المليئة بالجوهر، الشاعرية، الحالمة، المليئة بالتفاصيل التي تربط الجسد مع الطبيعة، يتطلع إلى عالم تحيط به هالة من العجائب والسحر والتي تنبثق غالباً من الواقع واليومي، الأشياء التي يتم التحديق بها تصبح غرائبية عندما تتأملها الشخصيات. يستعمل كلمات غير معروفة، غريبة أو نادرة، على نحو يجعلنا نتساءل فيما إذا كانت حقاً موجودة أو غير موجودة، أو أنها نتاج مخيلته. كلمات تجعل أبطاله الصغار الذين لم يفقدوا عذوبة الطفولة، يحلمون تاركين أنفسهم بسهولة لسحر هذه الكلمات التي لا يفهمونها.

تمثل شخصيات المجموعة أطفالاً أو مراهقين يعانون الوحدة، يعانون من غياب الآباء، لا يذهبون إلى المدرسة أو ما عادوا يذهبون إليها، ليس لديهم أية روابط تقمعهم، لا إشارات عن ماضيهم أو مستقبلهم. فيهم شيء من السذاجة، حالمون، يبحثون عن السعادة والصدق. تؤذيهم قسوة المجتمع، غير مفهومين، ولا يستطيعون الوصول إلى مكان مخصص لهم. يكافحون ضد عنف الكائنات الإنسانية. بالمقابل، يودون التواؤم مع الكون والطبيعة، السماء، الشمس، النجوم، الريح. يودون أن يكونوا أصدقاء للحيوانات، يجدون توازنهم وسط الطبيعة.

تسحرنا شخصيات المجموعة بإرادتها الهادئة، وإحساسها بالمسؤولية. تعتمد على نفسها وتستطيع تلبية احتياجاتها. تريد العيش خارج القواعد المفروضة، وتدير ظهرها للعالم المتحضر. تريد أن تكون سعيدة بقدر رغبتها في الاعتماد على الذات، والاستقلال، وبقدر إرادتها للحرية... حرية الحلم والكشف. تقدم الحكايات تفكيرها أو أسئلتها. وتظهر هذه الشخصيات قدرات كبيرة في الاستنتاج والوعي والتفكير، إنها مسؤولة تماماً عن أفعالها، غنية جداً بمخيلتها.

تعيش كل شخصية مغامرة مميزة وفريدة، تتحمل التعب والجوع والعطش. في سعيها، تتقدم شيئاً فشيئاً، تقودها الغريزة، كذلك الأصدقاء، الذين هم مثلها رقيقو الإحساس ويعانون الحياة القاسية، لاسيما، الأشخاص أصحاب الكشف، بشر وحيوانات، الذين يمتلكون معرفة وجاهزين لنقلها جزئياً أو كلياً، والذين يساعدونهم على التعلم والكشف.

تجري شخصيات المجموعة لقاءات حقيقية أو تخيلية مع عالم، تصبح فيه الطبيعة رمزاً لعوالم غير مدركة حسياً، لقاءات تقدم لها خبرة واسعة وسحرية. تتعلم منها أن لهذه الطبيعة حقوقا، وتدرك أنها لن تتغير أبدا، فيما أن الكائنات البشرية ليس لها استقرار. بفضل البحر والشمس والنور، تشعر بالوفاء، تتواصل من خلالها مع الجوهر. بمجرد اطلاعها على الأسرار، وتحولها،

واغتنائها، تعمل على إغناء القارئ وتدله إلى طريقها. علّه بذلك ينجح في إزالة الحجاب أمامه ويكشف جوهره.

ولعل ميل لوكليزيو إلى اختيار أطفال كشخصيات رئيسية، في معظم حكاياته ورواياته، يعود إلى رؤيته في أن الطفل يجسد على نحو ما صورة العالم العجائبية، إنه أكثر نجاحا من الراشدين لأنه يعرف أشياء نسيها هؤلاء. على نحو ما، يرى لوكليزيو أن الطفل كائن سحري، يحدق وحده إلى جوهر الأشياء، ويأنس تماماً إليه ويذوب فيه، بذلك يستطيع أن نتعلم منه أن نسكن بحقٍ هذا العالم. وبالتالي، فإنه يعتقد أنه ينبغي لنا، للوصول إلى الحياة الحقة، أن نتحرر من المعرفة الحسية والخطابة، أن نترك وراءنا ازدحام الأفكار المجردة والمعقدة التي تخفي العالم الحي الحقيقي. بميله لاختيار أطفال لشخصياته، يجعل لوكليزيو من كل صغار المجموعة صنواً له، ويظهر رغبته بأن يبقى طفلاً، متحرراً من الحسية.

- إنه موندو الغجري الوحيد الذي يجول في نيس ويستحم عند الفجر.

- إنه ليلابي، الطفلة الصغيرة، التي تقرر ببساطة ذات يوم عدم الذهاب إلى المدرسة، لأن الجدران والأسيجة تحطم رغبتها بالفضاء والشمس.

- إنه جون الشاعري الذي يجذبه ضوء ٢١ حزيران إلى قمة الجبل الأكثر ارتفاعاً، الضوء الحارق والخارق للمسامات مثل سائلٍ حار، الذي يُشبع ملابسه وشعره، ويشعره بالرغبة في التعري والدحرجة على الأرض الرطبة، على نحو شبيه بمراسم التعميد.

- إنه جوبا، راعي البقر الصغير، الذي يدفع الثيران للدوران، فتدور العجلة كي يصل الماء إلى الحقول. عجلة الماء هذه التي تكرر حركة عجلة الشمس في السماء، وعجلة الماضي والمستقبل في توافقٍ عميقٍ بين الواقع والحلم، راعي الثيران هنا والملك الخيالي لمدينة يول هناك.

- إنه دانيل، الذين يفرّ من القفص لرؤية البحر، الثمل من اكتشاف ذلك الذي يتحرك باستمرار والمتلألئ والمسحور، الذي يصرخ من الإثارة ويلوذ بالفرار.

- إنه مارتان الراشد القادم من السماء والأرض المنبسطة ومصب النهر الذي ينفتح على البحر، الذي يروي القصص للأطفال لإرشادهم إلى أماكن أخرى. والذي يبدو مثل النبي موسى يقود شعبه نحو أرضٍ جديدة.

- إنه بتيت كروا، الفتاة الصغيرة العمياء من أريزونا، التي استطاعت أن تعوض المعرفة التي يمكن أن يمنحها البصر بمعرفة أبسط وأكثر ذكاء، وذلك لأنها أقرب إلى صمت الأشياء، أقرب إلى الحلم. بتيت كروا التي تتساءل عن ماهية الزرقة، لتشعر بها فقط دون أن يسبق لها رؤيتها، والتي لا يمكن لها إلا أن «تسمع» الضوء.

- إنه غاسبار الصبي الصغير الذي يرتدي زي أهل المدينة وسترة الكتان، ذو الوجه الأحمر، والذي يتبع أربعة رعاة صغار، ويتعلم أسرار الطبيعة، والنجوم والبهائم، ويطارد الأرانب والطيور والثعابين، ويبني كوخاً من القصب ويحلب الماعز، وينصت إلى إشارات التيس حتروس والكلاب البرية، ويتأمل رسومات النجوم في السماء الليلية الصحراوية. غاسبار الضائع في الصحراء بقدمين عاريتين وقميص ممزق بعيداً عن الحضارة.

وعلى الرغم من هذه الشخصيات القادمة من الطفولة، يعترف لوكليزيو في كلامه أنه من الصعب قراءة المجموعة من قبل الأطفال، لأن كتابتها جاءت من سؤال فلسفي، ينبغي أن يكون مربكاً، يبعث الأسئلة في الأعماق، مقرّاً أنه لا يدري فيما إذا كان للأطفال إمكانية التساؤل عن أنفسهم.

في الحقيقة، تبدو المجموعة مليئة بتساؤلاتٍ حول النظرة التي ينبغي أن ننظر بها إلى العالم، وحول الدور الذي ينبغي أن نقوم به على الأرض، وحول عطاء مجتمعنا، وعن عزلتنا، وتناقضنا مع مجتمعتنا وعدم قدرتنا على تحقيق

الذات، وعن ماهية الحرية، وكيفية الوصول إلى السعادة. تدفعنا المجموعة إلى التفكير، لأن المغامرات التي عاشها أبطال المجموعة تعطي المثل وتمنح التفكير، فيها دروس تجذب بقراءتها نظر وذكاء القارئ، سواء كان كهلاً أم شاباً أم أقل شبابا.

تتحدث القصص التي تضمها المجموعة عن زمننا، منتقدة مجتمعنا المعاصر. في معظمها يتم تقديم المدن والشوارع والمدارس والعالم الحضري على نحو سلبي، وتجبرنا شخصيات المجموعة على عبور الظلمة الحزينة لعالم مات فيه الأمل، حيث يبقى الفرد وحيداً في المجتمع، ومن المستحيل أن يكون ذاته. عبر الحنين للبراءة والفطرة الأولى، يتم انتقاد مجتمع الاستهلاك، والامتلاك المادي الذي أصبحنا أسرى له، ويتم الحديث عن أهمية الحب والصداقة والأحلام والخيال التي تغنينا بتأمل الطبيعة.

حكاية «موندو» شاهدة على هذا الحنين. في «موندو»، يتحرر لوكليزيو من قلق العالم المعاصر من خلال الفرار من عالم الراشدين بهدف التقاط الحس العفوي للطفولة. تعيش شخصية موندو (الشبيهة بشخصية لوكليزيو) في حالة أزمة، تشعر بالوحدة «هل تريد أن تتبناني؟». من جانب يبحث عن تواصل مع الناس، يتكلم معهم حول موضوعات مختلفة. لكن من جانب آخر، يهجر العالم، والحضارة، يجد أصدقاءه في الشمس والبحر والشاطئ والنوارس، ما يهمه هو الطبيعة، بما تحمله من معانٍ مطلقة، الأشياء البعيدة عن العالم المعاصر، عن الناس. في هذه الحكاية، يتم وضع الروابط الاجتماعية محل تساؤل، حيث يُلاحظ في المجتمع المحو المتزايد للروابط الإنسانية. ليس هناك مشاعر، الأنانية والمصلحة الذاتية هي المسيطرة. يعرف موندو كثيراً من الناس لكن ليس لديه كثير من الأصدقاء. موندو طفلٌ حرّ، يبحث عن هويته، عن مكانه، عن التواصل. رغم محاولاته، لا يستطيع أن يجد ما يبحث عنه في المجتمع. يدرك أنه لا يستطيع التماثل مع الناس في هذه المدينة، ولأجل ذلك يختفي.

يريد لوكليزيو أن يكلمنا عن هذا العنف، عن هذه القسوة في علاقات البشر، عن إنكار الفرد الذي لا يمكن له أن يوجد في الفرد الآخر، عن اليأس المسيطر. تظهر العلاقات بين البشر في حكاية «هازاران» من خلال شخصية مارتان الذي لا يمكنه تحمل بؤس الآخرين، غير أنه لا يمكن له أن يساعد الفقراء، ولم يبقَ له سوى الاستسلام الكلي، لشعوره بالعجز عن عمل شيء.

للخروج من ذلك، يقترح لوكليزيو بحسيّة عالية العودة إلى الفطرة الأولى، من خلال الاندماج مع كل ما يتآلف مع الطبيعة، محاولاً رسم لوحة جميلة للتواصل بينها وبين الكائن البشري. مثالية عبرت عنها «المجهول على الأرض» حين أعلن فيها أنه لا يريد أن يكون هناك اختلاف بين العناصر الأساسية والبشر، بين التراب والسماء والبحر وبين البشر. وعلى هذا النحو، تكون المجموعة نشيداً لجمال العالم، عبر تفضيل الفضاءات الطبيعية الكبيرة، وإظهار دور عناصر الطبيعة الأساسية، بما تتضمنه من مطلق، تشيد بامتلاء اللحظة الحاضرة. يكتشف الأبطال النجوم والريح والبحر والأزهار والرمال وقوة الشمس والنور، وغالباً ما تصبح الحيوانات أصدقاءهم الأكثر إخلاصا. تجد هذه الشخصيات السعادة في الطبيعة التي تقدم الكثير لهؤلاء الذين يجيدون احترامها..... إنها تعلّم كيفية الحياة وتمنحهم تجربة واسعة وسحرية، وتجعلهم أغنياء جداً بخيالاتهم، على نحو يختبئ فيه جوهر العالم بداخلهم.

تعود الطبيعة وعناصرها في كل حكاية من هذا الكتاب. في «هازاران»، تظهر هذه العناصر من خلال أجوبة الألغاز التي يطرحها الوزير على «ترفل»: التراب والماء والهواء. في «موندو» يمضي الصغير معظم وقته قرب البحر، الذي يرمز على نحو ما إلى الحرية بما أنه الفضاء الواسع الذي تسافر القوارب فيه، إنه رمز للخلوة، للملجأ، إنه صديق حميم، إنه المكان الذي كان يجد فيه موندو السكينة، حيث يحلم ويفكر ويتكلم إلى ذاته. البحر يمثل لليلابي الصغيرة منبع السعادة، بقربه تجد الأجوبة. والبحر هو المطلب النهائي لدانييل السندباد.... يود

أن يراه أكثر من أي شيء آخر. لدرجة أنه يترك حياته خلفه كي يصل إليه. غير أن الماء ليس عنصر الطبيعة الوحيد الذي يظهر في هذه الحكايات، فالعناصر الأخرى تظهر على نحو أقل أو أكثر، حاملة في ذاتها أهميتها. تظهر الريح والسماء كموضوعات رئيسية، لاسيما في «شعوب السماء»، التي تتساءل فيها بتيت كروا عما حولها، ولكن بشكل أساسي عن السماء، هذا الامتداد الواسع فوقها. وبدلاً من أن تطرح بتيت كروا السؤال الذي يطرحه الجميع: لماذا السماء زرقاء، تدفع تفكيرها أبعد وتتساءل: «ما هي الزرقة؟». في حكاية «جبل الإله الحي»، يقترب جون من السماء مملوءاً بمشاعر مختلفة عن تلك التي تمنحه إياها الأرض. في الحكاية الأخيرة من المجموعة، «الرعاة»، يعتمد الأطفال على هذه الأرض، إنها تعطيهم الطعام والملجأ الذين هم بحاجة إليه. بل تشعرنا الحكاية أن هؤلاء الأطفال يشكلون مع هذه الأرض كياناً واحداً، لا يحتاجون شيئاً آخر ليستمروا في حياتهم، بل حتى إن لغتهم البسيطة تحمل بعداً يرتبط بهذه العلاقة الخاصة مع الأرض.

كذلك يبدو لنا النور حاضراً في جميع الحكايات، ويظهر على نحو ما أنه هو الذي يحدد وجهة أحداثها، ويمنحها بعداً معراجياً صوفياً: «بسببه، دعاه موندو في الحال ببيت النور الذهبي. كان لنور الشمس عند العصر لون ناعم هادئ، لون حار مثل أوراق الشجر في الخريف أو مثل الرمل، يغمركم ويغزوكم». كان الوصول إلى «بيت النور الذهبي» يلزم الصعود، مما يدل على معنى الارتقاء. والإحاطة بهالة النور إشارة للتعالي الروحي. وبالتالي لن يكون مستغرباً ما يحدث قرب هذا المكان من نشوة وافتتان. «كانت الشمس تحرق وجهها(ليلابي)، وأشعة النور تخرج منها، عبر أصابعها، عبر عينيها، فمها، شعرها، منضمةً إلى لمعان الصخور والبحر». و«كان النور يتابع الدخول إلى عمق أحشائها، إلى نقي عظامها، فكانت تعيش في ذات حرارة الهواء، كالعظايا». «قد يكون نور شهر حزيران هو الذي قاده (جون) اليوم إلى الجبل». و«كان النور ينفخ الصخر، ينفخ السماء، يكبر أيضاً في جسده، يتموج

في دمه». «ينظر(جوبا) إلى السماء، من جهة الشرق، ويعرف أن النهار سيظهر قريباً. يشعر بقدوم النور في عمق جسده، كذلك تعرف الأرض، أرض الحقول المحروثة، والأرض المغبرة بين أدغال الأشواك وجذوع الأكاسيا. يجيء شيء عبر السماء مثل القلق، مثل الشك، يطوف في ماء النهر البطيء، وينتشر على سطح الأرض». ويثمل دانييل ثملاً بالنور: «النور في كل مكان في وقت واحد، قريب جداً بحيث إنه كان يشعر بمرور أشعة قاسية على وجهه، بعيدٌ جدا كلمعان الكواكب البارد. بسببه، كان دانييل يركض عبر السهل الصخري بخطٍ معوجٍ. جعله النور طليقاً ومجنوناً، يقفز كما يقفز، دون أن يرى». يكتشفه غاسبار كاكتشافه للطبيعة: «كانت الشمس خاصةً سبب ما يحصل هنا. كانت وسط السماء البيضاء، وتحتها كانت البهائم تدور في غيمة الغبار». ربما جميع الحكايات وشخصياتها مضاءة بهذا النور الذي يخبئ في تموجاته تواصلاً يزيل الحجب من أمامنا ويدعنا نستسلم دون تحفظ إلى وجود ليس له نهاية.

غير أن لوكليزيو لا ينسى أن للطبيعة وجهاً آخر: فهي، من جانب، جميلة وعذراء وودودة، لكنها من جانب آخر تحمل القسوة فيها، وبالتالي فإنها تحتاج للنضال.

في حكاية «موندو»، تلتقي الشخصية الرئيسية أصدقاءها في الشمس، والبحر والشاطئ. مع ذلك، فإن الشمس هي التي تؤذيه وتحرق وجهه، وبالتالي، يشعر بالتعب والإنهاك. يمكن أيضاً مشاهدة العلاقة بين الطفل والطبيعة في حكاية أخرى، «ذلك الذي لم ير البحر». دانييل الذي يريد أن يرى البحر ويعشق الطبيعة وكل ما يرتبط بها، يدرك أن البحر أيضاً خطر كبير. يكتشف دانييل البحر، تحت نور انعكاسات الشمس، انطلاقاً من الأشياء التي توجد على الأرض، ومن بحثه عن أرض عذراء يجد فيها الصمت والخلوة، لكن من جانب آخر، يكتشف قسوة الطبيعة، وأن البحر مصيدة تؤذي، وأن الشمس تحرق

الوجه، وأن المد خطر رهيب للإنسان. كذلك جوبا، الذي يعيش بتوائم مع الطبيعة في حكاية «عجلة الماء»، يعاني من الحرارة والشمس التي تحرق بشدة بحيث لا يمكن أن يبقى في الخارج.

في الحكاية الأخيرة «الرعاة»، لدينا مثال آخر عن العلاقة بين الطبيعة والطفل. هنا، نرى المواجهة بين الطفل القادم من المدينة وطفل الصحراء. إن تصورهما للطبيعة مختلف تماماً. يعتقد غاسبار القادم من المدينة أن الطبيعة جميلة، رائعة، غير مؤذية أبداً. بالمقابل، يعرف الرعاة، بما أنها يمكن أن تتغير، إنها تحمل الجوع الرهيب، يعلمون أنه يمكن للشمس أن تؤذي الناس. فيما ينبغي على غاسبار أن يتوافق مع ثقافته الخاصة، إنه أجنبي (غريب) متحضر جداً. لديه حساسية أكثر من الآخرين. على النقيض من ذلك، فإن الرعاة قساة كالطبيعة، لا يعبرون عن فرحهم. يعلمون أن الطبيعة يمكن أن تكون قاسية أيضاً. الإنسان طفيلي، يلبس جلد الحيوانات، يدمر الطبيعة. من جانب يريد أن يكون جزءاً منها، ومن جانب آخر يدمرها.

قبل أن ننتهي من قراءتنا هذه، نجد لزاماً علينا أن نعود إلى بداية المجموعة وإلى العبارة المقتبسة التي بدأنا منها.... تحمل هذه العبارة، على نحو ما، إدانة لنا، إدانة لعبورنا أمام الأشياء والكائنات دون رؤيتها، ودون تعلم التحديق فيها ومعرفة جوهرها. يستحق جهلنا بسندباد البحار الإدانة، فهو المسافر الشهير الذي طاف كلّ البحار التي تضيئها الشمس، والذي يقيم بيننا. كأن لوكليزيو من خلال هذه الإدانة يؤكد على فرادتنا، فرادة الإنسان، مزيحاً الحجاب عن أعيننا، كاشفاً أن الجوهر يختبئ بيننا... في قلوبنا... وأن الرحلة في داخلنا قبل أي مكان آخر.

مـوندو

لم يتمكن أحد من معرفة المكان الذي جاء منه موندو. وصل ذات يوم، صدفةً، إلى هنا.. إلى مدينتنا، دون أن نشعر به، ومن ثم ألفناه. كان ولداً في حوالي العاشرة، بوجه مستدير هادئ، وعينين جميلتين سوداوين منحرفتين قليلاً. غير أن أكثر ما كان يسترعي الانتباه فيه هو شعره، شعر داكنٌ أغبر يتغير لونه تبعاً للضوء، يكاد أن يكون رمادياً عند حلول الليل.

لم يكن يُعرف شيئاً عن عائلته وعن منزله. ربما لم يكن لديه عائلة ولا منزل. كان يظهر دائماً، حين لا ينتظره أو يفكر به أحد، في زاوية شارع، أو قرب الشاطئ، أو في ساحة السوق. كان يمشي وحيداً بحزم، ناظراً حوله. يرتدي دوماً ملابسه على ذات الشاكلة، سروالٌ أزرق قطني، وحذاءٌ رياضي، وقميصٌ أخضر واسعٌ عليه بعض الشيء.

حين كان يصل نحوكم، ينظر مباشرةً في وجوهكم، يبتسم، وتصير عيناه الضيقتان شقين يلمعان. تلك كانت طريقته في التحية. حين كان يعجبه أحد ما، يستوقفه ويسأله بكلّ بساطة:

«هل تود أن تتبنّاني؟»

وقبل أن يفيق الناس من دهشتهم، يكون قد أصبح بعيداً.

ما الذي جاء يفعله هنا، في هذه المدينة؟ ربما كان قد وصل بعد رحلة طويلة، في مستودع سفينة شحن، أو في العربة الأخيرة لقطار بضائع سار ببطء عبر البلاد، يوماً بعد يوم، ليلةً بعد ليلة. ربما قد قرر التوقف، حين رأى

الشمس والبحر والدور البيضاء وحدائق النخيل. ما هو مؤكد، أنه قد جاء من مكانٍ بعيدٍ جداً، من الجانب الآخر للجبال، من الضفة الأخرى للبحر. بمجرد رؤيته، كان يُعرف أنه ليس من هنا، وأنه قد رأى بلاداً كثيرة. كانت له هذه النظرة السوداء اللامعة، وهذه البشرة النحاسية اللون، وهذه المشية الخفيفة، الصامتة، والمعوجة قليلاً، مثل الكلاب. أبرز ما كان فيه، هذه اللباقة، وهذا اليقين اللذان لا يملكهما الأطفال عادة في هذا العمر، وكان يحب طرح الأسئلة الغريبة التي تشبه الأحجيات. مع ذلك، لم يكن يعرف القراءة والكتابة.

كان وصوله إلى هنا، إلى مدينتنا، قبل الصيف. كان الجو حاراً جداً، وكانت العديد من الحرائق تندلع على التلال، كلّ مساء. في الصباح، كانت السماء زرقاء لا تتغير، ممتدةً، مصقولة، دون غيم. كانت الرياح تهب من البحر، رياحٌ جافة وحارة تجفف الأرض وتضرم النار. كان يوم سوق. وصل إلى الساحة، وبدأ بالسير بين شاحنات مُزارعي البقول الزرقاء الصغيرة. في الحال وجد عملاً، لأن مزارعي البقول يحتاجون دوماً المساعدة لإفراغ صناديقهم.

كان موندو يعمل على شاحنةٍ صغيرة، وعند انتهائه، يتلقى بعض القطع النقدية، ويذهب إلى شاحنة أخرى. كان أهل السوق يعرفونه جيداً، يحضر إلى الساحة باكراً ليضمن حصوله على عمل، وعند بدء وصول الشاحنات الزرقاء، كان الناس يرونه فيصرخون باسمه:

«موندو! إيه موندو!»

عند انتهاء السوق، كان موندو يحب التقاط ما تبقى. يندس بين مناضد البضائع، ويلتقط ما وقع على الأرض من تفاحٍ وبرتقال وتمر. كان هناك أطفالٌ آخرون يبحثون، ومسنّون أيضاً يملؤون أكياسهم بأوراق الخس والبطاطا. كان التجار يحبون موندو، لا يعترضونه أبدا. في بعض الأحيان، كانت تقدم له بائعة الفاكهة السمينة، والتي تدعى روزا، تفاحاً وموزاً، تتناوله من منضدتها. كانت الساحة صاخبة جداً، فيما تحوم الدبابير فوق التمر والزبيب.

كان موندو يبقى في الساحة إلى أن تغادر الشاحنات الزرقاء منتظراً صديقه! رجل الرش العمومي. رجلٌ طويلٌ نحيف يلبس بزة بزرقة بحرية. كان موندو يحب مشاهدته حين يستعمل سِنان الرش، دون أن يحادثه مطلقاً. كان يوجّه الماء إلى القمامة جاعلاً إياها تركض أمامه مثل الدواب، فيما تصعد غيمة من الرذاذ في الهواء. كان ذلك يبعث صوتاً كصوت العاصفة والرعد، يندفع الماء على قارعة الطريق فتُرى أقواس قزح صغيرة فوق السيارات المتوقفة. لأجل ذلك، كان موندو صديق رجل الرش. كان يحب الرذاذ الناعم الذي يطير ويسقط مثل المطر على هياكل المركبات وعلى واقيات السيارات. أحب رجل الرش موندو أيضاً، دون أن يحادثه. على أية حال، لم يكن قادراً على قول الكثير، بسبب صوت سِنان الرش. كان موندو يشاهد الخرطوم الأسود، الذي ينتفض مثل ثعبان. كانت تنتابه هو أيضاً رغبة كبيرة في أن يحاول الرش، لكنه لم يجرؤ أن يطلب من رجل الرش إعارته سِنان الرش. كما لم تكن لديه القوة في أن يبقى واقفاً، لأن دفق الماء كان قوياً جداً.

كان موندو يبقى في الساحة حتى انتهاء رجل الرش من عمله. كان الرذاذ الناعم يسقط على وجهه ويبلل شعره، مثل سحابة عذبة تجلب السرور. عند انتهاء الرجل من عمله، يفك خرطومه ويذهب إلى مكانٍ آخر. حينها كان هناك دائماً أناس يأتون ويشاهدون الأرض المبللة قائلين:

«يا للعجب! لقد أمطرت!»

كان موندو يذهب، فيما بعد، لمشاهدة البحر والتلال التي تشتعل، أو يذهب للبحث عن أصدقائه الآخرين.

في ذلك الوقت، لم يكن، حقاً، يسكن في مكانٍ معين. كان ينام في مخابئ عند الشاطئ، أو حتى في مكانٍ أبعد، عند الصخور البيضاء في مخرج المدينة. مخابئ جيدة، لا يمكن لأحدٍ أن يجده. لم يكن رجال الشرطة والمساعدة الاجتماعية يحبون أن يعيش الأطفال أحراراً على هذا النحو، يأكلون أي شيء وينامون في أي مكان؛ إلا أن موندو كان ماكراً، يعرف متى يُبحث عنه فلا يظهر.

حين لم يكن هناك خطر، كان يتنزه طيلة النهار في المدينة، يشاهد ما يحدث. كان يحب التنزه دون هدفٍ محدد، والالتفاف في زاوية شارع، ومن ثم الانتقال إلى شارع آخر، وسلوك طريقٍ مختصر، والتوقف بعض الوقت في حديقة، ومن ثم الرحيل. وعند رؤيته لأحد يعجبه، يذهب إليه، ويقول له بهدوء:

«يوم سعيد، هل تود أن تتبناني؟»

أراد العديد من الناس تبنيه، لأن موندو كان يبدو لطيفاً، برأسه المستدير وعينيه اللامعتين. كان ذلك صعباً. لم يكن بإمكان أحد أن يتبناه مباشرة. كانوا يبدؤن بطرح الأسئلة عليه، عن عمره واسمه وعنوانه وأين والديه، ولم يكن موندو يحب هذه الأسئلة، فيجيب:

«لا أعرف، لا أعرف.»

ويرحل راكضاً.

وجد موندو الكثير من الأصدقاء، بمجرد سيره في الشوارع. إلا أنه لم يكن يحادث الجميع. لم يكونوا أصدقاء للتحدث أو للعب معهم. كانوا أصدقاءً للتحية، عند المرور، سريعاً، بطرف العين، أو بإشارة من اليد، من بعيد، من الطرف الآخر للشارع. إنهم أيضاً أصدقاءٌ للطعام، مثل المرأة صانعة الخبز، التي كانت تعطيه كلّ يوم قطعة خبز. كانت ذات وجه وردي عجوز، بالغ التناسق والنعومة مثل تمثال إيطالي. ترتدي السواد دائماً وشعرها الأبيض المضفور يشّكل كعيكة. لها اسم إيطالي، إيدا. كان موندو يحب الدخول إلى محلها، يعمل عندها أحياناً، بتوصيل الخبز إلى التجار المجاورين. عند عودته، كانت تقطع له قطعة كبيرة من رغيفٍ مستدير، وتقدمها له، ملفوفةً في ورق شفاف. لم يطلب موندو أبداً منها أن تتبناه، ربما لأنه كان يحبها حقاً مما جعله يخجل من ذلك.

كان موندو يسير ببطء باتجاه البحر، وهو يأكل قطعة الخبز. يقطعها إلى قطع صغيرة، لتظل طويلاً، يسير ويأكل دون استعجال. كان يبدو كما لو أنه كان يعيش على الخبز، في ذلك الوقت. على أي حال، كان يترك بعض الكسرات ليعطيها لأصدقائه النوارس.

كان يعبرُ العديد من الشوارع والساحات وحديقة عامة، قبل أن يشّم رائحة البحر. كانت تصلُ فجأة في الريح، مع الصوت الرتيب للأمواج.

عند طرف الحديقة، هناك كشك صحف. كان موندو يقف عنده ويختار قصة مصورة، كان يتردد في الاختيار بين عدة قصص لآكيم(١)، وفي النهاية يشتري قصة لكيت كارسون. كان موندو يختار كيت كارسون بسبب الرسم الذي يصوّره مرتدياً معطفه الجلدي الشهير، ثم يبحث عن مقعدٍ لقراءة القصة المصورة. لم يكن ذلك سهلاً، فلا بد أن يكون هناك أحد على المقعد يعرف قراءة كلمات قصة كيت كارسون. كان ما قبل الظهيرة، الوقت المناسب تماماً لذلك، حينها يتواجد دائماً عدد كثير أو قليل من المتقاعدين، الذين يدخنون سجائرهم بملل. حين يجد موندو أحدهم، كان يجلس بجانبه على المقعد، ويشاهد الصور، مستمعاً إلى الحكاية. هندي واقف مكتوف الذراعين أمام كيت كارسون قائلاً:

«مرت عشرة أقمارٍ وقد فقد شعبي صبره. سنخرج فأس القدماء من الأرض! (٢)»

رفع كيت كارسون يده.

«لا تنصت لغضبك، أيها الحصان المجنون. قريباً ستتحقق لك العدالة.»

قال الحصان المجنون:«لقد تأخر ذلك، انظر!»

كان يشير إلى المحاربين المتجمعين أسفل التل.

«لقد انتظر شعبي طويلاً. ستبدأ الحرب وستموتون، أنت أيضاً ستموت يا كيت كارسون!»

امتثل المحاربون لأمر الحصان المجنون، غير أن كيت كارسون أوقعهم بلكمة واحدة وهرب على حصانه. والتف ثانية وصرخ قائلاً للحصان المجنون:

---

(١) أكيم و كيت كارسون Akim et Kit Carson : شخصيات قصص مصورة (المترجم).

(٢) كناية عن الحرب كما فعل القدماء (المترجم).

«سأعود وستتحقق لك العدالة!»

بعد أن يستمع موندو لحكاية كيت كارسون، كان يأخذ القصة المصّورة ويشكر المتقاعد.

«إلى اللقاء!» يقول المتقاعد.

«إلى اللقاء!» يقول موندو.

كان موندو يمشي مسرعاً حتى الرصيف الممتد وسط البحر. ينظر برهةً إلى البحر، يشّد جفنيه كي لا تبهره انعكاسات الشمس. كانت السماء شديدة الزرقة، دون غيوم، فيما الأمواج القصيرة تلمع.

كان موندو ينزل الدرج الصغير الذي يقود إلى كاسرات الأمواج. كان يحب ذلك المكان كثيراً. كان الحاجز الحجري طويلاً جداً، محاطاً بكتلٍ إسمنتية كبيرة قائمة الزوايا. في آخر الحاجز، انتصبت منارة. كانت طيور البحر تنسل في الريح، ترفرف، وتلتف ببطء مصدرةً أنّات أطفال. كانت تحلق فوق موندو، تمسّ رأسه وتناديه، وموندو يرمي كسرات الخبز إلى الأعلى بقدر ما يستطيع، فتلتقطها طيور البحر أثناء طيرانها.

كان موندو يحبُّ السير هنا، على كاسرات الأمواج. يقفز من كتلةٍ إلى أخرى، ناظراً إلى البحر. كان يشعر بالريح التي تضغط على خده الأيمن، وتسحب شعره جانباً. ورغم الريح، كانت الشمس حارة جداً. كانت الأمواج ترتطم بقاعدة الكتل الإسمنتية، فينفجر الرذاذ في النور.

من وقتٍ لآخر، كان موندو يقف كي ينظر إلى الشاطئ. صار بعيداً جداً، شريطٌ داكن مزروع بمتوازيات سطوح بيضاء صغيرة، فيما التلال فوق المنازل رمادية وخضراء. كان دخان الحرائق يصعدُ في بعض الأماكن، مشكلاً بقعةً غريبة في السماء، لكن دون أن يُرى اللهب.

قال موندو: «ينبغي أن أّذهب هناك لأرى.»

كان يفكر باللهب الكبير الأحمر، الذي يلتهم الأدغال وغابات البلوط. كان يفكر أيضاً بسيارات الإطفاء المتوقفة في الدروب، لأنه كان يحب الشاحنات الحمراء كثيراً.

في الغرب، كان هناك أيضاً ما يشبه الحريق على البحر، لكن ذلك لم يكن سوى انعكاس الشمس. كان موندو يبقى ثابتاً يشعر باللهب الخفيف للانعكاسات التي تتراقص على جفنيه، ثم يتابع طريقه، قافزاً على كاسرات الأمواج.

كان موندو يعرف جيداً كلّ الكتل الإسمنتية، التي تبدو كما لو أنها حيوانات ضخمة نائمة، نصفها في البحر، فيما تدفئ ظهورها العريضة في الشمس. كانت تحمل إشارات غريبة حُفرت على ظهورها، بقعاً بنية وحمراء، فيما رصّع الصدف الإسمنت. أسفل كاسرات الموج، حيث يضرب البحر، شكلّت أشنيات الغمون الخضراء سجادة، وكان هناك رخويات ذوات أصدافٍ بيضاء. كان موندو يعرف جيداً إحدى الكتل الإسمنتية، في طرف الحاجز البحري. كان يذهب إليها دائماً للجلوس، مُفّضلاً إياها. كانت كتلة منحنية قليلاً، ليس كثيراً، سطحها الإسمنتي بالٍ وناعم جداً. يجلس موندو عليها متربعاً، ويكلّمها قليلاً بصوتٍ منخفض، ليحيّها؛ بل إنه كان في بعض الأحيان يروي لها حكايات ليسليها، لابد أنها بالتأكيد قد ملّت قليلاً من البقاء طيلة الوقت هنا، دون القدرة على التحرك؛ لذلك، كان يحدثها عن الرحلات والسفن والبحر، ومن ثم بالطبع عن هذه الحيتان الضخمة، التي تنتقل ببطء من قطب لآخر. لم تكن كاسرة الموج تقول شيئاً، لم تكن تتحرك، غير أنها كانت تحبّ الحكايات التي يرويها موندو. بالتأكيد لأجل ذلك كانت وديعةً جداً.

كان موندو يظل لوقتٍ طويل على كاسرة الموج خاصته، ينظر إلى لمعان البحر ويستمع إلى هدير الموج. حين تكون الشمس أكثر حرارة، عند العصر، كان يتمدد وخده على الإسمنت البارد، لينام قليلاً.

بعد ظهيرة أحد هذه الأيام، تعرف على جيوردان الصياد. كان موندو قد سمع من خلال الإسمنت وقع خطوات شخصٍ ما يمشي على كاسرات الأمواج. نهض استعداداً للاختباء، إلا أنه رأى ذلك الرجل الخمسيني الذي يحمل عصا صيد طويلة على كتفه، ولم يخشاه. وصل الرجل إلى الكتلة المجاورة، وأشار بيده إشارةً ودية.

«ماذا تفعل هنا؟»

جلس على كاسرة الأمواج، وأخرج من كيسه المصنوع من القنب الشمعي أنواعاً شتى من الخيوط والصنارات. وعندما شرع بالصيد، ذهب موندو إلى جانبه، على كاسرة الأمواج، وشاهد الصياد يعّد الصنارات. أراه الصياد كيفية نصب الطعم، ومن ثم كيفية رمي الصنارة، ببطء في البداية، ومن ثم بقوة أكبر فأكبر تبعاً لانحلال خيطها. أعار عصاه لموندو، ليتعلم إدارة البكرة بحركة مستمرة، وبموازنة العصا قليلاً من اليسار إلى اليمين.

كان موندو يحب جيوردان الصياد، لأنه لم يكن يطلب منه شيئاً. كان ذا وجه محمّرٍ بالشمس، دمغته تجعدات عميقة، وبعينين صغيرتين بلون أخضر كثيف مدهش.

كان يمضي وقتاً طويلاً في الصيد على كاسرة الأمواج، إلى أن تصبح الشمس قريبة من الأفق. لم يكن جيوردان يتكلم كثيراً، دون شك كي لا يخاف السمك، إلا أنه كان يضحك في كلّ مرةٍ يمسك بغنيمة. كان يفصل فك السمكة بحركات دقيقة، ثم يضع غنيمته في كيس القنب الشمعي. من وقتٍ لآخر، كان موندو يذهب ليحضر له سرطعونات رمادية لاستخدامها كطعم. كان ينزل إلى أسفل كاسرة الأمواج، ويرقب ما بين حزم الأشنيات. وعند انسحاب الموج، تخرج السرطعونات الصغيرة الرمادية، فيمسكها موندو بيده. كان جيوردان الصياد يكسرها على الكتلة الإسمنتية، ويقطعها بمدية صغيرة صدئة.

في أحد الأيام، في مكان ليس ببعيد في البحر، شاهدا سفينة شحن سوداء تنزلق دون صوت.

سأل موندو: «ما اسمها؟»

وضع جيوردان الصياد يده على جبهته وضيّق عينيه.

قال: «إرتيريا» ثم دهش قليلاً:

«أليس لك عينان سليمتان؟»

أجاب موندو: «ليس هذا هو الأمر، ولكني لا أعرف القراءة.»

«آه.. حقاً؟» قال جيوردان.

نظرا طويلاً إلى السفينة العابرة.

سأل موندو: «ماذا يعني اسم السفينة؟»

«إرتيريا، اسم بلادٍ تقع على ساحل أفريقيا، على البحر الأحمر.»

«يا له من اسمٍ جميل، لا بد أنها بلادٌ جميلة.» قال موندو.

فكر موندو لحظةً.

«والبحر هناك اسمه البحر الأحمر؟»

ضحك جيوردان الصياد:

«أتظن أن البحر هناك أحمر حقاً؟»

«لا أعلم.»

«صحيح، حين تغرب الشمس يصبح البحر أحمر. لكن هذا الاسم بسبب الناس الذين كانوا يعيشون هناك قديماً»

كان موندو ينظر إلى السفينة التي تبتعد.

«بالتأكيد إنها ذاهبة إلى هناك، إلى أفريقيا.»

قال جيوردان الصياد «إنها بعيدة، الجو هناك حارٌ جداً، الشمس قويةً، والساحل يشبه الصحراء.»

«أهناك شجر نخيل؟»

«نعم وشواطئ رملية طويلة. في النهار البحر شديد الزرقة، هناك الكثير من قوارب الصيد الصغيرة ذات الأشرعة المجنحة، تبحر بمحاذاة الساحل، من قرية لأخرى.»

«إذن، بالإمكان الجلوس على الشاطئ ومشاهدة مرور القوارب؟ البقاء جلوساً في الظلّ، ورواية الحكايات ومشاهدة القوارب في البحر؟»

«يعمل الرجال، يصلحون الشباك، ويثبتون ألواح التوتياء على هياكل القوارب الجانحة على الرمل. فيما يذهب الأطفال لإحضار الأغصان اليابسة ويشعلون النار على الشاطئ، لإحماء الزفت الذي يستعمل لسد تشققات القوارب.»

لم يعد جيوردان الصياد ينظر إلى صنارته، فقد أخذ ينظر إلى البعيد، إلى الأفق، كما لو أنه يريد أن يرى كلّ ذلك.

«هل هناك أسماك قرش في البحر الأحمر؟»

«نعم، هناك دائماً واحدة أو اثنتان تتبعان القوارب، غير أن الناس تعّودوا، ولم يعودوا يعيرونها انتباهاً.»

«إنها ليست شريرة، أليس كذلك؟»

إن أسماك القرش مثل الثعالب، تبحث دائماً عن قمامة تسقط في الماء، عن شيء ما تسرقه، إلا أنها ليست شريرة.»

«لا بد أن البحر الأحمر بحرٌ كبير.» قال موندو.

«نعم إنه كبير جداً، هناك الكثير من المدن على شواطئه، وموانئ لها أسماء غريبة.. بالول، باراسالي، ديبا.. مصوع، إنها مدينة كبيرة بيضاء. تذهب

السفن إلى البعيد بمحاذاة الشاطئ، تبحر لأيام وليالٍ، نحو الشمال حتى رأس قصار، أو نحو الجزر، دهلك الكبرى وأرخبيل نورا، حتى إنه في بعض الأحيان تبحر نحو جزر الفرسان في الطرف الآخر من البحر.»

كان موندو يحب الجزر كثيراً.

«أوو، نعم.. هناك الكثير من الجزر، جزرٌ بصخور حمراء وشواطئ رملية، وعلى الجزر شجر نخيل!»

«في فصل الأمطار، هناك عواصف. تهب الريح بقوة شديدة تقلع النخيل وتنزع سقوف المنازل.»

«هل تجنح السفن؟»

«لا، يبقى الناس في بيوتهم، ملتجئين، لا يخرج أحد إلى البحر.»

«لكن ذلك لا يستمر لوقتٍ طويل.»

«على جزيرةٍ صغيرة، هناك صياد يعيش مع عائلته في منزلٍ من سعف النخيل على الشاطئ. الولد البكر للصياد كبير، لا بد أنه بمثل عمرك. يذهب مع والده على القارب، ويلقي الشباك في البحر، وحين يسحبها تكون ممتلئة بالأسماك. يحب ركوب القارب مع والده كثيراً، إنه قوي، يعرف تحريك الشراع لتوجيهه للريح. حين يكون الجو جميلاً والبحر هادئاً، يصطحب الصياد كلّ عائلته، ويذهبون لزيارة الأهل والأصدقاء في الجزر المجاورة، ويعودون في المساء».

«يتقدم القارب وحده، دون صوت، والبحر الأحمر تماماً بلونٍ أحمر بسبب غروب الشمس.»

فيما كانا يتكلمان، قامت السفينة أريتريا بانعطافةٍ كبيرة في البحر. عاد القارب المرشد متأرجحاً فوق مخرها، فيما اطلقت السفينة فقط صافرة قصيرة لتقول إلى اللقاء.

«متى ستذهب إلى هناك أنت أيضاً؟» سأل موندو.

«إلى أفريقيا، إلى البحر الأحمر؟» ضحك جيوردان الصياد «لا أستطيع الذهاب إلى هناك، يجب أن أبقى هنا على الحاجز البحري.»

«لماذا؟»

كان يبحث عن إجابة.

«لأنـ... لأنني بحار لا يملك قارباً.»

ثم عاد إلى النظر إلى صنارته.

حين قاربت الشمس الأفق، وضع جيوردان الصياد صنارته على الكتلة الإسمنتية، وأخرج من جيب سترته سندويشاً. أعطى نصفه إلى موندو وأكلا معاً وهما ينظران إلى انعكاسات الشمس على البحر.

غادر موندو قبل حلول الليل، للبحث عن مخبأ للنوم.

«إلى اللقاء» قال موندو.

«إلى اللقاء» رد جيوردان. حين ابتعد موندو قليلاً، صاح جيوردان قائلاً له:

«عدّ لرؤيتي، سأعلمك القراءة. إنها ليست صعبة.»

واستمر في الصيد إلى أن حلّ الليل تماماً وإلى أن بدأت المنارة بإرسال إشارات منتظمة، كلّ أربع ثوان.

كان كلّ ذلك على أحسن ما يرام، لكن كان ينبغي الانتباه من التشيباكان[١]. كلّ صباح، عند شروق الشمس، كانت الشاحنة الرمادية ذات النوافذ المسيجة تسير ببطء في شوارع المدينة، دون أن تُحدث صوتاً، على حافة الأرصفة. تطوف في الشوارع التي لا تزال نائمة وضبابية، بحثاً عن الكلاب والأطفال المفقودين.

لمحها موندو ذات يوم، بعد خروجه من مخبئه على شاطئ البحر، عند عبوره الحديقة. توقفت الشاحنة على بعد بضع أمتار منه، بالكاد كان لديه الوقت اللازم ليجثم خلف دغل. رأى الباب الخلفي ينفتح، وينزل منه رجلان يرتديان بدلتين رياضيتين رماديتين، يحملان كيسين كبيرين من القماش وحبالاً. شرعا بالبحث في ممرات الحديقة، وسمع موندو حديثهما عند مرورهما جانب الدغل.

«لقد ذهب من هنا.»

«هل رأيته؟»

«نعم، لا بد أنه لم يبتعد.»

ابتعد الرجلان ذوا البدلتين الرماديتين، كلّ منهما في اتجاه، فيما ظل موندو ساكناً خلف الدغل، يكاد لا يتنفس. بعد لحظات، سمع صرخة مبحوحة غريبة اختنقت، ومن جديد عاد الصمت. حين عاد الرجلان، رأى موندو أنهما

---

(١) تعبير من أصل إيطالي CIAPACAN أو ACCHIAPACANI يشير إلى الشخص الذي يعيش من تجارة الكلاب التي يلتقطها في الشوارع. كما يشير هذا التعبير في مرسيليا إلى عمال البلدية المختصين بذلك (المترجم).

كانا يحملان شيئاً ما في أحد الكيسين. وضعا الكيس في الشاحنة من الخلف، فيما سمع موندو مرة أخرى هذه الصرخات الحادة المؤذية للآذان. كان كلباً محبوساً في الكيس. غادرت الشاحنة الرمادية دون أن تسرع، مختفيةً خلف أشجار الحديقة. قال أحد العابرين لموندو إنهم التشيباكان الذين يخطفون الكلاب الشاردة، ثم نظر بانتباه إلى موندو، وأضاف ليخيفه بأن الشاحنة تلتقط، في بعض الأحيان، الأطفال الذين يتسكعون بدلاً من الذهاب إلى المدرسة. منذ ذلك اليوم، أخذ موندو يترصد طيلة الوقت المكان على جانبيه، وحتى خلفه، ليتأكد من رؤية قدوم الشاحنة الرمادية.

كان موندو يعلم أن ليس هناك ما يخافه، في الساعات التي يخرج بها الأطفال من المدرسة، أو في أيام الأعياد. كان عليه الحرص، في الأوقات التي يكون فيها القليل من الناس في الشوارع، في الصباح الباكر أو عند حلول الليل. ربما لأجل ذلك كان موندو يسير بشكل منحرف قليلاً مثل الكلاب.

في ذلك الوقت، تعرف على الغجري والقوزاقي وصديقهما العجوز دادي. لُقبّوا بهذه الأسماء هنا، في مدينتنا، لأن أسماءهم الحقيقية كانت مجهولة. فالغجري لم يكن غجرياً، لكنه دُعي بذلك بسبب سحنته البرونزية وشعره الأسود الغامق، ومظهره الجانبي الشبيه بالنسر؛ لكن دون شك استحق لقبه من حقيقة كونه يسكن في سيارة هوتشكيس[١] قديمة سوداء تقف في الساحة، ومن أنه كان يقتات من أعمال الخفة التي يمارسها. أما القوزاقي، فقد كان رجلاً غريباً، ذا هيئة منغولية، يرتدي دوماً قبعةً كبيرة من الفرو تعطيه هيئة دبّ. يعزف الأكورديون أمام أرصفة المقاهي، لاسيما في الليل، لأنه في النهار يكون ثملاً تماماً.

غير أن موندو كان يفضل العجوز دادي. ذات يوم حين كان يمشي بمحاذاة الشاطئ، رآه يجلس أرضاً فوق ورقة صحيفة. كان الرجل العجوز يتدفأ

---

(١) هوتشكيس: ماركة سيارات فاخرة (المترجم).

بالشمس، دون أدنى انتباه للعابرين أمامه. أثارت فضولَ موندو حقيبةٌ صغيرة صفراء مثقّبة من الكرتون المقوى كان قد وضعها العجوز دادي بجانبه أرضاً، فوق ورقة صحيفة أخرى. بدا دادي وديعاً هادئاً، ولم يخشاه موندو قط. اقترب ليشاهد الحقيبة الصفراء، وسأل دادي:

«ماذا في حقيبتك؟»

فتح الرجل عينيه قليلاً. دون أن يقول شيئاً، وضع الحقيبة على ركبتيه وفتح الغطاء، كان يبتسم ابتسامةً غامضة. مرّر يده تحت الغطاء، ليُخرج بعد ذلك زوجاً من اليمام.

«إنهما جميلان» قال موندو. «ما اسمهما؟»

كان دادي يمسّد ريش الطيرين، ثم قرّبهما من وجنتيه.

«هو بيلو، وهي زوي.»

كان يمسك اليمامتين بيديه ويمسدهما بلطف شديد على وجنتيه. كان ينظر إلى البعيد بعينيه الرطبتين والفاتحتين، اللتين لا تريان جيداً.

مسّد موندو بلطف رأس اليمامتين. كان ضوء الشمس يبهرهما، وأرادتا العودة إلى حقيبتهما. كان دادي يكلّمهما بصوت خفيض ليهدئهما، ثم أغلق عليهما الغطاء من جديد.

أعاد موندو القول: «إنهما جميلتان جداً.» ثم ذهب، فيما أغلق الرجل عينيه وتابع النوم جالساً فوق صحيفته.

عند حلول الليل، ذهب موندو لرؤية دادي في الميدان، كان يعمل مع الغجري والقوزاقي في العرض. كان يجلس على بعدٍ قليل من حقيبته الصفراء، فيما كان الغجري يعزف البانجو، والقوزاقي يصيح بصوته الجهوري لاجتذاب المتسكعين. كان الغجري يعزف بسرعة، مدندناً ومتابعاً حركة أصابعه، فيما وجهه الداكن يلمع تحت نور المصابيح.

جلس موندو في الصف الأول للمشاهدين، محيياً دادي. بدأ الغجري العرض. وقف أمام المشاهدين، مخرجاً من قبضتيه المغلقتين مناديل ملونة من كل الألوان، وبسرعة لا تصدق. كانت المناديل الخفيفة تتساقط على الأرض، وكان ينبغي على موندو أن يجمعها أولاً بأول. كان ذلك عمله، ثم أخرج الغجري من يده أغراضاً غريبة، من كل الأنواع، مفاتيح، خواتم، أقلام، صور، طابات كرة الطاولة، وحتى سجائر مشتعلة يقوم بتوزيعها على الناس. كان يقوم بذلك بسرعة فائقة حتى إنه لم يكن بالإمكان رؤية يديه تتحركان. كان الناس يضحكون ويصفقون، فيما كانت القطع النقدية قد بدأت بالتساقط على الأرض.

قال القوزاقي: «يا صغير، ساعدنا بجمع القطع النقدية»

تناولت يدا الغجري بيضة، لفتاها في منديل أحمر، ثم توقفتا لحظةً.

«انتـ... باه!»

ضربت كلّ كف الأخرى، وحين حلّتا المنديل، كانت البيضة قد اختفت. صفق الناس بقوةٍ أكثر، فيما موندو كان يجمع قطعاً أخرى ويضعها في علبة حديدية.

حين لم يتبق قطع نقدية، جلس موندو على عقبيه، ونظر من جديد إلى يدي الغجري. كانتا تتحركان بسرعة، كما لو أنهما مستقلتان. كان الغجري يخرج من يده المغلقة بيضات أخرى، ثم يجعلها تختفي فجأة من بين يديه. في كل مرة كانت ستختفي فيها بيضة، كان ينظر إلى موندو غامزاً.

«هوب! هوب!»

غير أن أجمل ما كان يجيده الغجري، هو تناول بيضتين شديدتي البياض، تأتيان إلى يديه دون أن يُعرف كيف، يلفهما في منديلين كبيرين أحمر وأصفر، ثم يرفع ذراعيه في الهواء ويظلّ لحظةً دون أن يتحرك. فيما ينظر الجميع إليه وهو يمسك أنفاسه.

«انتـ... باه!»

كان الغجري يُنزل ذراعيه فارداً المنديلين، فتخرج منهما يمامتان بيضاوان وتطيران فوق رأسه قبل أن تحطّا على كتفي دادي العجوز.

كان الناس يصرخون: «أأو!»

ويصفقون بقوة ويلقون بمطرٍ كثيف من القطع النقدية.

عند انتهاء العرض، ذهب الغجري لشراء سندويش وبيرة، وذهب الجميع للجلوس على سلم الهوتشكيس القديمة السوداء.

قال الغجري لموندو: «لقد ساعدتني جيداً يا صغيري»

شرب القوزاقي البيرة وصاح بصوت عال:

«أهو ابنك أيها الغجري؟»

«لا، إنه صديقي موندو.»

«إذن بصحتك يا صديقي موندو!»

كان قد أصبح ثملاً بعض الشيء.

«هل تجيد عزف الموسيقا؟»

قال موندو: «لا يا سيدي.»

يقهقه القوزاقي.

«لا يا سيدي! لا يا سيدي!» كان يعيد ذلك صارخاً، لكن موندو لم يكن يفهم ما الذي يضحكه.

ثم تناول القوزاقي أكورديونه الصغير وبدأ بالعزف. لم يكن ما عزفه موسيقا بحق، بل تتابع لنغمات غريبة ورتيبة تنزل وتصعد، بسرعة تارة وببطء تارة أخرى. كان القوزاقي يعزف وهو يضرب بقدمه على الأرض، ويغني بصوته الخفيض مكرراً دائماً المقاطع اللفظية ذاتها.

«آي، أي، يايا، يايا، آيآيا، يايا، آيآيا، يايا، /آيآيا!» كان يغني ويعزف على الأكورديون متهادياً، خطر لموندو أنه يبدو حقاً مثل دبٍ ضخم.

كان الناس العابرون، يتوقفون لحظة لمشاهدته، يضحكون قليلاً، ومن ثم يتابعون سيرهم.

فيما بعد، حين أظلم الليل تماماً، توقف القوزاقي عن العزف، جلس على سلم الهوتشكيس بجانب الغجري. كانا يشعلان سجائر من تبغ أسود ذي رائحة قوية، ويتحدثان فيما يشربان علباً أخرى من البيرة. كانا يتحدثان عن أشياء بعيدة لم يفهمها موندو جيداً، عن ذكريات الحرب والسفر. كان العجوز دادي في بعض الأحيان يتكلم بدوره، فيستمع موندو إلى كلامه، لأنه كان يتحدث عن الطيور واليمام والحمام الزاجل. كان دادي يروي بصوته الهادئ، اللاهث قليلاً، قصصاً عن هذه الطيور التي تسافر طويلاً فوق الريف، فيما تنساب الأرض من تحتها، بأنهارها المتعرجة، وأشجارها الصغيرة المزروعة بمحاذاة الطرق التي تشبه أشرطة سوداء، والمنازل ذات الأسقف الحمراء والرمادية، والمزارع المحاطة بحقول من كل الألوان، والمروج والتلال والجبال التي تشبه ركام الحصى. تحدث الرجل القصير أيضاً عن كيفية عودة الطيور دوماً إلى منازلها، قارئة التضاريس كما لو أنها تقرأ خارطة، أو مستدلة بالنجوم، كما يفعل البحارة والطيارون. كانت بيوت الطيور شبيهة بالأبراج، دون أبواب، نوافذ ضيقة تماماً تحت السقف فقط. حين يكون الجو حاراً، كان يُسمع الهديل الذي يصعد من الأبراج، فيُعرف أن الطيور قد عادت.

كان موندو يستمع إلى صوت العجوز دادي، وينظر إلى جمرة السجائر التي تلمع في الليل. كانت السيارات تسير حول الساحة، مصدرة صوتاً ناعماً مثل الماء، فيما أضواء المنازل تنطفئ واحداً وراء الآخر. كان الوقت متأخراً، وشعر موندو أن نظره يتشوش لأنه سيغفو؛ لذا أرسله الغجري كي ينام على المقعد الخلفي للهوتشكيس، وهناك أمضى الليل. عاد العجوز دادي إلى منزله، إلا أن الغجري والقوزاقي لم يناما. ظلا جالسين على سلم السيارة حتى الصباح، على هذا النحو، يشربان ويدخنان ويتكلمان.

كان موندو يحب فعل ذلك كثيرا: كان يجلس على الشاطئ، الذراعان حول ركبتيه، مشاهداً شروق الشمس. كانت السماء صافيةً شهباء عند الساعة الرابعة والدقيقة الخمسين، ما عدا بضعُ غيمات بخارية فوق البحر. لم تكن الشمس تظهر مباشرة، إلا أن موندو كان يشعر بقدومها، من الطرف الآخر للأفق، عند صعودها البطيء كلهبٍ يشتعل. كانت تتبدى في البداية هالة شاحبة تتسع بقعتها في الفضاء، فيشعر المرء في أعماقه بهذا الاهتزاز الغريب الذي يجعل الأفق يرتجف، كما لو أن هناك قوة ما. حينها كان يظهر القرص فوق الماء، ملقياً حزمة مستقيمة من النور في العيون، فيبدو البحر والأرض بلون واحد. بعد لحظة، كانت الألوان والظلال الأولى تصل إلا أن مصابيح المدينة تظل مضاءةً بضوئها الشاحب والمتعب، لأنه لا زال من غير المؤكد تماماً أن النهار كان قد بدأ.

كان موندو ينظر إلى الشمس الصاعدة فوق البحر. ويدندن لنفسه هازاً رأسه وجذعه، معيداً غناء القوزاقي:

« آياآيا، يايا، ياياايا، يايا..»

لم يكن هناك أحد على الشاطئ، سوى بضعة نوارس تطفو فوق البحر. كان الماء شديد الشفافية، رمادياً.. أزرق، زهرياً، والحصى شديدة البياض.

كان موندو يفكر في النهار الذي كان يشرق في البحر أيضاً، لأجل الأسماك والسلطعونات. هل كان كل شيء يصبح في عمق البحر زهرياً وصافياً كما على سطح الأرض؟ كانت الأسماك تستيقظ وتتحرك ببطءٍ تحت سمائها الشبيهة بالمرآة، سعيدة وسط آلاف الشموس الراقصة، وكانت أحصنة

البحر تصعد على سيقان الأشنيات كي ترى النور الجديد على نحو أفضل. حتى إن القواقع كانت تشق أصدافها، لتسمح للنهار بالدخول. كان موندو يفكّر كثيراً بها، وينظرُ إلى الأمواج البطيئة التي تتساقط على حصى الشاطئ قادحة الشرر.

حين أصبحت الشمس أعلى قليلاً، نهض موندو، لأنه شعر بالبرد ونزع ثيابه. كان ماء البحر أكثر عذوبة، وأكثر دفئاً من الهواء، فغطس حتى عنقه. كان يحني وجهه، يفتح عينيه كي يرى العمق. كان ينصت إلى الهدير الهش للأمواج التي تتكسر، وكان ذلك يبعث موسيقا مجهولة على الأرض.

كان موندو يظلّ لوقتٍ طويل في الماء، إلى أن تصبح أصابعه بيضاء وتبدأ ساقاه بالارتجاف؛ لذا كان يعود للجلوس على الشاطئ، مُسنداً ظهره على الجدار الداعم للطريق، ومنتظراً بعينين مغلقتين أن تلف حرارة الشمس جسده.

كانت التلال في أعلى المدينة تبدو أكثر قرباً. والنور الجميل ينير الشجر والواجهات البيضاء للدارات، فيما موندو يقول من جديد:

«ينبغي أن أذهب لرؤيتها.»

ثم أعاد ارتداء ملابسه وترك الشاطئ.

كان يوم عيد، وليس هناك ما يدعو للخشية من التشيباكان. في أيام الأعياد، كان الأطفال والكلاب يستطيعون التسكع في الشوارع بحرية.

ما كان مزعجاً هو إقفال كل شيء. لم يحضر التجار لبيع خضارهم، وأنزلت ستائر المخابز الحديدية. كان موندو جائعاً، حين عبر أمام محل البوظة الذي يدعى كرة الثلج، اشترى بوري بوظة بالفانيلا، وأكله أثناء مشيه عبر الشوارع.

الآن، أضاءت الشمس الأرصفة جيداً، إلا أن الناس لم يظهروا، لا بد أنهم كانوا متعبين. من وقت لآخر، كان أحدهم يأتي، فيحييه موندو، غير أنه كان ينظر إليه بدهشة، لأن شعره وأهدابه كانت بيضاء من الملح، ووجهه مسمر من الشمس، ربما حسبه الناس متسولاً.

كان موندو ينظر إلى واجهات المحلات فيما يتناول بوظته. داخل إحدى الواجهات، حيث كان الضوء مناراً، كان هناك سريرٌ خشبي أحمر كبير بأغطية ووسادة نقشت بالزهور، كما لو أن أحدهم كان سيستلقي وينام فيه. بعد مسافة قصيرة، امتلأت واجهة بمواقد طبخ شديدة البياض، ومشواة تدور فيها ببطء دجاجة كرتونية. كان كلّ ذلك غريباً. تحت باب أحد المحلات، وجد موندو صحيفة مصورة، فجلس على مقعد يقرؤها.

كانت الصحيفة تروي حكاية مصورة بالألوان تُظهر امرأةً جميلة شقراء تطبخ وتلعب مع أطفالها. كانت حكاية طويلة، قرأها موندو بصوت عالٍ مقرباً الصور من عينيه كي تختلط الألوان.

«دُعي الطفل جاك ودُعيت الطفلة كامي، أمهما في المطبخ، تقوم بإعداد كلّ ما طاب أكله، خبز، دجاج مشوي، حلوى. سألتهما: ماذا تريدان أن تأكلا من طيبات هذا اليوم؟ قال جاك: اصنعي لنا الحلوى مع الفريز من فضلك. غير أن أمهما قالت بأنه لا يوجد فريز، ولا يوجد شيء سوى التفاح. قشّر جاك وكامي التفاح، وقطّعاه إلى قطع صغيرة، وصنعت أمهما الحلوى، وضعتها في الفرن لتنضج. نشر ذلك رائحة طيبة في البيت. حين نضجت الحلوى، وضعتها أمهما على الطاولة، وقطعتها إلى شرائح. أكل جاك وكامي الحلوى الطيبة، فيما يشربان الشوكولا الساخنة. ثم قالا: لم نأكل أبداً حلوى طيبة بهذا الشكل!»

حين انتهى موندو من قراءة القصة، أخفى الجريدة المصورة في دغل في الحديقة ليعيد قراءتها فيما بعد، أراد أن يشتري قصة مصورة أخرى، كحكاية حكيم في الغابة، إلا أن بائع الصحف كان قد أغلق دكانه.

وسط الحديقة، ثمة متقاعد من مصلحة البريد ينام على مقعد. بجانبه على المقعد صحيفة مفتوحة وقبعة.

حين صعدت الشمس في السماء، صار الضوء أكثر عذوبة. بدأت السيارات سيرها في الشوارع، مطلقة أبواقها. في آخر الحديقة، بالقرب من المخرج، هناك ولد صغير يلعب بدراجة حمراء ثلاثية العجلات. توقف موندو بجانبه.

«أهي لك؟» سأل.

«نعم» قال الولد الصغير.

«أتعيرني إياها؟»

شّد الولد الصغير المقود بكل قواه.

«لا! لا! اذهب!»

«ما اسم دراجتك؟»

أخفض الولد الصغير رأسه دون إجابة، ثم قال بسرعة:

«ميني.»

«إنها جميلة جداً»، قال موندو.

نظر ثانية إلى الدراجة ثلاثية العجلات، والإطار المدهون بالأحمر، والمقعد الأسود، والمقود والرفراف الكرومي. أطلق الجرس مرة أو مرتين، غير أن الولد الصغير أبعده ورحلَ يقود الدراجة.

لم يكن هناك الكثير من الناس في ساحة السوق. كانوا يذهبون إلى القداس ضمن مجموعات صغيرة أو يتنزهون باتجاه البحر. أيام الأعياد هي الأيام التي كان موندو يودّ فيها التقاء أحد ما ليسأله:

«هل تود أن تتبناني؟»

لكن، ربما لن يسمعه أحد، هذه الأيام.

دخل موندو ردهة أحد الأبنية، دون تعيين. وقف ينظر إلى علب البريد الفارغة ولوحات الحريق. ضغط على زر مؤقت الإنارة، مستمعاً للحظات إلى صوته المتواتر، حتى انطفاء الضوء. في آخر الردهة، كان هناك درجات الدرج الأول، والدرابزين الخشبي المدهون بالشمع ومرآة كبيرة كامدة، مؤطرة بتماثيل جصية. كان لموندو رغبة في القيام بجولة في المصعد، غير أنه لم يكن يجرؤ، إذ كان ممنوعاً ترك الأطفال يلعبون بالمصعد.

دخلت امرأة شابة البناء. كانت جميلة، ذات شعر كستنائي متموج وثوب فاتح يحف حولها، كانت رائحتها عطرة.

خرج موندو من زاوية الباب فانتفضت.

«ماذا تريد؟»

«هل أستطيع الصعود إلى المصعد معك؟»

ابتسمت المرأة الشابة بلطف.

«بالطبع، تعال!»

كان المصعد يتحرك قليلاً تحت الأقدام مثل قارب.

«إلى أين تذهب؟»

«إلى أعلى مكان»

«إلى السادس؟ أنا أيضاً.»

كان المصعد يصعد ببطء. فيما موندو ينظر عبر الزجاج إلى السقوف التي كانت تتراجع. كانت الأبواب تهتز، وفي كل طابق كانت تُسمع طقطقة غريبة. كان يُسمع أيضاً أزيز الكبلات في قفص المصعد.

«أتسكن هنا؟»

كانت المرأة الشابة تنظر إلى موندو بفضول.

«لا يا سيدتي.»

«أتذهب لزيارة أصدقاء؟»

«لا يا سيدتي، إني أتنزه»

«أوو؟»

ظلت المرأة الشابة تنظر إلى موندو. كانت عيناها كبيرتين هادئتين ناعمتين، نديتين بعض الشيء. فتحت حقيبة يدها وأعطت موندو قطعة سكرية ملفوفة بورق شفاف.

كان موندو ينظر إلى الطوابق التي تعبر ببطء شديد.

«إنه عالٍ مثل طائرة» قال موندو.

«هل صعدت في الطائرة؟»

«أوو.. لا يا سيدتي، ليس بعد. لا بد أنها جميلة.»

ضحكت المرأة الشابة قليلاً.

«إنها أسرع من المصعد، أتعلم!»

«إنها تذهب أعلى أيضاً!»

«نعم أعلى بكثير!»

وصل المصعد مصدراً أنيناً واهتزازاً. خرجت المرأة الشابة.

«ألا تريد النزول؟»

«لا» قال موندو، «أريد العودة إلى الأسفل في الحال.»

«أوو نعم؟ كما تريد. للنزول اضغط على الزر قبل الأخير، هنا. انتبه لا تلمس الزر الأحمر، إنه جرس الإنذار.»

قبل إغلاق الباب، ابتسمت مرةً أخرى.

«رحلة طيبة!»

«إلى اللقاء!» قال موندو.

حين خرج من البناء، رأى موندو أن الشمس قد أصبحت عالية في السماء، مكانها تقريباً وقت الظهيرةً. كانت الأيام تمر مسرعةً، من الصباح حتى المساء. لو لم يكن أحد ينتبه إليها، فإنها كانت ستمر على نحو أسرع. من أجل ذلك، كان الناسُ مسرعين دوماً. يسرعون في القيام بكل ما عليهم عمله قبل أن تعود الشمس إلى النزول من جديد.

عند الظهر، كان الناس يمشون بخطوات كبيرة في شوارع المدينة. يخرجون من المنازل، ويصعدون في السيارات، ويطرقون الأبواب. ودّ موندو أن يقول لهم:«انتظروا! انتظروني!» غير أن أحداً لن يأبه به.

بما أن قلبه هو الآخر كان يخفق بسرعة وبقوة، كان موندو يتوقف عند الزوايا ساكناً وبذراعين متصالبتين، ينظر إلى الجموع التي كانت تتقدم في الشارع. لم يعد يبدو عليهم التعب مثل الصباح. كانوا يمشون بسرعة، أقدامهم تبعث صخباً، مع حديثهم وضحكهم العالي.

كانت امرأة عجوز وسطهم، تتقدم ببطء على الرصيف، بظهرٍ منحن، دون أن ترى أحداً. كانت حقيبة تسوقها ملأى بالطعام وثقيلة بحيث إنها تلامس الأرض في كل خطوة. اقترب موندو منها، وساعدها على حمل حقيبتها. كان يسمع تنفس المرأة العجوز التي تلهث قليلاً خلفه.

توقفت المرأة العجوز أمام باب بناء رمادي، صعد موندو الدرج معها. حسبَ أن المرأة العجوز ربما كانت جدته أو عمته، غير أنه لم يكلّمها، لأنها كانت صماء قليلاً. فتحت المرأة العجوز باباً في الطابق الرابع، وذهبت إلى مطبخها من أجل أن تقطع قطعة من الخبز المتبل البائت. أعطتها لموندو فرأى يدها ترتجف كثيراً، كذلك صوتها حين قالت:

«ليباركك الله.»

على بعدٍ قليل في الشارع، شعر موندو أنه أصبح صغيراً جداً. كان يسير بملاصقة الجدار، فيما صار الناس من حوله بطول الشجر، بوجوه بعيدة مثل شرفات الأبنية. كان موندو يندس بين هؤلاء العمالقة، الذين يفشخون فشخات كبيرة. كان يتفادى نسوة عاليات مثل أبراج الكنائس، يرتدين أثواباً واسعة، مزدانة بدوائر صغيرة، ورجالاً عريضين مثل جروف صخرية، يرتدون بزّات زرقاء وقمصاناً بيضاء. ربما كان ضوء النهار قد سبّب ذلك، الضوء الذي كبّر الأشياء، وقصّر الظلال. كان موندو ينسل وسطهم، ولم يكن يستطيع رؤيته إلا هؤلاء الذين ينظرون إلى الأسفل. لم يكن يخاف إلا عند عبور الشوارع من وقت لآخر. غير أنه كان يبحث عن أحد ما في كل مكان في المدينة، في الحدائق، على الشاطئ. لم يكن يعرف تماماً عمن يبحث، ولماذا. لكن عن أحد ما، ليقول له بكل بساطة وبسرعة ومباشرة بعد قراءة الجواب في عينيه:

«هل تود أن تتبناني؟»

في هذه الآونة، حيث كانت النهارات جميلة والليالي طويلة وحارة، التقى موندو بـ تي شين. خرج موندو من مخبئه المسائي، عند قاعدة الكاسر. كانت الريح الدافئة تهبّ من الأرض، ريح جافة تكهرب الشعر وتحرق غابات البلوط. شاهد موندو فوق المدينة على التلال دخاناً كثيفاً أبيض ينتشر في السماء.

نظر موندو برهةً إلى التلال المضاءة بالشمس، ثم سلكَ الدرب الواصل إليها. دربٌ متعرج، يتحول كلما ابتعد إلى درج بدرجات واسعة من المربعات الإسمنتية. في كلّ طرف من الدرب، مجرى ممتلئ بورق الشجر اليابس وبقصاصات الورق.

كان موندو يحب كثيراً صعود الأدراج. كانت تتعرج عبر التل، دون استعجال، كما لو أنها لا تؤدي إلى أي مكان. كانت هناك جدران عالية من الحجارة طوال الطريق، تعلوها كسرات الآواني الزجاجية القديمة، بحيث لا يمكن معرفة المكان الذي هو فيه. كان موندو يصعد ببطء الدرجات ناظراً إن كان هناك شيء ما يثير الاهتمام في سواقي ماء المطر. في بعض الأحيان، كان يعثر على قطعة نقدية أو مسمار صدئ أو صورة أو فاكهة غريبة.

كلما كان يصعد أكثر كلما كانت المدينة تبدو مسّطحة، بكلّ مستطيلات الأبنية والخطوط المستقيمة للشوارع حيث تسير السيارات الحمراء والزرقاء. كان البحر أيضاً يصير مسطحاً، تحت التل، يلمع مثل صفيحة معدنية بيضاء. كان موندو يلتفت من وقت لآخر لينظر إلى كلّ ذلك بين أغصان الأشجار وفوق جدران الدارات.

لم يكن هناك أحد على الأدراج، مرة واحدة، فقط، كان هناك قط كبير مخطط يكمن في ساقية ماء المطر، يأكل بقايا لحم علبة كونسروة صدئة. تمدد القط، وأذناه متدليتان، ونظر إلى موندو بحدقتيه المستديرتين في عينيه الصفراوين.

مر موندو بجانبه دون أن يقول شيئاً. شعر بالحدقتين السوداوين اللتين كانتا تتابعان النظر إليه إلى أن انعطف.

كان موندو يصعد دون أي صوت، يضع أقدامه بهدوءٍ شديد متجنباً الأغصان والبذور، منسلاً بصمت شديد ، مثل ظلّ.

لم يكن هذا الدرج منتظماً، تارة يكون وعراً بدرجات صغيرة عالية تبعث على اللهاث، وتارة منبسطاً يمتد بين الملكيات الخاصة وأراضي المشاع؛ بل بدا أحياناً كما لو أنه يريد أن يهبط من جديد.

لم يكن موندو مستعجلاً. كان يتقدم، هو أيضاً، بشكلٍ متعرج من حائطٍ لآخر. كان يتوقف لينظر في سواقي ماء المطر، أو من أجل أن يقطف أوراق الشجر. كان يأخذ ورقة من شجرة فلفل ويهرسها بين أصابعه ليشم رائحتها التي تخز الأنف والعيون. وكان يقطف أزهار صريمة الجدي، ويرتشف القطرة الصغيرة المحلاة التي ترصع أسفل الكأس. أو كان يصدر موسيقا برقاقة عشبية يضعها على شفتيه.

كان موندو يحب السير هنا، وحيداً، عبر التل. كلما يصعد كان ضوء الشمس يصبح أصفر وعذباً أكثر فأكثر، كما لو أنه يخرج من بين أوراق النباتات ومن حجارة الجدران القديمة. كان الضوء قد أشبع الأرض خلال النهار، والآن، كان يخرج، ناشراً حرارته، وينفخ غيومه.

ما من أحدٍ كان على التل. لأن الوقت كان عصراً دون شك، ولأن هذا الحي كان مهجوراً بعض الشيء. كانت الدارات متوارية في الشجر. لم تكن حزينة، لكنها نعسة، بأسيجتها الصدئة وبشبابيكها المثلومة التي تقفل بصعوبة.

كان موندو يستمع إلى صوت الطيور بين الشجر والقرقعة الخفيفة للأغصان في الريح. كان هناك على نحو خاص صوت جرادة، صفير ثاقب يتنقل دون توقف، وبدا أنه يتقدم في الوقت الذي يتقدم به موندو. كان يبتعد

قليلاً للحظات، ثم يعود قريباً جداً بحيث إن موندو كان يلتفت محاولاً رؤية الحشرة. غير أن الصوت يختفي ليظهر أمامه أو فوقه، في قمة الجدار. كان موندو يناديها بدوره، عبر صفيره بورقة العشب. غير أن الجرادة لا تظهر، مفضلة البقاء مختبئة.

ظهرت الغيوم تماماً عند أعلى التل بسبب الحرارة. كانت تتدفع بهدوء نحو الشمال، وحين كانت تعبر قرب الشمس، كان موندو يشعر بالظل على وجهه. كانت الألوان تتغير، تتحرك، يشتعل الضوء الأصفر وينطفئ.

منذ زمنٍ طويل، كان موندو يرغب بالصعود إلى أعلى التل، غالباً ما كان ينظر إليه من مخابئه على شاطئ البحر، بكلّ أشجاره وبنوره الجميل الذي يلمع على واجهة الدارات ويشع في السماء مثل هالة. من أجل ذلك أراد الصعود إلى التل، لأن درب الأدراج كان يبدو كما لو أنه يقود نحو السماء والنور. كان حقاً تلاً جميلاً تماماً فوق البحر، قريباً جداً من الغيوم، كان موندو قد نظر إليه طويلاً، في الصباح، حين كان لا يزال رمادياً وبعيداً، في المساء، وحتى في الليل، حين يومض بكل الأضواء الكهربائية. إنه الآن مسرور لتسلقه.

كانت السرفوتات تهرب بين أوراق الشجر اليابسة بمحاذاة الجدران. كان موندو يحاول مباغتتها، بالاقتراب منها دون صوت، غير أنها رغم ذلك كانت تسمعه، وتركض لتختبئ في الصدوع.

كان موندو ينادي السرفوتات، مصفراً بين أسنانه، أحب جداً امتلاك سرفوتٍ. كان يعتقد أنه كان يستطيع أن يدجنه وأن يضعه في جيب سرواله للتنزه. كان سيمسك ذباباً ليطعمه، وحين يجلس في الشمس على الشاطئ أو بين صخور الكاسر، سيخرجه من جيبه ويضعه على ذراعه. سيظل هناك دون أن يتحرك جاعلا حلقه يختلج، لأن السرفوتات تخر على هذا النحو.

وصل موندو أمام باب بيت النور الذهبي. دعاه موندو بهذا الاسم حين دخله للمرة الأولى، ومن حينها استمر هذا الاسم. كان بيتاً قديماً جميلاً، من الطراز الإيطالي، مغطى بجص أصفر برتقالي، ذا نوافذ عالية ألواحها مخلّعة، غزت مدخله شجرة خميسة. كانت تحيط بالبيت حديقة ليست بالكبيرة جداً، إلا أنها كانت مغزوة كلياً بالعوسج وبأعشابٍ ضارة بحيث لا تُرى حدودها. دفع موندو الباب الحديدي ومشى على الممر الحصوي المؤدي إلى البيت، دون صوت. كان البيت الأصفر بسيطاً، دون نقوش أو أقنعة محفورة، غير أن موندو كان يعتقد أنه لم يرَ أبداً بيتاً بجماله.

في الحديقة غير المنظمة، أمام البيت، ارتفعت نخلتان جميلتان أعلى السقف، عند هبوب الريح قليلاً كان يحفّ سعفها المزاريب والقرميد. كانت الدغلات حول شجرتي النخيل كثيفة وداكنة، ومحاطة بنباتات العوسج الكبيرة البنفسجية التي تزحف على الأرض مثل الأفاعي.

كان أجمل ما فيه النور الذي يلف البيت. بسببه أعطى موندو البيت في الحال هذا الاسم، بيت النور الذهبي. كان لنور الشمس في العصر لونٌ ناعمٌ هادئٌ، لونٌ حارٌ مثل أوراق الشجر في الخريف أو مثل الرمل، يغمركم ويشملكم. فيما كان يتقدم ببطء على الممر الحصوي، شعر موندو بالنور يداعب وجهه. رغب بالنوم، فيما قلبه كان يخفق ببطءٍ، بالكاد كان يتنفس.

كان غناء الجرادة يصدح من جديد بقوةٍ، كما لو أنه يخرج من أدغال الحديقة. توقف موندو لينصت إليها، ومن ثم مشى ببطء نحو البيت، مستعداً للهرب في حال جاءه كلب ما. إلا أنه لم يكن هناك أحد، كانت نباتات الحديقة ساكنة حوله، وأوراقها ثقيلة من الحرارة.

دخل موندو بين الأشواك، انسل على أربعة أطراف تحت أغصان الجنبات، مُبّعداً العوسج. واستقر في مخبأ تحت ظل الأدغال، ومن هنا كان يتأمل البيت الأصفر.

كان النور ينحرف، على نحو غير محسوس على واجهة البيت. لم يكن هناك صوت، ما عدا صوت الجرادة والهسهسة الحادة للناموس الذي كان يرقص حول شعر موندو. كان موندو، جالساً على الأرض تحت ورق الغار، ينظر بثبات إلى باب البيت والدرج نصف الدائري الواصل إلى درج المدخل. كان العشب ينمو على مفاصل الدرجات، بعد برهة، استلقى متكوراً على الأرض، برأس مسنود على مرفقه.

كان النوم على هذا النحو شيئاً جميلاً، أسفل شجرة ذات رائحة قوية، غير بعيدة جداً عن بيت النور الذهبي، محاطاً بالدفء والسلام، ومع الصوت الثاقب للجرادة التي تروح وتجيء دون توقف. حين كنتَ نائماً يا موندو، لم تكن هنا، غادرت إلى مكان آخر، بعيداً عن جسدك. تركت جسدك ينام على الأرض على بعد أمتار من الطريق الحصوي، وتنزهت في مكان آخر. ذلك ما كان غريباً. كان جسدك على الأرض، يتنفس بهدوء، فيما كانت الريح تدفع ظلال الغيوم على وجهك ذي العينين المغلقتين، كان الناموس المخطط يرقص حول وجنتيك، والنمل الأسود يستكشف ثيابك ويديك، وتهز الريح شعرك قليلاً في المساء. غير أنك لم تكن هنا. كنت في مكانٍ آخر، غادرت في النور الحار للبيت، في رائحة ورق شجر الغار، في النداوة الخارجة من التراب. كانت العناكب ترتجف على خيوطها، لأنها كانت ساعة استيقاظها. كانت السرفوتات المسنّة السوداء والصفراء تنسل خارج شقوقها، على جدار البيت، وتبقى لتنظر إليك معلّقة بأطرافها ذات الأصابع المتباعدة. كان الكلّ ينظر إليك، لأن عينيك مغلقتان. وفي مكانٍ ما في الطرف الآخر للحديقة، بين كتلة العوسج ودغل البهشية، قرب شجرة سرو قديمة جافة، كانت الحشرة تقوم بلا ملل بإصدار صوتها لتتحدث إليك، لتدعوك. غير أنك لم تكن تسمعها، لأنك غادرت إلى البعيد.

«من أنت؟» كان الصوت الحاد يسأل.

الآن، كانت هناك امرأة أمام موندو، لكنها قصيرة جداً بحيث إن موندو ظنّ لبرهة أنها طفلة. قُصّ شعرها الأسود على نحو دائري حول وجهها، ترتدي فوطة طويلة زرقاء رمادية.

كانت تبتسم.

«من أنت؟»

وقف موندو، كان بالكاد أقصر منها. تثاءب.

«هل كنت نائماً؟»

«اعذريني»، قال موندو. «دخلت حديقتك، وكنت متعباً قليلاً، لذا نمت قليلاً. سأغادر الآن.»

«لماذا تريد أن تغادر في الحال. ألم تحب الحديقة؟»

«نعم، إنها جميلة جداً» قال موندو. كان يبحث في وجه المرأة القصيرة عن علامة غضب، إلا أنها تابعت الابتسام. كان لعينيها المغوليتين تعبير مثير للفضول، مثل القطط. وحول عينيها وفمها تغضنات عميقة، لذا حَسبَ موندو أن المرأة عجوزٌ.

«تعال وشاهد البيت أيضاً» قالت.

صعدت الدرج نصف الدائري وفتحت الباب.

«تعال إذن!»

دخل موندو خلفها. كانت صالة كبيرة فارغة تقريباً، منارةً من جوانبها الأربعة بنوافذ عالية. كانت هناك طاولة خشبية وكراسٍ وسط الصالة، وعلى الطاولة صينية مبرنقة، تحمل إبريق شاي أسود وأقداحاً. ظلّ موندو ساكناً على العتبة، ينظر إلى الصالة والنوافذ. صُنعت النوافذ من مربعات زجاجية صغيرة خشنة، ولا زال النور الداخل أكثر حرارة وذهبيةً. لم يرَ موندو أبداً نوراً جميلاً بهذا القدر.

وقفت المرأة القصيرة أمام الطاولة تسكب الشاي في الأقداح.

«هل تحب الشاي؟»

«نعم»، قال موندو.

«إذن تعال لتجلس هنا.»

جلس موندو ببطء على طرف الكرسي يشرب. كان للشراب لون ذهبي أيضا، يحرق الشفاه والحلق.

«إنه حار» قال.

رشفت المرأة القصيرة رشفةً دون صوت. «لم تقل لي من أنت»، قالت. كان صوتها مثل موسيقا عذبة.

«أنا موندو» قال موندو.

كانت المرأة القصيرة تنظر إليه باسمة . كانت تبدو أكثر قصراً على كرسيها.

«أنا تي شين.»

«هل أنت صينية؟» سأل موندو. هزت المرأة القصيرة رأسها.

«أنا فيتنامية، لست صينية.»

«بلادك بعيدة؟»

«نعم، إنها بعيدة جداً جداً.»

كان موندو يشرب الشاي فيما اختفى تعبه.

«وأنت من أين جئت. لست من هنا، أليس كذلك؟»

لم يكن يعرف موندو ما ينبغي قوله.

«لا، لست من هنا»، قال. أبعد خصلات شعره بإنزال رأسه. لم تتوقف المرأة القصيرة عن الابتسام، إلا أن شيئاً من القلق ارتسم في عينيها الضيقتين فجأة.

«ابق بعض الوقت» قالت.«لا تريد الرحيل مباشرةً؟»

«كان ينبغي ألاّ أدخل حديقتك» قال موندو. «غير أن الباب كان مفتوحاً، وكنت متعباً قليلاً.»

«فعلت حسناً بدخولك»، قالت تي شين ببساطة. «أترى، تركتُ الباب مفتوحاً لأجلك.»

«إذن كنت تعلمين بقدومي» قال موندو، أشعرته هذه الفكرة بالاطمئنان.

أشارت تي شين برأسها بالإيجاب، ومدّت لموندو علبة حديدية بيضاء ملأى بالحلويات.

«أأنت جائع؟»

«نعم» قال موندو. كان موندو يقضم الحلوى ناظراً إلى النوافذ الكبيرة التي يدخل منها النور.

«يا له من جمال!» قال «من صنع كلّ هذا الذهب؟»

«إنه نور الشمس»، قالت تي شين.

«إذن أنت غنية؟»

ضحكت تي شين.

«هذا الذهب لا يملكه أحد.»

كانا ينظران إلى النور الجميل وكأنه حلم.

«إنه هكذا في بلادي»، قالت تي شين بصوتٍ منخفض. «حين تغيب الشمس، تصبح السماء هكذا، صفراء كليةً، مع غيوم صغيرة سوداء خفيفة جداً، مثل ريش الطير.»

ملأ النور الذهبي كلّ الصالة وشعر موندو بهدوء أكثر وبقوة أكبر، خاصة بعد شربه الشاي الحار.

«هل تحب بيتي؟» سألت تي شين.

«نعم يا سيدتي»، قال موندو، وعيناه تعكسان لون السماء..

«إذن إنه بيتك أيضاً، حين تريد».

وهكذا تعرّف موندو على تي شين وبيت النور الذهبي. ظلّ لوقتٍ طويل في الصالة الكبيرة ينظر إلى النوافذ. استمر النور إلى أن اختفت الشمس تماماً خلف التلال. حتى في هذه اللحظة كانت جدران الصالة مشبعةً جداً به كما لو أنه لا يريد أن ينطفئ. ثم جاء الظلّ فأصبح كل شيء رمادياً، الجدران والنوافذ وشعر موندو. كذلك جاء البرد. نهضت المرأة القصيرة لتشعل مصباحاً، ثم قادت موندو إلى الحديقة ليرى الليل. كانت النجوم تلمع فوق الشجر، وثمة هلالٌ صغير.

تلك الليلة نام موندو على وسائد، في عمق الصالة الكبيرة، كذلك فعل في الليالي الأخرى، لأنه كان يحب هذا البيت كثيراً. في بعض الأحيان، حين يكون الليل حاراً، كان ينام في الحديقة تحت شجرة الغار أو على درجات المدخل، أمام الباب. لم تكن تي شين تتكلم كثيراً، وربما من أجل ذلك أحبها. لم تعد تطرح أسئلة عليه منذ أن سألته في المرة الأولى عن اسمه ومن أين جاء. كانت فقط تمسكه من يده وتطلعه على أشياء ممتعة، في الحديقة أو في البيت. أرته الحصى ذات الأشكال والرسوم الغريبة، وأوراق الشجر ذات العروق الدقيقة، والبذور الحمراء للنخيل، والأزهار الصغيرة البيضاء والصفراء التي تنمو بين الأحجار. كانت تحمل له في يدها جعراناً سود، وأم أربعة وأربعين، وكان موندو يعطيها بالمقابل قواقع وريش نورس كان قد وجدها على شاطئ البحر.

كانت تي شين تقدم له الطعام، أرز وقصعة من خضار حمراء وخضراء نصف مطبوخة، والشاي الحار في أقداح بيضاء صغيرة دائماً. في بعض الأحيان، حين يكون الليل معتماً جداً. كانت تي شين تتناول كتاباً مصوراً وتروي له حكاية قديمة. حكاية طويلة حدثت في بلاد مجهولة حيث توجد مبان ذات سقوف مقرنة وتنانين وحيوانات تعرف الكلام مثل الناس. كانت حكاية جميلة جداً بحيث إن موندو لم يكن يستطيع أن يسمعها حتى النهاية. كان ينام، فيما تذهب المرأة القصيرة دون أن تحدث صوتاً، بعد أن تطفئ المصباح. كانت تنام في الطابق الأول في غرفة ضيقة. وفي الصباح حين كانت تستيقظ يكون موندو قد غادر.

كانت هناك نيران تملأ معظم التلال، بفعل اقتراب الصيف. في النهار، كانت تُرى أعمدة طويلة من الدخان الأبيض تلطخ السماء. وفي الليل، كانت تُرى ومضات حمراء مثل جذوة السيجارة تبعث على القلق. غالباً ما كان موندو يشاهد الحرائق، سواء حين يكون على الشاطئ، أم عند صعوده درب الأدراج إلى بيت تي شين. ذات عصرٍ، عاد في وقتٍ أبكر مما اعتاد عليه، كي يقتلع الأعشاب الضارة النامية حول البيت، حين سألته تي شين عما يقوم بفعله، قال:

«كي لا تصل النار إلى هنا.»

صار أقلّ خوفاً من شاحنة التشيباكان الرمادية ، بما أنه أصبح ينام كلّ الليالي تقريباً في بيت النور الذهبي، أو في الحديقة. لم يعد يذهب إلى مخابئ الصخور، قرب الكاسر. ما إن يشرق النهار حتى يذهب للسباحة في البحر. كان يحبّ كثيراً بحر الصباح الشفاف، وصوت الأمواج الغريب حين يكون رأسه تحت الماء، وصرخات النوارس في السماء. ثم كان يذهب إلى السوق لإفراغ بعض الصناديق والتقاط الفاكهة والخضار، التي يحملها، بعد ذلك، إلى تي شين من أجل وجبة المساء.

بعد الظهيرة، يذهب لمحادثة الغجري بعضاً من الوقت، الذي يجلس حالماً على سلّم سيارته. كانا لا يتحدثان عن أشياءٍ كثيرة، إلا أن الغجري يبدو مسروراً لرؤيته. ثم كان القوزاقي يجيء ومعه زجاجة كحول، ثملاً بعض الشيء كالعادة، صارخاً بصوته الجهوري:

«هييه! صديقي موندو!»

وأحياناً كانت تأتي امرأة سمينة ذات وجه أحمر وعينين فاتحتين جداً، تعرف قراءة الطالع في راحات أيدي العابرين، إلا أن موندو كان يغادر لأنه لم يكن يحبها.

كان يغادر باحثاً عن دادي العجوز. لم يكن العثور عليه سهلاً، لأن الرجل العجوز غالباً ما كان يغيّر مكانه. يجلس على صفحات الجريدة، وبجانبه حقيبته الصفراء المثقبة، فيما كان العابرون يظنون أنه يشحد. كان موندو عموماً يلتقيه في فناءات الكنائس، فيجلس بجانبه. كان موندو يحبه حين يتكلم، لمعرفته بكثير من قصص الحمام الزاجل واليمام. كان يتكلم عن بلادهم، بلادٌ فيها الكثير من الأشجار والأنهار الهادئة، والحقول الشديدة الاخضرار والسماء العذبة. حيث توجد تلك الأبراج المقرنة المغطاة بالقرميد الأحمر والأخضر، قرب المنازل، حيث يعيش اليمام والحمام. كان العجوز دادي يتحدث بصوته البطيء، مثل طيران الطيور في السماء، الذي يتردد ويحوم في دائرة حول القرى. لم يكن يتكلم لأحد آخر عن ذلك.

عند جلوس موندو مع العجوز دادي في فناءات الكنائس، كان الناس يُدهشون قليلاً، ويقفون لمشاهدة الصبي الصغير والرجل العجوز مع يمامتيه، ويلقون بقطع نقدية أكثر لتأثرهم؛ إلا أن تسول موندو لم يكن يطول، فقد كان يثنيه عن ذلك امرأة أو اثنتان لا تحبان رؤية مثل ذلك الأمر، فتبادران بالأسئلة. إضافةً إلى أنه ينبغي الحذر من التشيباكان. فإذا ما مرت الشاحنة الرمادية في تلك اللحظة، فمن المؤكد أن الرجال ذوي اللباس الموحد سيخرجون ويقودونه، بل ربما أنهم سيقودون العجوز دادي ويمامتيه.

ذات يوم، هبّت ريح قوية، فقال الغجري لموندو:

«لنذهب لرؤية مباراة الطائرات الورقية.»

كانت مباريات الطائرات الورقية تجري فقط أيام الآحاد ذات الريح القوية. وصلا إلى الشاطئ في ساعة مبكرة، كان الأطفال هناك مع طائراتهم

الورقية. طائرات من كلّ الأشكال والألوان، طائرات ورقية بشكل معين أو مربع، أحادية السطح أو ثنائية السطح، تحمل رسوم رؤوس حيوانات. غير أن أجمل طائرة ورقية كانت تعود لرجل خمسيني العمر، يقف تماماً في آخر الشاطئ. كانت مثل فراشة صفراء وسوداء كبيرة بأجنحة ضخمة، وما إن طيّرها، حتى توقف الجميع عن الحركة لمشاهدتها. طارت الفراشة الصفراء والسوداء الكبيرة للحظة على بعد أمتار من البحر، ثم اجتذب الرجل الخيط فاندفعت. اندفعت الريح بأجنحتها وبدأت صعودها. صعدت الطائرة الورقية في السماء بعيداً جداً فوق البحر. كانت الريح التي تهبّ تسبّب قرقعة ورق أجنحتها. على الشاطئ، كان الرجل بالكاد يتحرك، يحلّ بكرة الخيط، ونظره مثبت على الفراشة الصفراء والسوداء التي تتهادى فوق البحر. كان الرجل من وقت لآخر يجتذب الخيط، يلفه على البكرة، فتصعد الطائرة الورقية إلى علو أكثر في السماء. أصبحت أعلى من جميع الطائرات الأخرى، كانت تطير فوق الشاطئ بأجنحتها الممدودة. ظلت هناك تطير دون جهد، في الريح العنيفة، بعيداً جداً عن الأرض بحيث إن الخيط الذي يمسكها لم يعد يُرى.

حين اقترب موندو والغجري، أعطى الرجل البكرة والخيط لموندو.

«أمسكه جيداً!» قال.

جلس على الشاطئ، وأشعل سيجارة.

حاول موندو مقاومة الريح.

«إذا كانت تشّد كثيراً، أرخي قليلاً ثم شدّ بعد ذلك.»

تناوب موندو والغجري والرجل على إمساك الطائرة الورقية، إلى أن تعبت كلّ الطائرات الأخرى وسقطت في البحر. كانت رؤوس الجميع مقلوبة في الهواء تنظر إلى الفراشة الكبيرة الصفراء والسوداء التي تتابع الطيران. كانت حقاً بطلة الطائرات الورقية، لم تكن هناك أخرى غيرها تستطيع أن تصعد أكثر وأن تطير وقتاً أطول.

حينها، أنزل الرجل الفراشة الكبيرة ببطءٍ شديد، متراً وراء متر. كانت الطائرة الورقية تهتز في الريح، فيما يُسمع صوت فرقعة الهواء على شراعها، والصفير الحاد للخيط. كانت اللحظة الأكثر خطراً، لأنه كان من الممكن أن ينقطع الخيط نتيجة الشّد، فيما كان الرجل يتقدم قليلاً لافّاً البكرة. حين أصبحت الطائرة الورقية قريبة جداً من الساحل، انتقل الرجل جانباً ساحباً الخيط دفعة واحدة، ومن ثم محرراً إياه، فهبطت الطائرة الورقية على الحصى ببطء شديد مثل طائرة.

ولشدة تعبهم، ظلّوا جالسين على الشاطئ، اشترى الغجري سندويش هوت دوغ فأكلوا وهم ينظرون إلى البحر. حكى الرجل لموندو عن مباريات شواطئ تركيا، حين كانت تُربط شفرات الحلاقة بذيول الطائرات الورقية. حين كانت تصبح عالية جداً في السماء، كانت تُطلق بعضها ضد بعض، من أجل محاولة إسقاطها. كانت شفرات الحلاقة تقطع الأشرعة. ذات مرة ومنذ زمن طويل، نجح في قطع خيط طائرة ورقية اختفت في البعيد، حيث حملتها الريح مثل ورقة شجر يابسة. وفي أيام الريح الشديدة، كان الأطفال يطيّرون طائراتهم الورقية بالمئات، فتُغطى السماء الزرقاء ببقع متعددة الألوان.

«لا بّد أن ذلك كان جميلاً.» قال موندو.

«نعم، كان جميلاً. إلا أن الناس لم تعد تعرف الآن»، قال الرجل. نهض ولفّ الفراشة الصفراء والسوداء الكبيرة في ورق بلاستيكي.

«في المرة القادمة سأعلمك كيفية صنع طائرة ورقية حقيقية.» قال الرجل. «شهر أيلول هو الوقت المناسب وبإمكانك أن تطيّر طائرتك الورقية مثل طير، تقريباً دون أن تلمسها.»

فكر موندو أنه سيجعل طائرته بيضاء تماماً مثل نورس.

كان ثمة شخص آخر كان موندو يتوق لرؤيته، من وقت لآخر. إنه قاربٌ يدعى أوكسيتون. في المرة الأولى التقى به بعد الظهيرة، حوالي الساعة الثانية، حين كانت الشمس تسقط على الماء في الميناء. كان القارب مربوطاً إلى الرصيف، وسط القوارب الأخرى، يتمايل على الماء. لم يكن بالمطلق قارباً كبيراً، مثل القوارب التي لها جؤجؤ يشبه أنوف القرش والتي تحمل أشرعة كبيرة بيضاء. لا، كان أوكسيتون مجرد قارب بوسط ضخم، وبصار قصير في المقدمة، غير أن موندو وجده لطيفاً. سأل شخصاً يعمل في الميناء عن اسمه، فأعجبه الاسم أيضاً.

لذا كان غالباً ما يجيء لرؤيته، حين يكون قريباً. كان يقف على طرف الرصيف، ويعيد اسمه، بصوت عال، مرنّماً:

«أوكسيتون! أوكسيتون!»

كان القارب يشد حبله، ثم يعود ليصطدم بالرصيف، ثم يعاود من جديد. هيكله أزرق وأحمر بشريطٍ أبيض. موندو يجلس على الرصيف بجانب حلقة الرسو، وينظر إلى أوكسيتون فيما يأكل حبة برتقال. كان ينظر أيضاً إلى انعكاسات الشمس على الماء، والأمواج الرخوة التي تحرك هيكل القارب. كان الملل يبدو على أوكسيتون، لأنه لم يكن أحد يخرجه مطلقاً من مكانه. لذا كان موندو يقفز إلى القارب، ويجلس على المقعد الخشبي في الكوثل، وينتظر فيما يشعر بحركات الأمواج. كان القارب يتحرك بهدوء، يدور قليلاً، يبتعد، يصرّ حبله. ودّ موندو أن يغادر به، في البحر دون اتجاه محدد. عند عبوره أمام الكاسر، سيدعو جيوردان الصياد إلى الصعود، ويغادرا معاً إلى البحر الأحمر.

كان موندو يجلس طويلاً في مؤخرة القارب ينظر إلى انعكاسات الشمس وأسراب السمك الصغير جداً الذي يتقدم متموجاً. أحياناً، كان يدندن أغنية للقارب، أغنية ابتكرها له.

«أوكسيتون، أوكسيتون، أوكسيتون،

سنغادررر

سننذهب إلى صيد..

سننذهب إلى صيد..

السردين والقريدس والطون!»

بعد ذلك، كان موندو يمشي قليلاً على الأرصفة قرب سفن الشحن؛ فهناك كان له أيضاً صديقة رافعة.

ثمة الكثير من الأشياء تستحق المشاهدة، في كلّ مكان، في الشوارع، وعلى الشاطئ، وفي الأراضي البور. لم يكن موندو يحب الأماكن التي يوجد فيها الكثير من الناس. كان يفضل الأماكن المفتوحة، حيث يمكن مشاهدة البعيد، الساحات، الأرصفة التي تمتد إلى وسط البحر، الشوارع العريضة المستقيمة حيث تسير شاحنات الصهاريج. في تلك الأماكن، كان يستطيع أن يجد أناساً يتكلم إليهم، من أجل أن يقول لهم ببساطة:

«هل تودون أن تتبنوني؟»

كانوا أناساً حالمين قليلاً، يمشون وأيديهم خلف ظهورهم وهم يفكرون بشيءٍ آخر. بينهم فلكيون وأساتذة تاريخ وموسيقيون ورجال جمارك. أحياناً، كان يحضر رسّام يوم الأحد الذي يرسم القوارب أو الشجر أو غروب الشمس، فيما يجلس على مقعد قابل للطي. ظل موندو برهة بجانبه، ينظر إلى اللوحة. التفت الرسام قائلاً:

«أيعجبك ذلك؟»

أجاب موندو بنعم بإشارة من رأسه. أشار إلى رجل وكلب يمشيان على الرصيف في البعيد.

«وهما، أسترسمهما أيضاً؟»

«إن أردت»، قال الرسام. كان يضع على اللوحة بريشته الدقيقة ظلاً أسود صغيراً أشبه بحشرة. فكر موندو قليلاً، وقال:

«أتعرف رسم السماء؟»

توقف الرسام عن الرسم ونظر إليه باندهاش.

«السماء؟»

«نعم، السماء، مع الغيوم والشمس. سيكون ذلك جميلاً.»

لم يكن الرسام قد فكر مطلقاً بذلك. نظر إلى السماء فوقه وضحك.

«أنت على حق، لوحتي القادمة لن تكون سوى السماء.»

«مع الغيوم والشمس؟»

«نعم، مع كلّ الغيوم والشمس التي تسطع.»

«سيكون ذلك جميلاً»، أكد موندو. «أود رؤيتها في الحال.»

نظر الرسام في الهواء.

«سأبدأ صباح الغد. أتمنى أن يكون الجو جميلاً.»

نعم، سيكون الجو جميلاً غداً، وستكون السماء أكثر جمالاً من اليوم» قال موندو ذلك لأنه كان يعرف التنبؤ بالطقس.

كان هناك أيضاً مقشش الكراسي. كان موندو يذهب غالباً لرؤية مقشش الكراسي بعد الظهر. كان يعمل في فناء بناء قديم مع حفيده الذي يدعى بيبو والذي يجلس بجانبه متدثراً بسترة كبيرة. كان موندو يحب رؤية مقشش الكراسي أثناء عمله، لأنه كان رجلاً عجوزاً، يعرف تحريك أصابعه بسرعة لحبك وعقد قش الموص. كان حفيده يبقى ساكناً بجانبه بالسترة التي تغطيه مثل معطف، كان موندو يتسلى معه قليلاً. يحمل له أشياء وجدها في سيره،

حصيات غريبة من الشاطئ، حزم إشنيات، قواقع متناسقة، أو حفنات من كسرات جميلة خضراء وزرقاء من الخزف والأواني الزجاجية صقلها البحر. كان بيبو يأخذ الحصيات وينظر إليها مطولاً، ومن ثم يضعها في جيوب سترته. لم يكن يعرف الكلام، غير أن موندو كان يحبه لأنه كان يبقى جالساً بالقرب من جده دون أن يتحرك، متدثراً بالسترة الرمادية التي تصل إلى قدميه والتي تغطي يديه مثل ملابس الصينيين. كان موندو يحب هؤلاء الذين يعرفون الجلوس في الشمس دون أن يتحركوا ودون أن يتكلموا والذين لهم عيون حالمة بعض الشيء.

كان موندو يعرف الكثير من الناس، هنا، في هذه المدينة، غير أنه لم يكن لديه الكثير من الأصدقاء. هؤلاء الذين كان يحب لقاءهم، هم هؤلاء الذين لهم نظرة جميلة لامعة ويبتسمون عندما يرونكم كما لو كانوا سعداء بلقائكم. لذا كان موندو يتوقف، يكلمهم برهةً، يطرح عليهم بعض الأسئلة عن البحر أو عن السماء أو عن الطيور، وحين يذهب الناس يكونون قد تغيّروا كلياً. لم يكن موندو يطلب منهم أشياء صعبة جداً، لكنها أشياء قد نسيها الناس، توقفوا عن التفكير بها منذ سنوات، مثل لماذا الزجاجات ذات لون أخضر، أو لماذا توجد النيازك. كما لو أن الناس انتظروا طويلاً كلمةً ما، فقط بضع كلمات، مثل هذه، في زاوية الشارع، وكان موندو يعرف قول هذه الكلمات.

وكذلك الأسئلة أيضاً. لم يكن غالبية الناس يعرفون طرح الأسئلة المناسبة، بينما موندو كان يجيد ذلك، بالضبط عند اللزوم، وحين لا تكونُ منتظرةً. كان الناس يتوقفون للحظات، يتوقفون عن التفكير في أنفسهم وفي شؤونهم، يفكرون، وتصير عيونهم قلقة، لأنهم كانوا يتذكرون أنهم طرحوا تلك الأسئلة قديماً.

كان هناك شخص يحب موندو لقاءه كثيراً. رجلٌ شاب، طويل بما يكفي وقوي، ذو وجه شديد الاحمرار وعينين زرقاوتين. كان يرتدي بزة رسمية

زرقاء غامقة ويحمل خرجاً جلدياً كبيراً مليئاً بالرسائل. غالبا ما كان موندو يلتقيه في الصباح، في درب الأدراج الصاعد عبر التل. في المرة الأولى سأله موندو:

«هل هناك رسالة لي؟»

ضحك الرجل الضخم. غير أن موندو كان يلقاه كلّ يوم، وفي كل يوم كان يذهب إليه ويطرح عليه ذات السؤال:

«واليوم؟ هل هناك رسالة لي؟»

فيفتح الرجل خرجه ويبحث.

«لنرى، لنرى... ما اسمك؟»

«موندو»

«موندو... موندو... لا، لا رسائل اليوم.»

أحياناً، كان يخرج من خرجه صحيفة صغيرة مطبوعة، أو ورقة إعلان ويناولها لموندو.

«خذ اليوم، هناك شيء وصل إليك.»

كان يغمزه بعينيه ويتابع طريقه.

ذات يوم، كان لموندو رغبة كبيرة في كتابة الرسائل، وقرر البحث عن شخص ما يعلمه القراءة والكتابة. مشى في شوارع المدينة ناحية الحدائق العامة، إلا أن الجو كان حاراً جداً، ولم يكن متقاعدو البريد هناك. بحث في أماكن أخرى، ووصل أمام البحر. كانت الشمس حارقة بشدة، وثمة غبار ملحي لامع يغطي حصى الشاطئ. نظر موندو إلى الأطفال الذين يلعبون عند حافة الماء. كانوا يرتدون «مايوهات» بألوان غريبة، بحمرة البندورة وخضرة التفاح، وربما لأجل ذلك كانوا يصرخون بصوت عال جداً في أثناء لعبهم. غير أن موندو لم تكن لديه الرغبة في الاقتراب منهم.

بالقرب من المبنى الخشبي للشاطئ الخاص، رأى موندو هذا الرجل العجوز الذي يعمل في تمهيد الشاطئ بمساعدة ممشاط طويل. كان حقاً رجلاً عجوزاً جداً، يرتدي بنطالاً قصيراً أزرق باهتاً ومبقعاً، جسده بلون الخبز المحروق، ذا بشرة منهكة مجعدة مثل فيل عجوز. كان الرجل يجّر ببطء الممشاط الطويل على الحصى من أسفل إلى أعلى الشاطئ، دون أن يهتم بالأطفال وبالمستحمين. كانت الشمس تلمع على ظهره وساقيه، وعرقه يسيل على وجهه. من وقت لآخر، كان يتوقف ويخرج منديلاً من جيب بنطاله القصير ويمسح وجهه ويديه.

جلس موندو مستنداً إلى الجدار، أمام الرجل العجوز. انتظر وقتاً طويلاً إلى أن انتهى الرجل من تمهيد حصته من الشاطئ. حين جاء الرجل العجوز ليجلس قرب الجدار، نظر إلى موندو. كانت عيناه فاتحتين جداً بلون رمادي شاحب يجعلهما مثل ثقبين في بشرة وجهه الأسمر. كان يشبه هندياً بعض الشيء.

نظر إلى موندو كما لو أنه قد فهم تساؤله. قال فقط:

«مرحبا!»

«أريد أن تعلمني القراءة والكتابة إذا سمحت»، قال موندو.

ظلّ الرجل العجوز ساكناً، دون أن يبدو مندهشاً.

«ألا تذهب إلى المدرسة؟»

«لا يا سيدي» قال موندو.

كان الرجل العجوز يجلس على الشاطئ مستنداً إلى الحائط، ووجهه ملتفت نحو الشمس. ينظر أمامه، وتعابيره هادئة ووديعة، على الرغم من أنفه المحدب والتجاعيد التي تقطع وجنتيه. حين كان ينظر إلى موندو، بدا كما لو أنه يرى عبره، لأن قزحيتيه فاتحتان جدا. ثم لمع شعاع من السرور في نظرته، وقال:

«أود تعليمك القراءة والكتابة، إن أردت ذلك.» كان صوته مثل عينيه هادئاً جداً يجيء من البعيد، كما لو أنه خائف من إصدار صخب كبير حين يتكلم.

«هل حقاً لا تعرف شيئاً؟»

«لا يا سيدي.» قال موندو.

تناول الرجل من كيس الشاطئ خاصته مدية قديمة بمقبضٍ أحمر، وشرع بحفر إشارات الحروف على حصى أملس. في ذات الوقت، كان يحدّث موندو عن كلّ ما في الحروف، وكل ما يمكن رؤيته فيها حين يُنظر ويُنصت إليها. تحدث عن A الذي يشبه ذبابة كبيرة بأجنحة مثنية إلى الخلف، عن B المضحك ببطنيه، عن C وD الشبيهان بالقمر عندما يصير هلالاً ونصف بدر، وO قمر كامل في السماء السوداء. H مثل سلم للصعود إلى الشجر وإلى أسقف المنازل، E وF الشبيهان بممشاط ورفش، G رجل ضخم يجلس في كنبة، I يرقص على حرف قدميه مع رأس صغير ينفصل في كل قفزة، فيما الـ J يتهادى، غير أن الـ K مكسور مثل عجوز، R يمشي بخطىً كبيرة مثل جندي، Y منتصب فيما ذراعاه في الهواء يصرخ: النجدة! L شجرة على ضفة النهر، M جبل، N للأسماء والناس الذين يتصافحون، P ينام على قدم واحدة وQ يجلس على ذيله، S إنه دائماً مثل حية، Z دائماً مثل وميض، T حرف جميل، مثل صاري السفينة، U مثل مزهرية، V وW طيور، طيران طيور، X صليب للذاكرة.

كان الرجل العجوز يخط بحّد مديته الإشارات على الحصى الأملس ويضعها أمام موندو.

«ما اسمك؟»

«موندو.»، قال موندو.

اختار الرجل العجوز بعض الحصيات، مضيفاً حصية أخرى.

«انظر. إنه اسمك مكتوب هنا.»

«ذلك رائع!» قال موندو. «هناك جبل وقمر وشخص ما يصافح الهلال وقمر آخر، لماذا توجد كلّ هذه الأقمار؟»

«لأنها في اسمك، هذا كل ما في الأمر» قال الرجل العجوز.«هكذا تُدعى.»

استعاد الحصيات.

«وأنت يا سيدي، ماذا يوجد في اسمك؟»

عرض الرجل العجوز الحصيات واحدة وراء أخرى، وكان موندو يتناولها ويصفها أمامه.

«هناك جبل.»

«نعم حيث ولدت.»

«هناك ذبابة.»

«ربما كنت ذبابة قبل زمن طويل قبل أن أصير إنساناً.»

«هناك رجل يمشي، جندي.»

«كنت جندياً»

«هناك هلال.»

«إنه الذي كان عند ولادتي.»

«ممشاط!»

«هاهو هنا!»

أشار الرجل العجوز إلى الممشاط الذي وضع على الشاطئ.

«هناك شجرة أمام النهر.»

«نعم، ربما هكذا سأعود حين أموت، شجرة ثابتة أمام نهر جميل.»

«شيء رائع معرفة القراءة»، قال موندو «أريد معرفة جميع الأحرف.»

«ستكتب أيضاً»، قال الرجل العجوز. وأعطاه مديته وظل موندو لوقت طويل ينقش رسوم الأحرف على حصى الشاطئ. ومن ثم يضعها جانباً لرؤية أية أسماء تشكّلها. كان هناك الكثير من حرفي O وI إذ كان يفضلهما. كان يحب أيضاً أحرف T وZ والطيور V W . قرأ العجوز:

OVO OWO OTTO IZTI

مما دفع ذلك الاثنين إلى الضحك.

كان الرجل العجوز يعرف أيضاً الكثير عن أشياء أخرى فيها شيءٌ من الغرابة، كان يرويها بصوته العذب، فيما ينظر إلى البحر. تحدث عن بلاد غريبة، بعيدة جداً في الطرف الآخر من البحر، بلاد كبيرة سكانها جميلون وودودون، لا حروب فيها، ولا أحد يخاف فيها من الموت. في تلك البلاد هناك نهر عريض مثل البحر، يسبح الناس فيه كلّ مساء، عند غروب الشمس. أثناء كلامه عن هذه البلاد، كان صوت الرجل العجوز أكثر عذوبة وبطأً، فيما ظلت عيناه الشاحبتان تنظران إلى البعيد، كما لو أنه قد صار هناك، على ضفة ذلك النهر.

سأل موندو: «هل أستطيع الذهاب معك؟»

وضع الرجل العجوز يده على كتف موندو.

«نعم، سآخذك.»

«متى ستذهب؟»

«لا أعرف. حين يكون معي ما يكفي من المال. ربما بعد عام، إلا أني سآخذك معي.»

بعد ذلك، أخذ الرجل العجوز ممشاطه وتابع عمله، في مكان أبعد على الشاطئ. وضع موندو في جيبه الحصيات التي تحمل اسمه، أشار بيده إلى صديقه وغادر.

الآن، صار هناك الكثير من الإشارات، في كل مكان، مكتوبة على الجدران أو الأبواب أو على اللوحات المعدنية. كان موندو يراها أثناء سيره في شوارع المدينة، متعرفاً على بعضها لدى عبوره. على إسمنت الرصيف، حفرت حروف، على هذا النحو:

D

E

NADINE

E

لكن لم يكن فهم ذلك سهلاً.

حين حلّ الليل، عاد موندو إلى بيت النور الذهبي. وتناول الرز والخضار في الصالة الكبيرة مع تي شين، ومن ثم خرج إلى الحديقة منتظراً أن تتبعه المرأة القصيرة، سارا معاً ببطء على الممر الحصوي إلى أن أصبحا محاطين تماماً بالشجر والأدغال. كانت تي شين تمسك يد موندو وتشدها بقوة لدرجة الألم. غير أن ذلك كان جميلاً، السير على هذا النحو في الليل دون ضوء، من خلال التحسس بطرف القدم لتجنب السقوط، يقودهما فقط صوت الحصى الذي يصر تحت النعال. كان موندو يستمع إلى الغناء الصار لجرادة مختبئة، ويشم روائح الجنبات التي كانت توسّع بين أوراقها في الليل. كان ذلك يصيب الرأس بالدوار، ولأجل ذلك، كانت المرأة القصيرة تشد يده بقوة، كي لا تصاب بالدوار.

قال موندو: «في الليل كل شيء له رائحة طيبة»

«لأنه لا يمكن الرؤية»، قالت تي شين. «نشم ونسمع بشكل أفضل حين لا نرى.»

وقفت في الدرب.

«انظر سنرى النجوم الآن.»

كانت الصرخة الحادة للجرادة تدوي بالقرب منهما، كما لو أنها تخرج من السماء. كانت النجوم تظهر واحدة وراء الأخرى، ترتجف بوهن في نداوة الليل. كان موندو ينظر إليها برأس مقلوب إلى أعلى، ماسكاً نفسه.

«إنها جميلة، هل تقول شيئاً يا تي شين؟»

«نعم، تقول الكثير من الأشياء غير أننا لا نفهم ماذا تقول.»

«حتى ولو كنا نعرف القراءة لا يمكننا فهمها؟»

«لا، لا نستطيع يا موندو. إن الإنسان لا يمكن أن يفهم ما تقوله النجوم.»

«ربما تروي ما سيحدث فيما بعد، بعد وقت طويل جداً.»

«نعم، أو ربما تروي حكايات فيما بينها.»

كانت تي شين أيضاً تنظر إليهن دون أن تتحرك، تشد بقوة يدَ موندو.

«ربما تتحدث عن الطريق الذي ينبغي اتباعه وعن البلاد التي ينبغي الذهاب إليها.»

كان موندو يفكر.

«إنها تلمع بشدة الآن. ربما تكون أرواحاً.»

كانت تي شين تريد رؤية وجه موندو، إلا أن كلّ شيء كان أسود؛ لذا، فجأة، بدأت ترتجف كما لو أنها كانت خائفة. ضمت يد موندو على صدرها، وأسندت وجنتها على كتفه. كان صوتها غريباً وحزيناً، كما لو أن هناك شيئاً يؤلمها.

«موندو، موندو...»

كانت تعيد اسمه بصوتها المخنوق وبجسدها المرتجف.

«ما بك؟» سأل موندو. كان يحاول تهدئتها بالحديث إليها. «إني هنا، لن أغادر، لا أريد الرحيل.»

لم يكن يرى وجه تي شي، إلا أنه عرف أنها كانت تبكي، ولذلك كان جسدها يرتجف. ابتعدت تي شين قليلاً كيلا يشعر موندو بانسياب دموعها.

«اعذرني، إني حمقاء»، قالت، إلا أن صوتها لم يكن يستطيع الكلام.

«لا تحزني» قال موندو. أخذها إلى الطرف الآخر من الحديقة. «تعالي سنذهب لرؤية أضواء المدينة في السماء.»

ذهبا إلى المكان الذي يستطيعان فيه رؤية الوميض الزهري الكبير الذي يأخذ شكل فطر، فوق الشجر. حتى إنه كانت هناك طائرة تعبر بوميضها. فجعلهما ذلك يضحكان.

بعد ذلك جلسا على الممر الحصوي دون أن يتركا يد بعضهما بعضاً. نسيت المرأة القصيرة حزنها، وعادت إلى الكلام من جديد بصوت منخفض، دون أن تفكر بما كانت تقوله. كان موندو يحكي أيضاً، فيما الجرادة تصدر صوتها الصّار، من مخبئها وسط أوراق الشجر. ظل موندو وتي شين جالسين على هذا النحو لوقتٍ طويل جداً، إلى أن ثقلت أجفانهما، فناما على الأرض، فيما الحديقة تتحرك ببطء، ببطء، مثل جسر قارب.

في المرةِ الأخيرة، عند أول الصيف، خرج موندو عند شروق الشمس دونَ صوت. نزل درب الأدراج عبر التل دون عجلة. كانت الأشجار والأعشاب مغطاةً بالندى، فيما كان البحر يعلوه شيءٌ مثل الضباب. كانت قطرة ماء معلقة على الأوراق العريضة لنبتة الدودة الأرجوانية، بمحاذاة الجدران القديمة، تلمع مثل ماسة. قرّب موندو فمه وقلب الورقة ليشرب قطرة الماء الندية. كانت قطراتٌ صغيرة جداً، إلا أنها انتشرت في فمه وجسده مهدئةً عطشه. أصبحت الجدران ذات الأحجار الجافة على جانبي الطريق دافئةً، فيما خرجت السرفوتات من شقوقها لتشاهدَ ضوء النهار.

نزل موندو التل حتى البحر، ذاهباً ليجلس في مكانه على الشاطئ الخالي. لم يكن هناك في تلك الساعة أحد سوى النوارس، التي كانت تحوم فوق الماء بمحاذاة الشاطئ، أو تسير متهاديةً على الحصى، تفتح مناقيرها قليلاً لتهدل. كانت تطير وتدور في دائرة، وتحطّ على بعدٍ قليل. كان للنوارس دائماً صوتٌ غريبٌ في الصباح، كما لو أنها تتنادى قبل الرحيل.

عندما كانت الشمس عالية قليلاً في السماء الزهرية، كانت المصابيح تُطفأ، فيما تُسمع المدينة التي بدأت تهدر، صوتٌ بعيدٌ، يخرج من الشوارع بين الأبنية العالية، صوتٌ أصم يرتج عبر حصى الشاطئ. كانت الدراجات النارية تسرع في الشوارع العريضة بصوتها الرتيب، تحمل رجالاً ونساءً يرتدون سترات رياضية برؤوس مغطاة «بكاغولات» من الصوف.

ظلّ موندو ساكناً على الشاطئ، منتظراً أن تدفئ الشمس الهواء، منصتاً إلى صوت الأمواج على الحصى. كان يحب تلك الساعة، فلا أحد قرب البحر،

لا أحد سواه وسوى النوارس؛ لذا كان يستطيع أن يفكر بكلّ سكان المدينة، بكلّ الذين يذهب إلى لقائهم. كان يفكر بهم فيما ينظر إلى البحر والسماء، وكما لو أن الناس كانوا في الوقت ذاته بعيدين وقريبين جالسين حوله. كما لو أنه كان يكفي النظر إليهم ليكونوا أمامه، ومن ثم إشاحة نظره فلا يعودون هنا.

على الشاطئ الخالي، كان موندو يتكلم مع الناس. يحدثهم بطريقته، دون كلمات، ولكن بإرسال ذبذبات، تذهب نحوهم، إلى حيث كانوا، تختلط بصوت الأمواج والنور، يستقبلها الناس دون أن يعرفوا من أين تأتيهم. كان موندو يفكر بالغجري، بالقوزاقي، بمقشش الكراسي، بروزا، بالخبازة إيدا، ببطل الطائرات الورقية، أو بالرجل العجوز الذي علمه القراءة، كانوا يسمعونه. كانوا يسمعونه مثل صفير في آذانهم، أو مثل صوت طائرة، ويهزون رؤوسهم قليلاً لأنهم لم يكونوا يفهمون ما الذي حصل. غير أن موندو كان سعيداً من القدرة على محادثتهم على هذا النحو وبإرسال ذبذبات البحر والشمس والسماء.

بعد ذلك، سار موندو بمحاذاة الشاطئ إلى المبنى الخشبي في الشاطئ الخاص. بحث أسفل جدار الاستناد عن الحصى التي حفر عليها الرجل العجوز رسوم الأحرف. منذ عدة أيام، لم يأتِ موندو إلى هنا، وكان الملح والنور قد حفّ الرسوم. أعاد موندو بحجر صوان حاد خطّ الإشارات، ورتّب الحصى على حافة الجدار كي يكتب اسمه على هذا النحو:

M

O O

N D

حتى يرى الرجل العجوز اسمه عند قدومه ويعرف بأنه قد جاء إلى هنا.

لم يكن ذلك اليوم مثل بقية الأيام، لأن أحدهم كان قد فُقد في المدينة. بحث موندو عن الشحاذ العجوز صاحب اليمامتين، فيما قلبه يخفق بقوةٍ أشد، إذ عرف بأنه لن يجده. بحث عنه في كلّ مكان، في الشوارع والحارات، في ساحة السوق، أمام الكنائس. كان لموندو رغبة شديدة في رؤيته، لكن خلال الليل، كانت الشاحنة الرمادية قد عبرت، وقاد الرجال ذوو الزي الرسمي العجوز دادي معهم.

تابع موندو بحثه عن دادي في كلّ مكان، دون أن يرتاح. كان قلبه يخفق بقوةٍ أكثر فأكثر، فيما كان يجري من مخبأ إلى مخبأ. بحث في كلّ الأماكن التي اعتاد العجوز الشحاذ أن يذهب إليها، في زوايا أبواب كراجات الأبنية، في الأدراج، قرب النوافير، في الحدائق العامة، عند مداخل الأبنية القديمة. كان يرى أحياناً على الأرصفة قطعة من ورق صحيفة، فكان يتوقف وينظر حوله، كما لو أن العجوز دادي سيعود ويجلس على الأرض.

في النهاية، كان القوزاقي هو من أخبر موندو. التقاه موندو في الشارع قرب السوق. كان يتقدم بصعوبة، مستنداً على الجدار، لأنه كان ثملاً تماماً. كان الناس يتوقفون وينظرون إليه ضاحكين. حتى إنه قد أضاع أكورديونه الأسود الصغير، بعد أن سرقه أحدهم حين كان نائماً من شدّة سكره. حين سأله موندو عن مكان العجوز دادي ويمامتيه، نظر إليه برهة دون أن يفهم، بعينين خاويتين. ثم تمتم فقط:

«لا أدري... أخذوه هذه الليلة..»

«إلى أين أخذوه؟»

«لا أدري.. إلى المشفى.»

كان القوزاقي يقوم بجهدٍ كبير كي يغادر.

«انتظر! واليمامتين؟ هل أخذوهما أيضاً؟»

«اليمامتان؟»

لم يفهم القوزاقي.

«الطيور البيضاء!»

«آه نعم، لا أدري....» هز القوزاقي كتفيه.«لا أعرف ما فعلوا بهما، باليمامتين... ربما سيأكلونهما....»

وتابع سيره مترنحاً بمحاذاة الجدار.

فجأة شعر موندو بتعبٍ شديد. كان يريد العودة للجلوس عند البحر، على الشاطئ، كي ينام. لكنه كان بعيداً جداً، ولم يعد لديه القوة للوصول إليه. ربما لأنه لم يأكل منذ وقتٍ طويل، أو ربما بسبب الخوف. كأن كل الأصوات كانت تطن في رأسه وأن الأرض تتحرك تحت قدميه.

بحث موندو عن مكانٍ في الشارع، على الرصيف، وجلس مسنداً ظهره على الحائط، منتظراً. على مسافة قريبة، كان هناك متجر مفروشات، ذو واجهة زجاجية كبرى عاكسة للضوء. ظل موندو جالساً دون أن يتحرك، حتى إنه لم يكن يرى سيقان الناس الذين يمشون أمامه، والذين يتوقفون أحياناً. لم يكن يسمع أصوات المتكلمين. كان يشعر بخدرٍ يدبّ في أوصاله، يصعد مثل بردٍ، ويجعل شفتيه فاقدةً للحس ويمنع عينيه من الحركة.

لم يعد قلبه يخفق بقوة، صار بعيداً وضعيفاً جداً، يتحرك ببطءٍ في صدره، كما لو أنه على حافة التوقف.

كان موندو يفكر في كلّ مخابئه الجيدة، كلّ تلك التي يعرفها، عند البحر، في الصخور البيضاء، بين كواسر الأمواج، أو في حديقة بيت النور الذهبي. كان يفكر أيضاً بالقارب اوكستون الذي يتحرك ليفكّ نفسه من الرصيف، لأنه يريد الذهاب إلى البحر الأحمر. لكن في الوقت ذاته، كان كما

لو أنه لم يعُد قادراً على مغادرة هذا المكان، على الرصيف، مستنداً إلى هذا الجزء من الحائط، كما لو أن ساقيه لم تعد تقويان على المشي أكثر.

حين تكلم الناس معه، لم يرفع موندو رأسه. ظلّ ساكناً على الرصيف، جبهته متكئة على ساعديه. صارت سيقان الناس متوقفة أمامه، مشكلّة سوراً نصف دائري، كما يحدث حين كان يقدم الغجري عرضه. فكر موندو بأنه من الأفضل أن تذهب هذه السيقان وتتابع طريقها. كان ينظر إلى كلّ هذه الأقدام المتوقفة، أحذية الرجال الجلدية السوداء الكبيرة، صنادل النساء ذات الكعوب العالية. كان يسمع الأصوات التي تتحدث فوقه، لكنه لم يكن يدرك ماذا كانت تقول.

«...اتصلوا...» كانت تقول الأصوات. الاتصال بمن؟ ظن موندو أنه قد أصبح كلباً، كلباً عجوزاً ذا وبر أصهب ينام مستلقياً ومتكوراً في ركن من الرصيف. لا أحد يستطيع رؤيته، لا أحد يمكنه أن ينتبه إلى كلبٍ عجوز أصفر. تابع البرد صعوده عبر جسده، ببطءٍ، في أعضائه، في بطنه، وحتى رأسه.

وصلت شاحنة التشيباكان الرمادية. كان موندو قد سمع وصولها، في نعاسه، سمع صرير مكابحها وفَتحَ أبوابها. لكن ذلك لم يعنِ له شيئاً. تراجعت أقدام الناس قليلاً، فرأى موندو البناطيل ذات اللون الأزرق البحري والأحذية السوداء ذات النعول السميكة تقترب نحوه.

«هل أنت مريض؟»

كان موندو يسمع أصوات الرجال ذوي الزي الرسمي. كانت تطن كما لو أنها قادمة من آلاف الكيلومترات.

«ما اسمك؟ أين تسكن؟»

«ستذهب معنا، أتريد؟»

كان موندو يفكر بالتلال التي تشتعل، في كلّ مكان، حول المدينة. كما لو أنه كان جالساً على حافةِ الطريق، مشاهداً حقول الجمر وألسنة اللهب

الأحمر الكبيرة، ويشّم رائحة الراتينج والدخان الأبيض الصاعد في السماء، بل إنه كان يرى سيارات الأطفاء الحمراء متوقفة بين الأغصان والخراطيم الطويلة التي تُبسط.

«هل بإمكانك أن تمشي؟»

رفعت أيدي الرجال موندو من تحت ذراعيه، كثقلٍ خفيف، وحملوه إلى الشاحنة ذات الأبواب الخلفية المفتوحة. شعر موندو باصطدام ساقيه بالأرض، وبالسلم، كانتا كما لو أنهما ساقان غريبتان، مصنوعتان من خشبٍ وبراغٍ. ثُم أُغلق الباب صفقاً، وبدأت الشاحنة بالسير عبر المدينة. كانت المرة الأخيرة.

بعد يومين، دخلت المرأة الفيتنامية القصيرة مكتب مفتش الشرطة. كانت شاحبة وعيناها متعبتان، لأنها لم تنم. كانت قد انتظرت موندو ليلتين، وفي النهار بحثت عنه في كلّ مكان في المدينة. نظر إليها المفتش دون فضول.

«هل أنت قريبة له؟»

«لا، لا» قالت تي شين. كانت تبحث عن كلماتها. «أنا صديقة، صديقة.»

كانت تبدو أكثر قصراً، وكأنها طفلة على الرغم من تجاعيد وجهها.

«هل تعرف أين هو؟»

نظر المفتش إليها دون أن يسرع في الرد.

وفي النهاية قال: «إنه في الرعاية العامة»

رددت المرأة القصيرة، كما لو أنها لم تفهم:

«في الرعاية العامة...»

ثم صرخت:

«ذلك غير ممكن!»

«ما هو غير الممكن؟» سأل المفتش.

«لكن لماذا؟ ماذا فعل؟»

قال لنا أنه دون عائلة، لذا قدناه إلى هناك.

«هذا مستحيل!» رددت تي شين. «ألا تدركون... »

نظر إليها المفتش بقسوة.

«أنت التي لا تدركين يا سيدتي... طفلٌ دون عائلة، دونَ عنوان، يتسكع في الشوارع مع المتشردين والشحاذين، وربما أسوأ من ذلك! ويعيش مثل بربري، يأكل أي شيء، ينام في أي مكان. بالمناسبة هناك من بلّغ عنه، هناك أناس قدموا شكوى، ومنذ زمن نبحث عنه، غير أنه كان ذكياً، كان يختبئ! ولا بد أن ينتهي ذلك في لحظةٍ ما.»

كانت المرأة القصيرة تنظر بثباتٍ أمامها، فيما جسدها يرتجف. هدأ المفتش قليلاً.

«هل أنت التي تهتمين به يا سيدتي؟»

أشارت تي شين برأسها بنعم.

«اسمعي إذا أردت أن تتحملي مسؤولية هذا الطفل، وإذا أردت أن تأخذي حضانته، فإن ذلك بالتأكيد ممكن.»

«ينبغي أن يخرج من....»

«لكن في هذه اللحظة، ينبغي أن يبقى في الرعاية إلى أن تتحسن حالته. إذا أردت أن تتحملي مسؤوليته ينبغي أن تقدمي طلباً، وتقومي بإعداد ملف، وهذا لا يمكن أن يتم بين ليلةٍ وضحاها.

كانت تي شين تبحث عن كلماتها في رأسها دون القدرة على الكلام.

«في الوقت الحالي، ينبغي ترك الأمر للإدارة. إنه في... ما اسمه؟»

«موندو» قالت تي شين. «إني..»

«هذا الطفل تحت المراقبة. ينبغي أن يُعالج. سيتم الاهتمام بأمره في الرعاية، وسيُعد له ملف. أتعلمين أنه في عمره هذا لا يعرف القراءة والكتابة، وأنه لم يذهب أبداً إلى مدرسة؟»

حاولت تي شين الكلام، غير أن صوتها كان مخنوقاً.

«هل أستطيع رؤيته؟» سألت في النهاية.

«طبعاً» نهض المفتش. «بعد عدة أيام، حين يتحسن سلوكه، ستذهبين لرؤيته، وتطلبين الإذن من المدير.»

«لكن اليوم!» قالت تي شين. صرخت من جديد. كان صوتها مبحوحاً. « اليوم، اليوم ينبغي أن أراه!»

«لا، إن ذلك مستحيل تماماً. ليس بإمكانك رؤيته قبل أربعة أو خمسة أيام.»

«أرجوك! إن ذلك مهم جداً من أجله!»

اصطحب المفتش تي شين نحو الباب.

«ليس قبل أربعة أو خمسة أيام»

لحظة فتح الباب، استدرك:

«أعطني اسمك وعنوانك، كي يمكن الاتصال بك.»

سجّل ذلك في دفتر قديم.

«حسناً، اتصلي بي بعد يومين للبدء بالإجراءات.» إلا أنه في اليوم التالي، جاء المفتش إلى بيت تي شين. فتح باب الحديقة ومشى على الممر الحصوي إلى أن وصل الباب.

حين فتحت تي شين، دخل عنوةً، ونظر إلى داخل الصالة الكبرى.

وبدأ قائلاً: «موندو خاصتك»

«ما الذي حصل له؟» سألت تي شين. كانت لا تزال أكثر شحوباً من اليوم السابق، فيما ارتفعت عيناها نحو وجه الشرطي بخشية.

«لقد رحل.»

«رحل؟»

«نعم، رحل، اختفى، تبخر!»

تفحص الشرطي داخل البيت من فوق رأس تي شين.

«ألم تريه؟ ألم يأت إلى هنا؟»

«لا!» صرخت تي شين.

«لقد أشعل النار في فراشه، في العيادة، وانتهز حالة الذعر ليهرب. اعتقدت أنك ربما قد رأيته؟»

«لا! لا!» صرخت ثانيةً تي شين. صارت عيناها تلمعان من الغضب. تراجع المفتش أمامها.

«استمعي، جئت مباشرة لأحذرك. ينبغي أن نجد هذا الصبي قبل أن يقوم بحماقات أخرى.»

نزل المفتش على درجات المدخل نصف الدائري.

«إن عاد عندك، أعلميني!»

غادر مباشرةً عبر الممر الحصوي، نحو الباب.

«قلت لك بالأمس، إنه بربري!»

لم تتحرك تي شين على العتبة، امتلأت عيناها بالدموع وانقبض حلقها إلى درجة أنها لم تعد قادرة على التنفس.

«لم تفهم شيئاً، أي شيء!» قالت بصوت منخفض، لنفسها، فيما كان المفتش يدفع الباب وينزل بخطواتٍ واسعة طريق الأدراج نحو سيارته السوداء.

جلست تي شين على الدرجات البيضاء، وظلت ساكنة وقتاً طويلاً، دون أن تنظر إلى النور الذهبي الذي كان يملأ الصالة الكبرى الفارغة، ودون أن تسمع الصوت الصار للجرادة المختبئة. بكت قليلاً، دون أن تدرك، وسال دمعها قطرةً قطرة إلى طرف أنفها وسقط على وزرتها الزرقاء. كانت تعرف أن الطفل ذا الشعر الدخاني لن يعود، لا غداً ولا في أي يوم آخر. كان الصيفُ سيبدأ، مع ذلك بدا الجو كما لو أنه بارد. الكلّ، هنا، في مدينتنا، شعرنا بذلك. تابع الناس ذهابهم وإيابهم، والبيع والشراء، وتابعت السيارات السير في الشوارع والطرق العريضة، مصدرةً ضجيجاً كبيراً بمحركاتها وزماميرها. من وقتٍ لآخر، في السماء الزرقاء، كانت تمر طائرة ما مخلّفة خلفها أثراً أبيض طويلاً. تابع الشحاذون الشحاذة، في زوايا الجدران، عند باب البلدية والكنائس. لكن ذلك لم يعد كما كان. كان كما لو أن هناك غيمةً غير مرئية تغطي الأرض وتمنع النور بكامله من الوصول.

لم تعد الأشياء كما كانت. بعد فترة من الزمن، أوقفت الشرطة الغجري، حين شوهد ذات يوم يمد يده إلى جيوب العابرين. كان القوزاقي الذي لم يكن قوزاقياً، حيث إنه قد ولد في أوفيرن، سكيراً. كسر جيوردان الصياد صناراته على كاسر الأمواج، ولم يذهب أبداً إلى إريتريا، ولا إلى أي مكانٍ آخر. خرج العجوز دادي في النهاية من المشفى، غير أنه لم يجد أبداً يمامتيه، وبدلاً منهما اشترى قطاً. لم ينجح رسام الأحد برسم السماء، وعاد من جديد إلى رسم البحر والطبيعة الميتة، وسُرقت الدراجة ثلاثية العجلات الجميلة من صبي الحديقة العامة الصغير. أما فيما يتعلق بالرجل العجوز ذي الوجه الهندي فقد تابع تمشيط قطعته من الشاطئ، دون أن يغادر إلى ضفاف الغانج. ظل القارب أوكسيتون وحيداً مربوطاً من حبله بالحلقة الصدئة على الرصيف، يترنح فوق مياه الميناء، وسط طبقات من زيت الديزل، دون أن يقف أحد على كوثله ويغني له أغنية.

مرت السنوات والشهور والأيام، دون موندو، كان وقتاً طويلاً جداً وقصيراً أكثر من اللازم في آن معا، كان الكثير من الناس، في مدينتا، ينتظرون شخصاً دون أن يتجرؤوا على قول ذلك. غالباً ما بحثنا عنه دون إدراكٍ بين الجموع وفي زوايا الشوارع وأمام باب ما. نظرنا إلى حصى الشاطئ البيضاء، والبحر الذي يشبه جداراً. بعد ذلك نسينا قليلاً.

ذات يوم، بعد وقتٍ طويل، كانت المرأة الفيتنامية القصيرة تمشي في حديقتها في أعلى القمة. تجلس تحت أجمة الغار، حيث الكثير من الناموس المخطط الذي يرقص في الهواء، التقطت حصوةٌ غريبة صقلها ماء البحر. على جانب الحصوة، رأت رموزاً محفورة، نصف ممحية بسبب الغبار. بحذر وبقلبٍ يخفق بسرعة أكثر قليلاً، مسحت الغبار بطرف وزرتها ورأت كلمتين مكتوبتين بأحرفٍ كبيرة وبمهارة سيئة:

TOUJOURS BEAUCOUP

دائماً كثيراً

ليلابي

-١-

كان الوقتُ لا يزال باكراً جداً، في اليوم الذي قررت فيه ليلابي[(١)] عدم الذهاب إلى المدرسة، أواسط تشرين الأول. نهضت من فراشها، واجتازت بقدميها الحافيتين غرفتها، وأزاحت قليلاً شفرات الستارة لترى الخارجَ. كانت الشمس قويةً، وبانحناءةٍ صغيرة، استطاعت رؤية جزءٍ من السماء الزرقاء. في الأسفل، على الرصيف، كانت ثلاث أو أربع حمامات تقفز، تشعثَ ريشها من الريح. ومن فوقِ أسقف السيارات المتوقفة، بدا البحر أزرق داكناً، فيما كان شراعٌ أبيض يتقدمُ بمشقةٍ. نظرت ليلابي إلى كل ذلك، فشعرت بالراحة لقرارها بعدم الذهاب إلى المدرسة.

عادت إلى وسطِ الغرفة، وجلست أمام طاولتها، ودون إضاءةِ المصباح بدأت بكتابة رسالة:

صباح الخير بابا العزيز،

الجو لطيف اليوم، والسماءُ كما أحبها زرقاء جدا جدا.... تمنيت أن تكون هنا لرؤية السماء. البحر أيضا أزرق جداً جداً. قريباً سيجيء الشتاء. هاهي سنة أخرى طويلة جداً تبدأ. أتمنى لو أنك تستطيع المجيء قريباً لأنني لا أعلم فيما

---

(١) ليلابي Lullaby: كلمة تعني تهليلة أو تهويدة وهي أغنية خفيفة غالباً ما تردد على مسامع الأطفال بهدف دفعهم للنوم، وعادة ما تكون سهلة و متكررة شائعة على الالسنة (المترجم).

إذا كانت السماء والبحر سيستطيعان انتظارك طويلاً. هذا الصباح عندما استيقظت (حدث هذا منذ أكثر من ساعة) ظننتُ من جديد أني في استنبول. أود إغلاق عينّي ليكون الوضع كما في استنبول عند فتحهما. أتذكرْ؟ كنتَ قد اشتريتَ باقتين من الزهور، واحدةً لي والأخرى للأخت لورانس. أزهارٌ كبيرة بيضاء، رائحتها قوية (ألهذا تُسمى الأريج؟) كانت رائحتها قوية حتى إننا قد اضطررنا لوضعها في الحمام. قلتَ إننا نستطيع شرب الماء فيها، فذهبتُ إلى الحمام وشربتُ طويلاً، وأزهاري كلّها ذبلت. أتذكرَ؟

توقفت ليلابي عن الكتابة. عضّت لبرهة طرف قلمها «البيك» الأزرق، ناظرةً إلى ورقة الرسائل. إلا أنها لم تكن تقرأ. كانت تنظر فقط إلى بياض الورق، معتقدةً أن شيئاً ما ربما سيظهر، مثل الطيور في السماء، أو مثل قاربٍ صغير أبيض يعبرُ ببطء.

نظرت إلى المنبه على الطاولة: إنها الثامنة وعشر دقائق. كان منبه سفر صغير، مغطى بجلد عظاءة سوداء، لا حاجة لضبطه إلا كلّ ثمانية أيام.

كتبت ليلابي على ورقة الرسائل.

بابا العزيز، أريدك أن تحضر كي تستعيد المنبه. أنت أعطيتني إياه قبل أن أغادر طهران، وقد قالت ماما والأخت لورانس بأنه جميلٌ جداً. أنا أيضا أجده كذلك، لكنّي، الآن، أظن أني لم أعدْ بحاجةٍ إليه. لأجل ذلك أريدك أن تأتي وتأخذه. سيفيدك من جديد. إنه يعمل جيدا، ولا يصدر أي صوتٍ في الليل.

وضعت الرسالة في مغلف بريد جوي، وقبل أن تغلقه، بحثت عن شيء ما لتضعه في داخله. إلا أنه لم يكن هناك شيء على الطاولة إلا أوراقاً وكتباً وفتات البسكويت. حينها، كتبت العنوان على الغلاف:

السيد بول فرلاند

P.R.O.C.O.M

٨٤، شارع فردوسي

طهران

إيران

وضعت المغلف على طرف الطاولة، وذهبت مسرعة إلى الحمّام كي تغسل أسنانها ووجهها. كانت ترغبُ بالاغتسال بالماء البارد، إلا أنها خافت أن يوقظ الضجيج أمها. عادت إلى غرفتها، بقدميها اللتين لا تزالان حافيتين. ارتدت على عجلٍ كنزة صوفية خضراء وبنطالاً مخملياً بنياً وسترةً كستنائية. ومن ثم ارتدت جوربيها وحذاءها العالي ذا النعل المطاطي. مشّطت شعرها الأشقر حتى دون أن تنظر إلى المرآة، وأتخمت حقيبتها بكلّ ما وجدته حولها، على الطاولة والكرسي: أحمر الشفاه، مناديل ورقية، قلم رصاصي، مفاتيح، أنبوبة أسبرين. لم تكن تدري تماماً ما الذي يمكن أن تكون بحاجة إليه، وبعثرت ما كانت تراه في غرفتها: منديلٌ أحمر ملفوف بشكلٍ مكور، إطار قديم من فرو، مدّية، كلب صغير من البورسلين. فتحت علبة كرتونية للأحذية في الخزانة وأخذت مجموعة من الرسائل. في علبةٍ كرتونية أُخرى، وجدت رسماً كبيراً ثنته ووضعته في حقيبتها مع الرسائل. وجدت في جيب معطفها المطري بعض النقود الورقية وحفنة من القطع النقدية أسقطتها في حقيبتها أيضاً. لحظةِ الخروج، عادت إلى الطاولة وأخذت الرسالة التي كانت قد كتبتها. وفتحت الدرج اليساري وبحثت بين الأشياء والأوراق إلى أن وجدت هارمونيكا صغيرة كتب عليها:

ECHO Super

Vamper

MADE IN GERMANY

وحفر عليها بحد السكين:

David

نظرت إلى الهارمونيكا لثانية، ثم أسقطتها في الحقيبة، ووضعت حمالة الحقيبة على كتفها الأيمن وخرجت.

في الخارج، كانت الشمس حارةً، والسماء والبحر لامعين. بحثت ليلابي بعينيها عن الحمام، لكنه كان قد اختفى. في البعيد، قريباً جداً من الأفق، كان الشراع الأبيض يتحرك ببطءٍ، مائلاً على البحر.

شعرت ليلابي بقلبها يخفق بشدة. كان مضطرباً يضجّ في صدرها. لماذا كان على هذا الحال؟ ربما جعله كلّ ضوء السماء منتشياً. وقفت ليلابي مستندة على الدرابزين، ضامةً ذراعيها بقوةٍ إلى صدرها، وتمتمت من بين أسنانها، بشيء من الغضب:

«إنه يجعلني متضايقة!»

ثم بدأت طريقها، محاولةً ألا تنتبه إليه.

كان الناس يتجهون إلى أعمالهم. يقودون سياراتهم، عبّر الشارع، مسرعين باتجاه مركز المدينة. فيما كانت تتسابق الدراجات النارية الخفيفة بصوت تدحرج الكرات. كانت العجلة باديةً على راكبي السيارات الجديدة ذات النوافذ المغلقة. عند عبورهم، كانوا يلتفتون قليلا لينظروا إلى ليلابي. حتى إن بعض الرجال كانوا يضغطون زمامير سياراتهم ضغطات قصيرة، إلا أن ليلابي لم تكن تنظر إليهم.

هي أيضاً، كانت تمشي مسرعة عبر الشارع، دون أن تصدر صوتاً بنعليها المطاطيين. كانت ذاهبةً في الاتجاه المعاكس، نحو التلال والصخور. تنظر إلى البحر، مُقطبةً عينيها لأنها نسيت إحضار نظارتها السوداء. كان المركب الشراعي الأبيض يبدو أنه يتبعُ اتجاهها، بشراعه الكبير متساوي الساقين والذي نفخته الريح. أثناء سيرها، كانت ليلابي تنظر إلى البحر والسماء الزرقاوين، والشراع الأبيض، وصخور الرأس البحري، مسرورةً جداً لقرارها عدم الذهاب ثانية إلى المدرسة. كان كلّ شيءٍ فائق الجمال، كأن المدرسة لم تكن موجودة مطلقاً.

كانت الريح تعبث بشعرها وتشبكه، ريحٌ باردة تلسع عينيها وتصيبُ بشرة وجنتيها ويديها بالاحمرار. كانت تفكر بروعة السير على هذا النحو، تحت الشمس وفي الريح، دون أن تعرف إلى أين تمضي.

عند خروجها من المدينة، وصلت أمام درب المهربين. كان الدرب يبتدئُ وسطَ أجمة صنوبر، وينزل بمحاذاة الشاطئ، حتى الصخور. كان البحر هنا أكثرُ جمالاً، كثيفاً، مشبعاً بالنور.

تقدمت ليلابي في درب المهربين، ورأت أن البحر قد أصبح أكثر قوة. كانت الأمواج القصيرة تصطدم بالصخور التي ترسل بدورها موجاتٍ مضادة، تتقعر، ثم تعود. توقفت الفتاة بين الصخور كي تصغي إلى البحر. كانت تعرف جيدا صوته، الماء الذي يهدر ويتفتت، ثم يتحد مرة أخرى مفجراً الهواء، كانت تحب ذلك كثيرا. لكن اليوم، يبدو الأمرُ كما لو أنها تسمعه للمرة الأولى. لم يكن هناك شيءٌ غير الصخور البيضاء والبحر والريح والشمس. كما لو أنها في قاربٍ، بعيداً في عرض البحر، هناك حيث تعيش أسماك التون والدلافين.

حتى إن ليلابي لم تعد تفكر بالمدرسة. هكذا هو البحر، يمحو أشياء الأرض، لأنه أهم ما في العالم. كان الأزرق والنور شاسعين، الريح، هدير الموج العنيف والهادئ، والبحرُ الشبيه بحيوان كبير يهزّ رأسه ويسوط الهواء بذيله.

كانت ليلابي في حالة جيدة. ظلّت جالسة على صخرةٍ ملساء في طرف درب المهربين تشاهد. كانت ترى الأفق الصافي والخط الأسود الذي يفصل البحر عن السماء. لم تعد تفكر بالشوارع والبيوت والسيارات والدراجات النارية.

ظلت وقتاً طويلاً على صخرتها، ثم تابعت مشيها على الدرب. لم يعد هناك بيوت، فالبيوت الأخيرة خلفها. استدارت ليلابي كي تراها، فوجدتها غريبة الشكل، بنوافذها المغلقة على واجهاتها البيضاء، كما لو أنها كانت نائمة. لم تعد هنا حدائق. بين الحجارة، كانت هناك نباتات كثيفة غريبة، كرات شوكية واخزة، صبّارٌ أصفر مغطى بندبات شوكية، مَقر، عليق، عرائش. لا أحد يعيش هنا. ماعدا العظاءات الراكضة بين كتل الصخور، واثنان أو ثلاثة من الزنابير التي كانت تطير فوق الأعشاب الفائحة برائحة العسل.

كانت الشمس تشتعل بقوة في السماء، والصخور البيضاء لامعة، والزبد فاتناً كالثلج. كانت سعيدةً، هنا، كما لو أنها في طرف العالم. لم تعد تنتظر شيئاً، لم تعد تحتاج أحداً. نظرت ليلابي إلى الرأس البحري الذي كان يكبر أمامها، والجرف الصخري المكسور العمودي على البحر. كان درب المهربين يصل إلى حصنٍ ألماني، مما يقتضي النزول إلى أخدودٍ ضيق، تحت الأرض. داخل النفق، أصاب الهواء البارد الفتاة بقشعريرة. كان الجو رطباً وداكناً كما داخل مغارة. كان لجدران الحصن رائحة العفونة والبول. ينفتح الطرف الآخر من النفق على مصطبة إسمنتية محاطةً بجدارٍ منخفض. وقد نبت قليلٌ من العشب في شقوق الأرض.

أغلقت ليلابي عينيها، مبهورةً بالضوء. كانت تواجه تماماً البحر والريح.

فجأة، على جدار المصطبة، وجدت الإشارات الأولى. كتابةٌ بالطباشير، بأحرفٍ كبيرة غير منتظمة تقول فقط:

«اعثروا علي»

نظرت ليلابي حولها برهة، ثم قالت بصوتٍ منخفض:

«نعم، لكن من أنت؟»

عبر خطاف بحر كبير فوق المصطبة زاعقاً.

هزت ليلابي كتفيها، ومضت في طريقها. أصبح الأمر أكثر صعوبة، لأن درب المهربين كان قد دُمّر، ربما خلال الحرب الأخيرة، من قبل الذين بنوا الحصن. كان لابد من الصعود والقفز من صخرة إلى أخرى، بمساعدة اليدين كيلا تنزلق. كان الشاطئ ينحدر أكثرُ فأكثر، وفي الأسفل تماماً، كانت ليلابي ترى الماء العميق، بلونه الزمردي، يلاطم الصخور.

لحسنِ الحظ، كانت تحسنُ السير جيداً على الصخور، بل كانت على دراية بذلك أفضل من أي شيء آخر. يجب أن تحسب بسرعة، بنظراتها، وأن ترى المعابر الصالحة والصخور التي تشكل درجاً أو مكاناً للقفز، وأن تخمن الدروب التي تقود إلى الأعلى: ينبغي تجنب الطرق المسدودة والصخور الهشة والصدوع وأدغال الشوك.

ربما كان ذلك تمرين رياضيات. «لنأخذ صخرة بزاوية ٤٥°، ولنأخذ صخرة أخرى على بعد ٢.٥م من باقة وزال[1]، من أين سيمر المماس؟» كانت الصخور البيضاء شبيهةً بالمكاتب الخشبية، تخيّلت ليلابي الوجه القاسي للآنسة لورتي فوق صخرةٍ كبيرة بشكل شبه منحرف، وظهرها ملتفتٌ نحو البحر. لكن ربما لم يكن ذلك، حقاً، تمرين درس رياضيات. هنا، كان ينبغي قبل كل شيء حساب مراكز الخطورة. كان السيد فيليبي يقول «ارسموا خطاً عمودياً على الأفق من أجل الاستدلال بوضوحٍ على الاتجاه». كان واقفاً متوازناً على صخرةٍ مائلة، مبتسماً بتسامح. بدا شعره الأبيض كتاجٍ تحت ضوء الشمس، وخلف نظارته حسيرة البصر، كانت عيناه الزرقاوان تلمعان بغرابة.

---

(١) جنبة صفراء الزهر من فصيلة القرنيات الفراشية (المترجم).

كانت ليلابي مسرورةً لاكتشافها بأن جسدها يجد أيضاً حلّ المسائل بسهولة. كانت تنحني إلى الأمام، وإلى الخلف، تتوازن على ساقٍ واحدة، ومن ثم تقفز بمرونة، كانت قدماها تهبطان، تماما، في النقطة المطلوبة.

«جيد جداً، يا آنسة، جيد جداً» كان صوت السيد فيليبي يقول في أذنها «الفيزياء علم الطبيعة، لا تنسي هذا أبداً. تابعي على هذا النحو، أنت على الطريق الصحيح.»

«نعم، لكن إلى أين؟» كانت ليلابي تتمتم.

لم تكن فعلياً تعرف جيداً إلى أين يقودها ذلك. ولكي تلتقط أنفاسها، وقفت مرةً أخرى ونظرت إلى البحر، لكن هنا أيضاً توجد مسألة، بما أن المطلوب حسابُ زاوية انعكاس ضوء الشمس على سطح الماء.

«لن أعرف أبداً»، كانت تعتقد.

«لنرى، طبّقي قوانين ديكارت» كان صوت السيد فيليبي يقول في أذنها.

بذلت ليلابي جهداً كي تتذكر.

«الشعاع المنعكس....»

«....يبقى دوماً على مستوى السقوط»، قالت ليلابي.

فيليبي:

«جيد. القانون الثاني؟»

«عندما تزداد زاوية السقوط، فإن زاوية الانعكاس تزداد والنسبة بين جيبّي هاتين الزاويتين ثابتة.»

«ثابتة..»، يصيح الصوت «إذاً ؟»

«جيب i / جيب r = ثابت»

«معامل الماء/الهواء ؟»

«١.٣٣»

«قانون فوكو؟»

«معامل وسط بالنسبة لآخر يساوي نسبة سرعة الضوء في الوسط الأول على سرعة الضوء في الوسط الآخر.»

«من هنا؟»

«N2/1=v1/v2»

لكن أشعة الشمس كانت تتدفقُ من البحر دون توقف، وكان العبور من حالة انكسار الأشعة إلى حالة انعكاس الأشعة الكامل يتم سريعاً، بحيث إن ليلابي لم تكن تستطع القيام بحساباتها. خطرَ لها أن تكتب فيما بعد إلى السيد فيليبي، كي تسأله.

كان الجو حاراً. بحثت الفتاة عن مكان تستطيع السباحة فيه. فوجدت، على بعدِ مسافةٍ قصيرة، خليجاً صغيراً جداً، يحتوي على أنقاض رصيف. نزلت ليلابي إلى حافة الماء وخلعت ملابسها.

كان الماء صافياً، بارداً. غطست ليلابي دون تردد، شعرت بالماء وهو يضغط على مسامات بشرتها. سبحت مدةً طويلة تحت الماء، بعينين مفتوحتين. ثم جلست على اسمنت الرصيف كي تجفف جسدها. الآن، كانت الشمس في محورها الشاقولي، والضوء لم يعد ينعكس. كان يلمعُ بقوةٍ على القطرات المعلقةِ بجلد بطنها وعلى الزغب الناعم لفخذيها.

جعلها الماء البارد تشعرُ بالراحة. غسلَ أفكارَ رأسها، ولم تعد الفتاة تفكر بمسائل المماسات ولا بالمعاملات المطلقةِ للأجسام. كانت ترغب مرةً أخرى بكتابة رسالة لوالدها. أحضرت ورق الرسائل من حقيبتها، وبدأت تكتب بقلمٍ جاف، تماماً في أسفل الصفحة. كانت يداها المبلولتان تتركان آثاراً على الورقة.

«ليبي

أعانقك

تعال بسرعة لتراني هنا حيث أكون..»

ثم كتبت وسط الصفحة:

«ربما أقوم ببعض الحماقات، لا ينبغي مؤاخذتي. فقد كان لدي حقاً انطباعٌ بأني مسجونة. إنك لا تستطيع أن تدرك ذلك. وفي النهاية، نعم، ربما تعلم كلّ ذلك، إلا أنك تملك الشجاعة للبقاء، أما أنا فلا. تخيّل كلّ هذه الجدران في كلّ مكان، جدرانٌ كثيرة لا تستطيع عدّها، بأسلاكٍ معدنية شائكة، وبأسيجة، وبقضبان نوافذ! تخيل الباحة بكلّ هذه الأشجار التي أكرهها، أشجار الكستناء، الزيزفون، الدلب. خصوصاً، الدلب البغيض، تفقدُ قشرتها، كأنها مريضة!»

قليلا إلى الأعلى، كتبت:

«أتدري.. هناك الكثيرُ من الأشياء التي أريدها. هناك الكثير، الكثير، الكثير من الأشياء أريدها، لا أدري إن كنتُ أستطيع أن أذكرها لك. أشياءٌ تُفتقد كثيراً هنا، أشياءٌ كنت أحب رؤيتها قديماً. العشبُ الأخضر، الزهور والطيور، الأنهار. لو كنتَ هنا، لاستطعت أن تكلمني عنها، ولكنت شاهدتها تظهر حولي، لكن في المدرسة الثانوية، لا أحدٌ يستطيع التكلم عن هذه الأشياء. الفتيات غبيات إلى حد البكاء! والفتيان حمقى.. لا يحبون إلا دراجاتهم النارية وستراتهم!»

صعدت تماماً إلى أعلى الصفحة.

«بابا العزيز، نهارٌ سعيد. أكتب لك من شاطئٍ صغير جداً، إنه حقاً صغير، لدرجة أني أعتقد أنه شاطئ بمكان واحد مع رصيفٍ مدمر، أجلس عليه الآن (بعد أن قمت بسباحة ممتعة). يريد البحر أن يأكل الشاطئ الصغير، يرسل لسانه إلى العمق، ولا توجد طريقة للبقاء جافة! سترى الكثير من بقع ماء البحر على رسالتي، أتمنى أن يعجبك ذلك. أنا وحيدة هنا، لكنني أستمتع جيداً.

الآن، لن أعاود الذهاب إلى المدرسة أبداً، هذا قرارٌ نهائي. لن أذهب أبداً، حتى ولو وُضعت في سجنٍ، وهذا لن يكون أسوأ.»

لم يبقَ كثير من الفراغات على الورقة. لذلك، أخذت ليلابي تتسلى بسد الفراغات الواحدَ تلو الآخر عشوائياً بكتابة كلمات ومقاطع عبارات:

«البحر أزرق»

«شمس»

«أرسل لي السحلبيات البيض»

«الكوخ الخشبي،للأسف إنه ليس هنا»

«اكتب لي»

«هناك قارب يعبر، يا ترى إلى أين هو ذاهب؟»

«أريد أن أكون على جبلٍ كبير»

« قل لي، كيف النور عندك»

«كلمني عن صيادي المرجان»

«كيف حال سلوقي»

أغلقت الفراغات البيضاء الأخيرة بكلمات:

«طحالب»

«مرآة»

«بعيد»

«حباحب»

«رالي»

«رقاص»

«كزبرة»

«نجمة»

بعد ذلك ثنت الورقة ووضعتها في المغلف، مع ورقة عشبٍ برائحة العسل.

عند صعودها عبر الصخور، رأت للمرة الثانية إشاراتٍ غريبة مكتوبة بالطبشور على الصخور. كان هناك أيضاً أسهم تشير إلى الدرب الذي ينبغي اتباعه. قرأت على صخرة مسطحة كبيرة:

«لا تجعل عزيمتك تخمد!»

وعلى مسافةٍ قصيرة:

«ربما سينتهي هذا في ذيل سمكة»

نظرت ليلابي، من جديدٍ، حولها بعيداً، لكنها لم ترَ أحداً بين الصخور، كذلك في المدى الذي يمكن أن ترى فيه. تابعت طريقها، تسلقت، عاودت النزول، قفزت فوق الشقوق، إلى أن وصلت في النهاية إلى طرف الرأس البحري، حيث هضبة حجرية، والبيت اليوناني.

وقفت ليلابي مذهولةً. لم ترَ أبداً بيتاً بهذا الجمال. كان مشيداً وسط الصخور والنباتات الكثيفة، مقابل البحر، مربعٌ وبسيط، بشرفة مسنودة بستة أعمدة، شبيه بمعبدٍ صغير. كان بياضه فاتناً، صامتاً، جاثماً مقابلَ الجرف شديد الانحدار، والذي يحميه من الريح والنظرات.

اقتربت ليلابي ببطءٍ من البيت، بقلبٍ يخفق بشدة. لم يكن هناك أحد، لابد أنه كان مهجوراً منذ سنين، لأن الأعشاب والعرائش كانت قد غزت الشرفة، والتفت الأرجوانيات حول الأعمدة.

حين أصبحت قريبة جداً من البيت، رأت كلمة محفورة فوق البوابة، في «جبصين» أعمدة الواجهة:

ΧΑΡΙΣΜΑ[1]

قرأت ليلابي الاسم بصوتٍ عالٍ، فيما كان يخطر لها أنه ما من بيت له اسم بهذا الجمال.

كان البيت محاطاً بسياجٍ شبكي صدئ. مشت ليلابي بمحاذاة السياج كي تجد مدخلاً، إلى أن وصلت إلى مكانٍ، كان السياج فيه مرفوعاً، ومن هناك عبرت على أطرافها الأربعة. لم تكن خائفة، كان كل شيءٍ صامتاً. مشت ليلابي في الحديقة حتى درج الشرفة، ووقفت أمام بوابة البيت. بعد لحظة تردد، دفعت الباب. كان داخل البيت مظلماً، مما دعاها إلى الانتظار حتى تعتاد عيناها العتمة. رأت غرفةً واحدة بجدران تالفة، وأرضية مليئة بالبقايا - وخرق قديمة وجرائد. كان داخلُ البيت بارداً. دون شك، لم تفتح النوافذ منذ سنين. حاولت ليلابي فتح درفات النوافذ، إلا أنها كان مستعصيةً على الفتح. وحين اعتادت عيناها تماماً العتمة، عرفت ليلابي أنها لم تكن الوحيدة التي دخلت إلى هنا. كانت الجدران مغطاة بنقوش ورسومٍ فاحشة، مما جعلها تغضب، كما لو أن البيت، كان حقاً بيتها. حاولت مسح النقوش بخرقة. ثم خرجت إلى الشرفة، وسحبت الباب بقوةٍ مما جعل مقبضُ الباب ينكسر، وكادت تقع.

إلا أن البيت كان جميلاً من الخارج. جلست ليلابي على الشرفة، ظهرها مستندٌ إلى أحد الأعمدة، ونظرت إلى البحر أمامها. كان شيئاً جميلاً، لا شيء سوى صوتُ الماء والريح التي كانت تهبّ بين الأعمدة البيضاء. بين جذوع الأعمدة القائمة، كان البحر والسماء يبدوان دون حدود. لم تعد الأرض هنا، لم تعد هناك جذورٌ. كانت الفتاة تتنفس ببطءٍ، الظهر قائم والرقبة مستندة إلى العمود معتدل الحرارة، وفي كلّ مرة يدخل الهواء فيها إلى رئتيها، كانت كما لو أنها ترتفعُ في السماء الصافية، فوق قرص البحر. كان الأفق خيطاً

---

(١) ΧΑΡΙΣΜΑ: كلمة يونانية مستخدمة في النصوص المسيحية تعني المغفرة (المترجم).

رقيقاً منحنياً كقوسٍ، وكان النورُ يرسلُ أشعته المستقيمة، فكانت في عالمٍ آخر، على حواف موشور.

سمعت ليلابي صوتاً آتياً مع الريح، كان يتحدث قرب أذنيها. لم يكن صوت السيد فيليبي، لكنه صوتٌ قديم جداً، اجتاز السماء والبحر. كان الصوت الرقيق والخفيض يتردد حولها، في النورِ الحار، ويردد اسمها القديم، الاسم الذي كان قد منحه لها والدها ذات يوم، قبل أن تغفو.

«أريل...أريل..»

بهدوء في البدء، ثم شيئاً فشيئاً بصوتٍ مرتفع، كانت ليلابي تغني اللحن الذي لم تنسه، منذ سنين طويلة:

«من حيث يرشف النحل رحيقه أرشف
أستلقي بين زهر الربيع
هناك أنام عندما ينعب البوم
أطير على ظهر الخفاش
بمرح بعد الصيف.
سأعيش الآن بمرح، بمرح
تحت الأزهار التي تتدلى على الغصن»[١]

---

(١) ورد هذا المقطع في النص الأصلي باللغة الإنكليزية:

«Where the bee sucks, there suck I;
In the cowslip's bell I lie:
There I couch when the owls do cry.
On the bat's back I do fly
After summer merrily:
Merrily, merrily shall I live now,
Under the blossom that habgs on the bough.»

وهو عبارة عن مقطع تغنيه شخصية أريل في مسرحية العاصفة لشكسبير (المترجم).

كان صوتها الصافي يذهبُ إلى الفضاء الطليق، ويحملُها فوق البحر. كانت ترى كلّ شيءٍ، وراء الشطآن المبهمة، وراء المدن، الجبال. كانت ترى طريقَ البحر العريض، حيث تتقدم خطوط الأمواج، كانت ترى الطرف الآخر من البحر، الشريط الطويل للأرض الرمادية والداكنة حيث تنمو غابات الأرز، وعلى بعد أكثر، الذروة الثلجية لكاها يالبور(١) كالخيال.

ظلت ليلابي وقتاً طويلاً جالسةً مستندة إلى العمود، تنظر إلى البحر وتغني لنفسها كلمات أغنية أريل، وأغانٍ أخرى ابتكرها والدها. ظلت إلى أن أصبحت الشمسُ قريبةً من خط الأفق، وإلى أن أصبح البحر بنفسجيا. لذا، غادرت البيت اليوناني، متبعةً درب المهربين باتجاه المدينة. حين وصلت إلى جانب الحصن، لمحت فتى صغيراً عائداً من الصيد، التفت لانتظارها.

«مساء الخير...»، قالت ليلابي.

«مرحبا...» قال الفتى.

كان وجهه جدياً واختبأت عيناه الزرقاوتان بنظارة. كان يحمل صنارة طويلة وحقيبة صيد، ويعلقُ حذاءه حول عنقه كي يمشي.

سارا معاً، وهما يتحدثان قليلاً. عندما وصلا إلى آخر الدرب، وبما أنه كان قد بقي من النهار عدة دقائق، جلسا على الصخور لرؤية البحر. لبس الفتى حذاءه. روى لليلابي قصة نظارته، فقال إنه ذات يوم، منذ سنين عديدة، أراد رؤية كسوف شمس ومنذ ذلك الوقت تركت الشمس له أثرها في عينيه.

---

(١) KUHHA-YE ALBORZ قمة جبلية تقع في شمال طهران بإيران، ليس بعيداً عن بحر قزوين (المترجم).

في أثناء هذا الوقت، غربت الشمس، ورأيا المنارة تُضاء، ثم المصابيح وأضواء مواقع الطائرات. اسّود الماء، حينها، نهض الفتى أولاً، التقط صنارته وحقيبته وأشار لليلابي قبل أن يغادر.

حين ابتعد قليلا، صرخت ليلابي:

«غداً، ارسم لي صورة..»

هز الفتى رأسه مشيراً نعم.

-٢-

منذ عدة أيام وليلابي تذهب ناحية البيت اليوناني. بعد أن تقفز على كلّ هذه الصخور مع لهاثها القوي بفعل الركض والتسلق في كلّ مكان ومع قليل من النشوة بالريح والنور، كانت تحبّ كثيراً لحظة رؤيتها مقابل الجرف انبثاق الظلّ الأبيض الغامض الشبيه بقاربٍ مربوط. في تلك الأيام، كان الجو لطيفاً، والسماء والبحر أزرقان، والأفق صافٍ جداً بحيث إنه كان يُمكن رؤية ذرى الأمواج. عند وصول ليلابي أمام البيت، كانت تقف وقلبها يخفق بسرعة وقوة، وتشعر بحرارةٍ غريبة في عروق جسدها، لأنه حتماً كان هناك سرٌّ ما في هذا المكان.

كانت الريح تهبّ مباغتةً، فتشعر بضوء الشمس الذي يلفها برقةٍ، مكهرباً بشرتها وشعرها. كانت تتنفس بعمقٍ أكثر، كما لو أنها ستسبحُ طويلاً تحت الماء.

ببطءٍ، كانت تدور حول السياج، إلى أن تصل الفتحة. تقترب من البيت، فيما تنظرً إلى الأعمدة الستة المصطفة والتي ابيضّت بفعل الضوء. وبصوتٍ عال، تقرأ الكلمة السحرية المكتوبة على جبصين الواجهة، لعله بسبب هذه الكلمة كان هناك هذا القدرُ من السلام والنور:

«KARISMA….»

كانت الكلمة تشّع داخل جسدها، كما لو أنها مكتوبةٌ فيها، وأنها تنتظرها. تجلس ليلابي على أرض الشرفة، مستندةً إلى العمود اليميني الأخير، تنظر إلى البحر.

كانت الشمس تحرق وجهها، وأشعة النور تخرج منها، عبر أصابعها، عبر عينيها، فمها، شعرها، منضمةً إلى لمعان الصخور والبحر.

كان الصمتُ يملأ المكان، صمتٌ رهيبٌ جداً وشديد إلى حدٍّ يمنح ليلابي الشعور بأنها كانت ستموت. كانت الحياة تخرج منها وتغادر بسرعة، ذاهبةً إلى السماء والبحر. كان ذلك عسيراً على الفهم، إلا أن ليلابي كانت متأكدة أن الموت يحدث هكذا. كان جسدها يبقى حيث هو، في وضعية الجلوس، الظهر مسنودٌ على العمود الأبيض، كل شيء ملفوفٌ بالحرارة والنور. لكن الحركة كانت تغادرها، تذوب أمامها، لا تستطيع أن تمسك بها. كانت تشعرُ بكلّ شيءٍ كان يغادرها، يبتعدُ عنها بسرعةٍ كبيرة مثل تحليق الزرازير، مثل اندفاعات الغبار. كلّ حركات ذراعيها وساقيها، الاضطرابات الداخلية، القشعريرات، الرجفات. كلّ هذا كان يغادرها مسرعاً، إلى الأمام، مرمياً في الفضاء نحو النور والبحر. لكنه كان شيئاً رائعاً، لم تكن ليلابي تقاومه. لم تكن تغلق عينيها. بل كانت تنظرُ أمامها بحدقتين متسعتين، دون أن ترمش، دائماً إلى ذات النقطة على الخط الرقيق للأفق، هناك حيث الثنية بين السماء والبحر.

كان التنفس يتباطأ شيئاً فشيئاً، وفي صدرها، يُباعد القلب بين نبضاته، ببطءٍ، ببطء. تكاد تكون دون حركة، تكاد تكون دون حياة، كانت نظرتها تتسع فقط، تمتزج في الفضاء كحزمةِ نور. كانت ليلابي تشعر بجسدها ينفتح ببطء شديد، مثل باب، وتنتظر الانضمام إلى البحر. كانت تعرف بأنها سترى كلّ هذا، قريباً، لذلك كانت لا تفكر بشيءٍ، لا تريدُ أي شيءٍ آخر. كان جسدها يبقى بعيداً في الخلف، يصبح شبيهاً بالأعمدة البيضاء والجدران المغطاة «بالجبصين» ساكناً، صامتاً. كان ذلك هو سّر البيت. الوصول إلى أعلى البحر، تماماً إلى ذروة الجدار الأزرق الكبير، إلى المكان الذي يمكن منه أخيراً رؤية ما يوجد في الطرف الآخر. كانت نظرة ليلابي تتسع، تطيرُ في الهواء، في النور، فوق الماء.

لم يكن جسدها يصبح بارداً، كالموتى في غرفهم. كان النور يتابع الدخول إلى عمق أحشائها، إلى مخ عظامها، فتعيش في ذات حرارة الهواء، كالعظاءات.

كانت ليلابي شبيهةً بغيمةٍ، بغاز، تختلط بكلّ ما حولها. مثل رائحة أشجار الصنوبر التي دفأتها حرارة الشمس، على التلال، مثل رائحة عشبٍ برائحة العسل. كانت رذاذ أمواج حيث يتألقُ قوس قزح خاطف. كانت الريح، النسمةُ الباردة القادمة من البحر، النسمةُ الحارة مثل نفسٍ قادمٍ من الأرض المخمرة أسفل الشجيرات. كانت الملح، الملح الذي يلمع مثل الصبر[١] على الصخور العتيقة، أو مثل ملح البحر، الملح الثقيل الحريف في أودية ما تحت البحار. لم يعد هناك ليلابي واحدة جالسةً على شرفة بيت يوناني عتيقٍ متهدم. تعددت ليلابي بعدد لمعانات النور على الأمواج.

كانت ليلابي ترى بكلّ عيونها، من كل الجهات. كانت ترى أشياءَ لم تكن لتتخيلها من قبل. أشياء صغيرة جداً، مخابئ حشرات، دهاليزَ الدود. ترى أوراق نباتات كثيفة، جذوراً. ترى أشياءَ كبيرة جداً، ظَهر الغيوم، النجوم خلف قبة السماء، المجموعات القطبية، الأودية الواسعة للبحر والقمم اللانهائية للأعماق. كانت ترى كلّ هذا في اللحظة ذاتها، تستمر كلّ نظرةٍ أشهراً، سنوات. لكنها كانت ترى دون أن تفهم، لأن الذي كان يجوبُ الفضاء أمامها، حركات جسدها المنفصلة.

كما لو أنها كانت تستطيع أخيراً، بعد الموت، معاينة القوانين التي تشكل العالم. كانت قوانين غريبة، لا تشبه إطلاقاً القوانين المكتوبة في الكتب، والتي نتعلمها عن ظهر قلب في المدرسة. كان هناك قانون الأفق الذي يجذب الجسد، قانونٌ طويلٌ جداً ورقيقٌ جداً، شعاع واحد صلب يوحّد طبقتي السماء

(١) الصبر: طبقة من الجليد تتكون من تجمد نقيطات ماء الضباب (المترجم).

والبحر المتحركتين. هناك، كان كلّ شيء يولد، يتضاعف مشكلاً أسراب أرقام وإشارات، تحجب الشمس وتبتعد نحو المجهول. كان هناك قانون البحر، دون بداية ولا نهاية، حيث تتكسر أشعة النور. كان هناك قانون السماء، قانون الريح، قانون الشمس، لكنها قوانين لم يكن بالإمكان فهمها، لأن إشاراتها لم تكن تنتمي إلى البشر.

فيما بعد، عندما كانت ليلابي تستيقظ، كانت تحاول تذكر ما رأته. كانت تودّ أن تكتب كل هذا للسيد فيليبي، ربما كان باستطاعته أن يفهم ما كانت تعنيه هذه الأرقام والإشارات. لكنها لم تكن تجد غير فتات عبارات، ترددها عدةَ مرات بصوتٍ عالٍ:

«هنا حيث نشرب البحر»

«نقاط ارتكاز الأفق»

«عجلات (أو طرق) البحر»

كانت تهز كتفيها، لأن هذا لم يكن ذا معنى.

كانت ليلابي تغادر، بعد ذلك، مكانها، تخرج من حديقة البيت اليوناني وتنزل نحو البحر. كانت الريح تعود بغتةً، وتطيّر شعرها وثيابها، كما لو أنها تريد أن تعيد ترتيب كل شيء.

كانت ليلابي تحب هذه الريح. كانت تريد أن تعطيها شيئاً ما، لأن الريح، غالباً ما تحتاج إلى أن تأكل أوراق شجر أو غبار أو قبعات الرجال أو قطرات الماء التي تنتزعها من البحر أو الغيوم.

كانت ليلابي تجلس في تجويف صخرة، قرب الماء، حيث تأتي الأمواج وتلعق قدميها. كانت الشمسُ تسطع فوق البحر، وتبهرها بانعكاسها على جوانب الأمواج.

لم يكن هناك أحدٌ غير الشمس والريح والبحر، كانت ليلابي قد تأخذ علبة الرسائل من حقيبتها. تسحبها رسالةً، رسالة، مبعدةً الخيط المطاطي، تقرأ عدةَ كلمات وعدة عبارات دون تعيين. أحياناً، لم تكن تفهم، فتعيد القراءة بصوتٍ عالٍ ليكون ذلك أكثر صدقاً.

«... القماش الأحمر الذي يرفرف كالأعلام...»

«النرجس الأصفر على مكتبي، قرب نافذتي، هل ترينه يا أريل؟»

«أسمع صوتك تتكلمين في الهواء....»

«...أريل، لحن أريل...»

«إنها لأجلك، من أجل أن تتذكري دائما»

كانت ليلابي تلقي الأوراق في الريح. تغادر بسرعة مع صوت تمزيقها، تطير برهةً فوق البحر، مترنحة كالفراش في الزوبعة. كانت أوراق رسائل متشحة بالزرقة، تختفي بعد ذلك فجأة في البحر. كان ممتعاً إلقاء هذه الأوراق في الريح، وبعثرةُ هذه الكلمات، كانت ليلابي ترى الريح وهي تأكلها ببهجة.

رغبت ليلابي بإشعال نار. بحثت بين الصخور عن مكان لا تهب فيه الريح بقوة. وعلى بعد مسافةٍ قصيرة وجدت الخليج الصغير ذا الرصيف المُهّدم، فاستقرت فيه.

كان مكاناً جيداً لإشعال النار. كانت الصخور البيضاء تحيط بالرصيف، فيما لم تكن هبات الريح تصل إلى هنا. في قاعدة الصخرة، كان هناك تجويفٌ جاف وحار، وسرعان ما ارتفع اللهب فيه، خفيفاً، فاقعاً، مع رجفةٍ عذبة. كانت ليلابي تلقي فيه دون توقف أوراقاً جديدة، تشتعل بسرعة لأنها جافة ورقيقة، وسرعان ما تتلاشى.

كان شيئاً ممتعاً رؤية الأوراق الزرقاء تتلوى في النار، والكلمات تهرب متقهقرة إلى مكانٍ مجهول. يخطر في بال ليلابي أن أباها سيحب أن يكون

هنا لرؤية احتراق رسائله. لأنه كان لا يكتب كلمات كي تبقى. كان قد قال لها ذلك ذات يوم على الشاطئ، وقد وضع رسالةً في زجاجة قديمة زرقاء، ليرميها بعيداً في البحر. كان قد كتب الكلماتِ لأجلها فقط، كي تقرأها وتسمع صخب صوته، والآن، كانت الكلمات تستطيع أن تعود إلى المكان الذي جاءت منه، على هذا النحو، بسرعة على هيئة نورٍ ودخان، في الهواء، وأن تصبح غير مرئية. ربما كان أحدهم، من الطرف الآخر للبحر، يرى الدخان الصغير واللهب الذي يلمع كالمرآة، وسيفهم.

غذّت ليلابي النار بقطع خشبية صغيرة، وبأغصانٍ، وأشنيات جافة كي يستمر اللهب. كانت تفوح كلّ أنواع الروائح الهاربة في الهواء، الرائحة الخفيفة والمحلاة قليلاً لورق الرسائل، والرائحة القوية للفحم والخشب، والدخان الثقيل للأشنيات.

كانت ليلابي تنظر إلى الكلمات التي تغادر مسرعةً، مسرعة جداً كما لو أنها تجتاز الفكر مثل الوميض. من وقت لآخر، كانت تتعرف عليها مشوهةً وغريبة، ملوية من النار، فتضحك قليلاً.

«مطططططر!»

«ألم!»

«ووووثبة!»

«صيييف!»

«أويل، يل، يييل..!»

فجأة، شعرت ليلابي بوجود أحد ما خلفها، فاستدارت. كان الفتى الصغير ذو النظارة ينظر إليها، واقفاً على صخرةٍ تعلوها. كانت صنارته ماتزال في يده ولا يزال حذاؤه معقوداً حول عنقه.

سأل:«لماذا تحرقين الورق؟»

ابتسمت ليلابي له.

قالت: «لأن ذلك ممتع، انظر!»

وضعت في النار ورقةً كبيرة زرقاء رُسم عليها شجرة.

قال الفتى الصغير: «إنها تحترق جيداً».

«أترى، كانت راغبةً بشدة في الاحتراق» شرحت ليلابي. «كانت تنتظر هذا منذ وقتٍ طويل، كانت جافة كأوراقٍ ميتة، لهذا السبب، تحترق جيداً.»

وضع الفتى الصغير ذو النظارة صنارته وذهب لإحضار الأغصان الصغيرة من أجل النار. أمضيا لحظات ممتعة في إحراق كلّ ما كانا يستطيعان إحراقه. اسودّت يدا ليلابي من الدخان ووخزتها عيناها. تعب الاثنان وأُنهكا من انشغالهما بالنار. والآن، كانت النار هي الأخرى تبدو متعبةً. أصبح لهيبها أكثر قصراً، وانطفأت الأغصان الصغيرة والأوراق واحدة وراء أخرى.

قال الفتى الصغير وهو يمسح نظارته: «ستنطفئ النار».

«لأنه لم يعد هناك رسائل. هذا ما كانت تريده.»

أخرج الفتى الصغير من جيبه ورقة مثنية أربع ثنيات.

سألت ليلابي «ماهذه؟» أخذت الورقة وفتحتها. كانت رسما لامرأة بوجه أسود. تعرفت ليلابي فيها على كنزتها الصوفية الخضراء.

«أهذا رسمي؟»

«رسمته لأجلك»، قال الفتى الصغير.«لكن بإمكاننا إحراقه.»

إلا أن ليلابي ثنت الرسم ثانية ونظرت إلى انطفاء النار.

سأل الفتى الصغير:«ألا تريدين إحراقه الآن؟».

قالت ليلابي: «لا، ليس اليوم».

بعد انطفاء النار، انطفأ الدخان، كانت الريح تهبّ على الرماد.

قالت ليلابي :«سأحرقه عندما أحبّه كثيراً».

ظلا لوقتٍ طويل جالسين على الرصيف، ينظران إلى البحر، تقريباً دون أن يتكلما. كانت الريح تمر على البحر، مثيرةً الرّذاذ الذي يخز وجهيهما. كان ذلك كما لو أنهما جالسان في مقدمة قارب، في عرض البحر. لم يكن يُسمع شيءٌ آخر، سوى صخب الأمواج وعزيف الريح الممتد.

عندما بلغت الشمس مكانها في الظهيرة، نهض الفتى الصغير ذو النظارة والتقط صنارته وحذاءه.

قال: «أنا ذاهب».

«ألا تريد البقاء؟»

«لا أستطيع، علي أن أعود.»

نهضت ليلابي هي الأخرى.

سأل الفتى الصغير:«أستبقين هنا؟».

«لا، سأذهب هناك، أبعد.»

أشارت إلى الصخور، في آخر الرأس البحري.

«هناك بيتٌ آخر، إلا أنه أكبر بكثير، كأنه مسرح.» كان الفتى الصغير يشرح لليلابي.«ينبغي تسلق الصخور، ومن ثم يمكن الدخول من الأسفل.»

«هل ذهبت إلى هناك؟»

«نعم، غالباً. إنه جميل، إلا أن الوصول إليه صعب.»

وضع الفتى الصغير حذاءه حول عنقه وابتعد بسرعة.

قالت ليلابي:«إلى اللقاء!»

قال الفتى الصغير:«مع السلامة!».

مشت ليلابي نحو الرأس البحري. كانت تركض، قافزةً من صخرةٍ إلى أخرى. هنا، لم يعد هناك دروب. كان يجب تسلقُ الصخور، بالتشبث بجذور الخلنج والأعشاب. كانت بعيدةً، ضائعة وسطَ الصخور البيضاء، معلقةً بين السماء والبحر. رغم برودة الريح، كانت ليلابي تشعرُ بحرقةِ الشمس، تنضح عرقاً تحت ثيابها. كانت حقيبتها تزعجها، لذا قررت إخفاءها في مكان ما، لتستعيدها فيما بعد. طمرتها في حفرة، أسفل شجرة صبارٍ كبيرة، وأغلقت المخبأ بدفع حجرين أو ثلاثة.

كان البيتُ الإسمنتي الغريب الذي تكلم عنه الفتى الصغير يربضُ فوقها الآن. وكان ينبغي صعود سفح ركامي للوصول إليه. كان الركام الأبيض يلمع في ضوء الشمس. ترددت ليلابي برهةً، لأن كلّ شيءٍ كان في هذا المكان يلتفُ بالغرابةِ والصمت. فوق البحر، كانت الجدران الإسمنتية الطويلة، المعلقةً على الجدار الصخري، خاليةً من النوافذ.

حام طيرٌ فوق الركام، فامتلأت ليلابي فجأة برغبة في أن تكون في الأعلى. بدأت تتسلق السفح الركامي. كانت نتوءات الأحجار تكشط يديها وركبتيها، وتنزلق خلفها كتلٌ جرفية صغيرة. عندما وصلت تماماً إلى الأعلى، استدارت لترى البحر، ولكي لا تصاب بالدوار اضطرت إلى إغلاق عينيها. لم يكن تحتها، وإلى أبعد ما يصله النظر، سوى البحر الشاسع الأزرق، البحر الذي ملأ الفضاء حتى الأفق المتسع، كان مثل سقفٍ دون نهاية، قبةٌ عملاقة من معدنٍ داكن، حيث تتحرك كلّ تكسرات الأمواج. في بعض الأماكن، كانت الشمس تضيء فوق ليلابي، فترى البقع والمسارات المعتمة للتيارات وغابات الأشنيات وآثار الزبد. كانت الريح تكنس البحر دون توقف، تصقل سطحه.

فتحت ليلابي عينيها ونظرت إلى كلّ شيء، وهي تتشبث بالصخور بأظافرها. كان البحرُ جميلاً جداً، على نحو بدا لها كأنه يجتاز رأسها وجسدها بسرعة خاطفة، وبأنه يحمل إليها آلاف الأفكار دفعةً واحدة.

ببطءٍ وحذر، اقتربت ليلابي من الركام. كان تماماً مثلما قال الفتى الصغير ذو النظارة، مسرحاً بجدرانٍ كبيرة من الأسمنت المسلح. كانت النباتات تنمو بين الجدران العالية، فيما غطى العوسج والعرائش الأرض تماماً. كان يرتفع فوق الجدران سقف خرساني، منهارٌ في بعض الأماكن. كانت ريح البحر تتدفع من الفتحات، من كل جهات البناء، بهباتٍ قوية تحرك الأجزاء الحديدية لهيكل السقف. كانت الصفائح المعدنية تتلاطم مصدرةً موسيقا غريبة، فظلت ليلابي ساكنة تنصت إليها. كانت مثل صرخات خطاطيف البحر ومثل هدير الموج، موسيقا عجيبة، خيالية، دون إيقاع، تجعل المرء يُصاب بالقشعريرة. عادت ليلابي إلى السير. كان بمحاذاة الجدار الخارجي دربٌ ضيقة تعبر بين الأشواك، وتقود إلى درج هُدم نصفه. صعدت ليلابي الدرجات، ووصلت إلى منصةٍ، تحت السقف، حيث كان يُرى البحر من خلال ثغرٍ. جلست ليلابي هنا، مقابل الأفق تماماً، في الشمس، ونظرت ثانية إلى البحر، ثم أغلقت عينيها.

فجأة اختلجت، لأنها شعرت بوصولِ شخصٍ ما. لم يكن هناك أي صوت سوى الريح التي تحرك الصفائح الحديدية للسقف، مع ذلك شعرت بالخطر. في الطرف الآخر من الركام، على الدرب التي تعبر العوسج، كان هناك حقاً شخص ما قادم، رجلٌ يرتدي سروالاً من كتان أزرق وسترة، بوجهٍ اسّود بفعل الشمس، وبشعرٍ أشعث. كان يسيرُ دونَ صوتٍ، متوقفاً من وقتٍ إلى آخر، كما لو أنه يبحث عن شيء ما. ظلت ليلابي ساكنة ملتصقة بالحائط، وقلبها يخفق، آملة ألا يكون قد رآها. دون أن تفهم لماذا، كانت تعلم أن الرجل يبحث عنها، حبست أنفاسها كي لا يسمعها. إلا أنه حينما اجتاز نصف الدرب، رفع رأسه بهدوء ورأى الفتاة. كانت عيناه الخضراوان تلمعان بغرابةٍ في وجهه الداكن. ودون أن يسرع، بدأ يسير نحو الدرج. إلا أن الوقت أصبح متأخرا للنزول، بقفزةٍ واحدة خرجت ليلابي من الثغر وتسلقت السقف.

كانت الريح تهب بقوة لدرجة أنها كادت تقع. أسرعت بقدرِ ما تستطيع راكضةً نحو الطرف الآخر للسقف، وسمعت وقع قدميه في الصالة الكبرى المتهدمة. كان قلبها يخفقُ بقوةٍ في صدرها. حين وصلت إلى نهاية السقف توقفت، فقد كان أمامها حفرةٌ كبيرة تفصلها عن جدار الجرف. أنصتت إلى ما حولها، لم يكن هناك شيءٌ سوى صوت الريح على الصفائح المعدنية للسقف، إلا أنها كانت تعرف أن الرجل المجهول لم يكن بعيداً، كان يركض على الدرب وسطَ العوسج ليدور حول الأنقاض ويفاجئها من الخلف. لذلك قفزت ليلابي، ساقطةً على انحدار الجرف، التوى كاحلها الأيسر، وشعرت بالألم، فصرخت فقط:

«أي!».

انبثق الرجلُ أمامها، دون أن تفهم من أين. كانت يداه مخدوشتين بالعوسج، يلهثُ قليلاً. ظلّ ساكناً أمامها، عيناه جامدتان كقطعتين صغيرتين من الزجاج. أهو الذي كتب الرسائل بالطبشور، عبرَ الدرب على الصخور؟ أهو الذي دخل البيت اليوناني الجميل، ووسّخ الجدران بكلّ هذه العبارات الفاحشة. كان قريباً جداً منها لدرجةِ أنها شمّت رائحته، رائحةُ عرقٍ ماسخة، واخزة، أشبعت ثيابه وشعره. فجأة، خطا خطوةً إلى الأمام، بفم مفتوح، وبعينين ضيقتين قليلاً. رُغم الألم في كاحلها، قفزت ليلابي وبدأت نزولَ المنحدر، وسطَ ركامِ الحصى. حين وصلت أسفل الجرف، توقفت واستدارت. كان الرجلُ يقفُ بذراعين متباعدتين، كما في التوازن، أمام الجدران البيضاء للأنقاض.

كانت الشمسُ تضرب بقوة فوقَ البحر، وبفضلِ الريحِ الباردة، شعرت ليلابي بأنها كانت تستردُ قوتها. شعرت أيضاً بالاشمئزاز وبالغضب اللذين حلّا شيئاً فشيئاً محل الخوف. وفجأة، فهمت بأنه لاشيء يمكن أن يصيبها. إنها الريح والبحر والشمس. تذكرت ما قاله أبوها يوماً بخصوص الريح والبحر والشمس، عبارةٌ طويلة تتحدث عن الحرية والفضاء، شيءٌ من هذا

القبيل. وقفت ليلابي على صخرةٍ تشبه مقدمة سفينة، فوق البحر، وأرجعت رأسها إلى الخلف، كي تشعرَ بشكلٍ أفضل بحرارة النور على جبهتها وجفنيها. كان والدها هو الذي علّمها ذلك، لاسترداد قواها، كان يسمي ذلك: «شرب الشمس».

نظرت ليلابي إلى البحر الذي كان يتهادى تحتها، ملاطماً قاعدة الصخرة، صانعاً دواماته وفقاعاته. تركت نفسها تسقط، الرأس أولاً، ثم دخلت في الموجة. لّفها الماء البارد ضاغطاً على طبلتي أذنيها وفتحتي أنفها، ورأت في عينيها بريقاً فاتناً. عندما صعدت إلى سطح الماء، نفضت شعرها وأطلقت صرخة. كانت الأرضُ بعيدةً خلفها، كسفينةٍ شحن ضخمة رمادية، تهتزُ مثقلةً بالحجارةِ والنباتات. في القمة، كان البيتُ الأبيض المتهدم يشبهُ ممراً مفتوحاً نحو السماء.

تركت ليلابي نفسها برهةً محمولة في حركة الموج البطيئة، ملابسها ملتصقةً بجسدها كالأشنيات. ثم بدأت تسبحُ على بطنها مسافة طويلة، نحو العمق إلى أن ابتعد الرأس ليسمح من بعيد برؤية الخطُ الشاحب لبنايات المدينة، الذي ظهر بالكاد في الجو السديمي.

-٣-

كانت ليلابي تعلم جيداً أن ذلك لا يمكن أن يستمر طويلاً. أولاً، كان كلّ هؤلاء الناس، في المدرسة وفي الشارع، يروّون أشياءً، ويتحدثون كثيراً. حتى إن عدداً من الفتيات أوقفن ليلابي ليقلّن لها بأنها كانت تبالغ قليلا، وإن مديرة المدرسة والجميع يعلمون جيداً بأنها لم تكن مريضة. ومن ثم، هناك هذه الرسائل التي كانت تطالب بإيضاحات. كانت ليلابي قد فتحتها، وأجابت موقعةً باسم أمها، حتى إنها، ذات يوم، اتصلت هاتفياً بمكتب مراقب المدرسة، مغيرةً صوتها، كي تشرح أن ابنتها مريضة، مريضة جداً، وليس بإمكانها العودة إلى دروسها.

كانت ليلابي تحسب أن ذلك لا يمكن له أن يستمر. فيما بعد، كتب السيد فيليبي لها رسالةً، ليست طويلة جداً، رسالة غريبة طالباً منها العودة. وضعت ليلابي الرسالة في جيب سترتها، وحملتها دائماً معها. ودّت أن تجيبه كي تشرح له، لكنّها كانت خائفة من قراءة المديرة للرسالة، وبأنها ستعلم أنها ليست مريضة، وإنما كانت تتنزه.

في الصباح، عند خروجها من الشقة، كان الجو رائعاً جداً. كانت أمها لا تزال نائمة، بسبب الحبوب التي تتناولها كلّ مساءٍ منذ الحادث الذي جرى معها. عند دخول ليلابي الشارع خطفَ الضوء بصرها.

كادت السماء أن تكون بيضاء، والبحر لامعٌ. مثل بقية الأيام، سارت ليلابي في درب المهربين. كانت الصخورُ البيضاء تبدو كصخورٍ جليدية عائمة على الماء. سارت برهةً بمحاذاة الشاطئ، منحنية قليلاً إلى الأمام في

وجه الريح، لكنها لم تعد تجرؤ على الوصول إلى المنصةِ الأسمنتية في الجانب الآخر من الحصن. ودّت رؤية البيت اليوناني الجميل ذي الأعمدة الستة مرة أخرى، كي تجلس وتترك نفسها محلّقةً في أعماق البحر، لكنّها كانت خائفة من لقاء الرجل ذي الشعر الأشعث الذي كان يكتبُ على الجدران والصخور. لذلك جلست على صخرة، على طرف الدرب، محاولةً تخيّل البيت. كان صغيراً جداً، جاثماً قبالة الجرف، بابه ونوافذه مغلقة. ربما من الآن وصاعداً، لن يدخله أحد. فوق الأعمدة، على تيجانها المثلثية، كان اسمه مناراً بأشعة الشمس، يقول دائماً:

ΧΑΡΙΣΜΑ

بما أنها كانت الكلمة الأكثر جمالاً في العالم.

نظرت ليلابي مرةً أخرى إلى البحر، فيما تستند على الصخرة، مدة طويلة جداً، كما لو أنه ينبغي أن لا تراه ثانية. كانت الأمواج المتراصة تتحرك بعيداً حتى الأفق، والنورُ يومضُ فوق ذراها، مثلَ زجاجٍ مهروس. كانت الريحُ المالحة تهبُّ، والبحر يهدرُ بين حواف الصخور، وأغصان الشجيرات القصيرة تصدر صفيرها. تركت ليلابي نفسها مرةً أخرى للنشوة الغريبة للبحر والسماء الخاوية. فيما بعد، حوالي الظهيرة، أدارت ظهرها للبحر، وتبعت راكضة الطريق المتجه إلى مركز المدينة.

في الشوارع، لم تعد الريح ذاتها. كانت تدور حول نفسها، تعبر بهبات، تصفق أبواب النوافذ، مثيرةً غيوماً من الغبار. لم يكن الناس يحبون الريح، كانوا يجتازون الشوارع بعجلةٍ، ملتجئين إلى زوايا الجدران.

شحنت الريح والجفاف كلّ شيءٍ بالكهرباء. كان الرجال يحجلون بعصبية، يتشاتمون، يتصادمون، وعلى الطريق المعبدة السوداء، كانت تتصادم، أحيانا، سيارتان مصدرتين أصواتاً عاليةً ناتجة عن الحديد والزمامير المخنوقة.

كانت ليلابي تسيرُ في الشوارع بخطوات كبيرة، عيناها نصف مغلقتين بسبب الغبار. عند وصولها وسط المدينة، كان رأسها يدور كما لو أنها أصيبت بالدوار. كانت الجموعُ تذهب وتجيء، تدور كأوراق شجرٍ يابسة. كانت جماعات الرجال والنساء تتجمع، تتفرق، تتشّكل من جديد في مكان أبعد، مثل برادةِ الحديد في حقلٍ مغناطيسي. إلى أين يذهبون؟ ماذا يريدون؟ منذ زمنٍ طويل، لم ترَ ليلابي هذا القدر من الوجوه، من العيون، ومن الأيدي، بحيث إنها لم تستطع فهمها. كانت الحركة البطيئة للجموع على الأرصفة تأخذها وتدفعها إلى الأمام دون أن تعلم إلى أين كانت تذهب. كان الناس يعبرون بقربها، فتشّم أنفاسهم، وتشعر باحتكاك أيديهم. انحنى رجلٌ إلى وجهها وتمتم بشيء ما، لكنه كان كمن يتكلم لغةً مجهولة.

ودون إدراكٍ منها، دخلت ليلابي إلى مجمعٍ تجاري، مليء بالأضواء والضجيج. كان كما لو أن الريح كانت تهبُ أيضاً في الداخلِ، في الممرات وعلى الأدراج، تلّفُ اليافطات الكبيرة. كانت مقابض الأبواب تُفرغُ شحناتٍ كهربائية، فيما قضبان النيون تتلألأ كبريقٍ شاحب.

ركضت ليلابي باحثة عن مخرج المجمع. حين عبرت أمام الباب، صدمت شخصاً ما فتمتمت:

«عفوا سيدتي»

إلا أن ذلك لم يكن سوى «مانيكانا» بلاستيكياً كبيراً، يرتدي عباءة من نسيج قطني سميك أخضر. الذراعان المتباعدتان للمانيكان تهتزان قليلاً، ووجهه حاد، بلون شمعي، شبيهٌ بوجه مديرة المدرسة. وبسبب الاصطدام انزلق الشعر المستعار الأسود للمانيكان على عينيها ذات الأهداب الشبيهة بقوائم الحشرات، وبدأت ليلابي تضحك وترتعش في الوقت ذاته.

كانت تشعر بتعبٍ شديد، الآن، وبخواء. ربما لأنها لم تأكل منذ العشية، فدخلت إلى مقهى. جلست في عمق الصالة، حيث يوجد قليلٌ من الظل. كان النادل واقفاً أمامها.

«أريد عجة»، قالت ليلابي.

نظر إليها النادل للحظة، كما لو أنه لم يكن يفهم ثم صرخ باتجاه طاولة الخدمة:

«عجة للآنسة...»

وتابع النظر إليها.

أخذت ليلابي ورقة من جيب سترتها وحاولت الكتابة. كانت تريد كتابةَ رسالة طويلة، دون أن تعرف إلى من ترسلها. في الوقت ذاته، كانت تريد الكتابة إلى أبيها وإلى الأخت لورانس وإلى السيد فيليبي وإلى الفتى ذي النظارة السوداء لتشكره على رسمه، لكنها لم تستطع. فجعلكت الورقة وأخذت أخرى. وبدأت تكتب:

«سيدتي المديرة،

أرجو أن تعذري ابنتي لعدم استطاعتها العودة إلى المدرسة حالياً، حيث إن حالتها الصحية تتطلب....»

توقفت مرةً أخرى. تتطلب ماذا؟ لم تكن تستطيع تصور أي شيء.

«عجة الآنسة»، قال صوت نادل المقهى، ووضع الصحن على الطاولة ناظراً إلى ليلابي بغرابة.

جعلكت ليلابي الورقة الثانية وبدأت تأكلُ العجة، دون أن ترفعَ رأسها. جعلها الطعام الساخن تشعر بالراحة، فاستطاعت النهوض والسير بعد قليل.

حين وصلت أمام بوابة المدرسة الثانوية، ترددت للحظات.

دخلت، أحاطها لغط الأطفال دفعةً واحدة. مباشرةً تعرفت على كلّ شجرةِ كستناء وكلّ شجرة دلب. كانت عصفات الريح تحركُ أغصانها النحيفة، فيما أوراقها تدور في الباحة. تعرفت أيضاً على كلّ قرميدة، وكلّ مقعدٍ بلاستيكي أزرق، وكلّ النوافذ بزجاجها الخشن. جلست على مقعدٍ في آخر الباحة، كي تتجنب الأطفال الراكضين. انتظرت، لم يكن يبدو أن أحداً قد انتبه إليها.

خفّ الصخبُ. وكانت مجموعات التلاميذُ تدخل إلى الصفوف، وتُغلق الأبواب واحداً تلو الآخر. لم يبقَ بعد قليل إلا الأشجار التي كانت تهزها الريح، والغبارُ وأوراق الأشجار الميتة التي ترقص في دائرة وسط الباحة.

شعرت ليلابي بالبرد، فنهضت وبدأت البحث عن السيد فيليبي. فتحت أبواب المبنى مسبق الصنع، حيث تُوجد المخابر. في كل مرة، كانت تباغت بعبارةٍ تبقى معلقة للحظة في الهواء، تذهبُ حين كانت تغلق الباب.

اجتازت ليلابي من جديد الباحة وقرعت الباب الزجاجي للبواب.

قالت: «أريد رؤية السيد فيليبي».

نظر إليها الرجل مندهشا.

قال:«لم يصل بعد»، فكر قليلا. «أظن أن مديرة المدرسة تريدك. تعالي معي.»

تبعته ليلابي طائعةً. وقف أمام باب مطلي بالورنيش وقرع، ثم فتح الباب مشيراً لليلابي بالدخول.

من خلف مكتبها، نظرت المديرة إليها بعينين ثاقبتين.

« ادخلي واجلسي. إني أنصتُ إليك.»

جلست ليلابي على الكرسي ونظرت إلى المكتب المطلي بالشمع. كان الصمتُ مهدداً بشدة بحيث إنها كانت تريد قول أي شيء.

قالت: «أريد رؤية السيد فيليبي.... لقد كتب لي رسالة.»

قاطعتها المديرة. كان صوتها بارداً وقاسياً كنظرتها.

«أعلم أنه كتب إليك، وفعلتُ أنا ذلك أيضاً، لا يتعلق الأمر بذلك، بل بك. أين كنت؟ بالتأكيد هناك أشياء... مهمة لترويها. إني منصتةٌ إليك يا آنسة.»

تجنبت ليلابي نظرتها.

«أمي...»، بدأت.

صرخت المديرة:

«والدتك ستعلم بكل هذا فيما بعد، وبالطبع، والدك أيضاً.»

ثم أظهرت ورقة، عرفتها ليلابي مباشرةً.

«وبهذه الرسالة، الرسالة المزورة!»

لم تنكر ليلابي، بل إنها لم تندهش أبداً.

كررت المديرة: «إني أنصت إليك». كان يبدو أن لامبالاة ليلابي قد أخرجتها شيئاً فشيئاً عن طورها. ربما كان ذلك خطأ الريح التي كهربت كل شيء.

«أين كنتِ خلال كلّ هذا الوقت؟»

تكلمتْ ليلابي. تكلمتْ ببطءٍ، باحثةً بعض الشيء عن كلماتها، لأنها، الآن، فقدت عادة الكلام، فيما كانت تتكلم، كانت ترى أمامها، في مكان المديرة، البيت ذا الأعمدة البيضاء والصخور والاسم اليوناني الجميل اللامع تحت الشمس. كانت تحاول رواية كلّ ذلك للمديرة، البحر الأزرق بانعكاساته الشبيهة بالماس، الصخب العميق للأمواج، الأفقُ بخطه الأسود، الريحُ المالحة حيث تحلق طيور خطاف البحر. كانت المديرة تنصت، امتلأ وجهها لبرهة بتعابير الانذهال الشديد. على هذا النحو، كانت تشبه المانيكان بشعرها الأسود المستعار. كان على ليلابي أن تجهدَ كثيرا كيلا تبتسم. عند توقفها عن الكلام، سادت عدة لحظاتٍ من الصمت، ثم تغيّر وجه المديرة مرة أخرى، كما لو أنها كانت تبحث عن صوتها. دُهشت ليلابي لرنّةِ صوتها، لم يعد ذات الصوت، أصبح خفيضاً وأكثر نعومة.

قالت المديرة: «انصتي يا طفلتي!»

انحنت على مكتبها المطلي بالشمع، ناظرةً إلى ليلابي. كانت يدها اليمنى تحمل قلماً أسود محاطاً بخط مذهب.

«طفلتي، أنا مستعدةٌ لنسيان كلّ هذا. تستطعين العودة إلى الصف كالسابق. لكن يجب أن تقولي لي....»

ترددت.

«أنت تفهمين، أريدُ مصلحتك. لذلك يجب أن تقولي لي كلّ الحقيقة.»

لم تردِ ليلابي. لم تفهم ما الذي كانت المديرة تريد قوله.

«تستطعين التكلم دون خوف، كلّ شيءٍ سيبقى بيننا.»

بما أن ليلابي لم تكن ترد، قالت المديرة بسرعة، بصوت شبه منخفض:

«لديك صديق، أليس كذلك؟»

أرادت ليلابي أن تحتج، إلا أن المديرة منعتها من الكلام.

«الإنكار غير مفيد، العديد من رفيقاتك رأينك مع فتى.»

قالت ليلابي: «هذا غير صحيح..» لم تصرخ، إلا أن المديرة تصرفت كما لو أنها صرخت، وقالت بصوتٍ عالٍ:

«أريد معرفة اسمه...»

قالت ليلابي: «ليس لي صديق». فهمت فجأة سبب تغير وجه المديرة، لأنها كانت تكذب. لذا، شعرت بوجهها الذي أصبح كالحجر، بارداً ومصقولاً، فنظرت إلى المديرة، مباشرةً في عينيها، لأنها الآن لم تعد تخافها.

اضطربت المديرة، مما أرغمها على إشاحة نظرها عنها. قالت في البداية، بصوتٍ هادئ، حنون.

«يجب أن تقولي الحقيقةَ لي، من أجلك يا صغيرتي.»

بعد ذلك، أصبحت نبرتها قاسيةً وكريهةً.

«أريد معرفة اسم هذا الفتى...»

شعرت ليلابي بالغضب يكبر في داخلها. كان بارداً وثقيلاً جداً مثل الحجر، كان يتموضع في رئتيها، وفي حلقها، وبدأ قلبها يخفق بسرعة كبيرة، بالطريقة نفسها حين رأت العبارات الفاحشة على جدران البيت اليوناني.

«لا أعرف أي فتى، هذا غير صحيح، غير صحيح!» صرخت، وأرادت النهوض كي تغادر. لكن المديرة أشارت لها بالبقاء.

«ابقي، ابقي، لا تغادري!» من جديد كان صوتها أكثر انخفاضاَ، فيه قليلٌ من الانكسار. «لا أقول ذلك من أجلك - إنه من أجل مصلحتك يا طفلتي، ومن أجل مساعدتك فقط، يجب أن تفهمي ذلك - أود القول-».

تركت القلم الأسود الصغير ذا الطرف المذهب وشبكت يديها النحيفتين بعصبية كل منهما بالأخرى. عادت ليلابي للجلوس ولم تعد تتحرك. كانت بالكاد تتنفس، وأصبح وجهها أبيض تماماً، كقناعٍ حجري. كانت تشعر بالوهن، ربما لأنها لم تكن تأكل وتنام إلا قليلاً، كلّ هذه الأيام، على شاطئ البحر.

قالت المديرة: «واجبي أن أحميك من أخطار الحياة. أنت لا تستطيعين أن تدركي ذلك، أنت صغيرة جداً. كلمني السيد فيليبي عنك بعبارات ثناء، أنت تلميذة جيدة ولا أريد أن يُفسد حادثٌ ما ذلك بغباوةٍ....»

كانت ليلابي تنصتُ إلى صوتها البعيد جداً، كما لو أنه كان قادماً من فوق جدارٍ، مشوهاً من حركةِ الريح. كانت تريد التكلم، لكنها لم تستطع تحريك شفتيها.

«لقد اجتزتِ فترةً عصيبة منذ ما حدث لأمك، وإقامتها في المشفى. أنت ترين أني أعرف كلّ هذا، مما يساعدني على فهمك، لكن عليك أن تساعديني أيضا، عليك أن تبذلي الجهد....»

«أريد رؤية.... السيد فيليبي...»، قالت ليلابي في النهاية.

قالت المديرة: «سترينه فيما بعد، سترينه، إلا أنه عليك أن تقولي الحقيقة، أين كنت؟»

«قلت لك، كنت أنظرُ إلى البحر، كنت مختبئةً بين الصخور وأنظرُ إلى البحر.»

«مع من؟»

«وحيدة، قلتُ لك، وحيدة..»

«غير صحيح...»

صرخت المديرة، ثم تمالكت نفسها مباشرة «إن لم تقولي مع من، سأكون مجبرة للكتابة إلى والديك. والدك...»

بدأ قلب ليلابي من جديد يخفق بشدة.

«إن فعلت ذلك، فلن أعود أبداً إلى هنا» شعرت بقوة كلماتها، فكررت ببطءٍ دون أن تدير عينيها:

«إن كتبتِ إلى أبي، فلن أعودَ أبداً إلى هنا، ولا إلى أي مدرسةٍ أخرى.»

صمتت المديرة برهةً طويلة، وساد صمت في الصالة الكبرى، كالريح الباردة. ثم نهضت المديرة. نظرت إلى الفتاة بانتباه.

في النهاية قالت: «يجب ألا تضعي نفسك في هذه الحالة، أنتِ شاحبة، تعبة. سنتكلم في الأمر مرة أخرى.»

نظرت إلى ساعتها.

«حصة السيد فيليبي ستبدأ خلال بضع دقائق. تستطيعين الذهاب إليها.»

نهضت ليلابي ببطء، ومشت نحو الباب الكبير، استدارت مرةً قبل الخروج، وقالت:

«شكرا يا سيدتي».

كانت باحةُ المدرسة الثانوية ممتلئة من جديدٍ بالتلاميذ. كانت الريح تهز أغصان أشجار الدلب والكستناء، وأصواتُ الأطفال تصدر ضوضاءً تُصيبها بالثمالة. اجتازت ليلابي الباحة ببطء، متجنبةً جماعات التلاميذ والأطفال المتراكضين. أشارت لها بضعُ فتيات، من بعيد، دون أن يجرؤن على الاقتراب، أجابتهن ليلابي بابتسامة خفيفة. حين وصلت أمام البناء مسبق الصنع، رأت ظلّ السيد فيليبي، قرب العمود B، كعادته كان مرتدياً بزته

الزرقاء الرمادية، يدخن سيجارة، ناظراً أمامه. توقفت ليلابي. لمحها الأستاذ، وجاء إلى لقائها مشيراً لها بيده بإشارات مفرحة.

«إيه.. حسناً؟ إيه.. حسناً؟» قال. هذا كلّ ما استطاع قوله.

«كنت أودُ أن أسألك...» بدأت ليلابي.

«ماذا؟»

«عن البحر، عن الضوء، لدي الكثير من الأسئلة لأسألك إياها.»

إلا أن ليلابي أدركت فجأة أنها قد نسيت أسئلتها. نظر السيد فيليبي مبتسماً.

«هل سافرت؟»

قالت ليلابي: «نعم..».

«أكان سفرا ممتعا؟»

«....نعم.. كان ذلك ممتعا.»

رنّ الجرس في الباحة، وفي الأروقة.

قال السيد فيليبي: «أنا سعيدٌ جداً...». أطفأ سيجارته بكعب حذائه.

قال: « ستروين لي كل شيء فيما بعد». كان هناك بريقٌ أخاذ يلمع في عينيه الزرقاوين خلف نظارته.

«لن تسافري، الآن؟»

قالت ليلابي: «لا».

قال السيد فيليبي: «جيد، الآن، يجب الذهاب إلى الدرس». وكرر أيضاً: «أنا سعيدٌ جداً.» استدار نحو الفتاة قبل أن يدخل إلى البناء مسبق الصنع.

«ستسألينني كلّ ما تريدينه، بعد قليلٍ، بعد الدرس. أنا أيضاً أحب البحر كثيراً.»

جبل الإله الحي

في نور اليوم الحادي والعشرين من حزيران، بدا جبل ريدارباميرⁿ[1]، الواقع على يمين الدرب الترابي، عالياً جداً ورحباً، مُشرفاً على السهوب والبحيرة الكبيرة الباردة، ولم يكن جون يرى سواه. مع إنه لم يكن الجبل الوحيد. على بعدٍ قليل، كانت تمتد مرتفعات كالفستيندار والأودية الكبيرة المحفورة الواصلة إلى البحر، وفي الشمال الكتلة الداكنة لـ«حراس الجليد». إلا أن ريداربامير كان أكثر جمالاً من كلّ الجبال الأخرى، كان يبدو أكبر وأنقى بسبب الخط الناعم الصاعد دون توقفٍ من سفحه حتى قمته. كان يلامس السماء، فيما تعبر نفثات الغيوم الملتفة فوقه مثل دخان بركان.

كان جون يمشي الآن نحو ريداربامير. كان قد ترك دراجته الجديدة عند تلةٍ على طرف الدرب، ثم راح يمشي عبر حقل الخلنج[2] وحراز الصخر[3]. لم يكن يعرف تماماً لِمَ يسير نحو ريداربامير. كان يعرف هذا الجبل على الدوام، يراه كلّ صباحٍ منذ طفولته، إلا أن اليوم، كان كما لو أن ريداربامير يظهر له للمرة الأولى. كان يراه أيضاً عند ذهابه إلى المدرسة على الطريق الإسفلتي سيراً على قدميه. ما من مكان في الوادي إلا وكان

---

(١) قمة بركانية واقعة في إيسلندا (المترجم).

(٢) الخلنج: جنس جُنَيْبة من الفصيلة الخلنجيّة زهرها بنفسجي ويعيش خاصة في الأرض الرَّملية (المترجم).

(٣) حراز الصخر: نبات يَعْلو الصّخور (المترجم)

يُرى منه. مثل قصرٍ داكنٍ يعلو مساحات الحزاز[١] وحراز الصخر، فوق مراعي الغنم والقرى، ويطل على كلّ البلاد.

كان جون قد وضع دراجته عند التلة الرطبة. اليوم، هو اليوم الأول الذي كان يخرج فيه على دراجته، مجاهداً ضّد الريح، على مسار المنحدر الواصل إلى سفح الجبل، مما جعله يلهث، واحمّرتْ وجنتاه وأذناه.

قد يكون النور هو الذي منحه الرغبة في الذهاب إلى ريداربامير. خلال أشهر الشتاء، حين تنزلق الغيوم على مستوى الأرض راميةً الخشف[٢]، كان الجبل يبدو بعيداً، صعب المنال. في بعض الأحيان، يكون محاطاً بوميضٍ، كامل الزرقة في السماء السوداء، فيخاف سكان الوادي. إلا أن جون لم يكن يخاف منه، كان ينظر إليه، كما لو أن الجبل بدوره ينظر إليه أيضاً، من عمق الغيوم، فوق السهب الرمادية الكبيرة.

قد يكون نور شهر حزيران هو الذي قاده اليوم إلى الجبل. كان النور جميلاً ولطيفاً، رغم برودة الريح. في أثناء سيره على الحزاز الندي، كان جون يرى الحشرات التي تتحرك في النور، والنواميس الصغيرة، والذباب الصغير الطائر فوق النباتات. كان النحل البري يجول بين الأزهار البيضاء، وفي السماء، تخفق الطيور المشيقة أجنحتها بحركاتٍ سريعة جداً، معلقةً فوق برك الماء، ثم تختفي فجأة في الريح. كانت هي الكائنات الحية الوحيدة.

توقف جون ينصت إلى صوت الريح. كانت موسيقا غريبة وجميلة في تجاويف الأرض وعلى أغصان الشجيرات. كان هناك أيضاً أصوات الطيور المختبئة في الحزاز؛ والتي تعلوُ زقزقتها الحادة جداً في الريح، ثم تختنق.

---

(١) الحزاز: نباتات لها سوق وورق وليس لها جذور حقيقية (المترجم).

(٢) الخشف: نوع من حبات البرد البيضاء الناعمة والصلبة التي تهطل خاصة في فصل الربيع(المترجم).

كان النور الجميل لشهر حزيران ينير الجبل جيداً. كلّما اقترب جون، أدرك أنه أقلّ انتظاماً مما كان يبدو عليه، من بعيد، كان يبرز من كتلة السهل البازلتي مثل منزلٍ كبيرٍ متهدمٍ. جوانب عالية جداً، وأخرى مكسورة في منتصفها، وصدوعٌ سوداء تقسّم جدرانه كما لو أنها آثار طعنات. في سفحِ الجبل كان جدول ماء يجري.

لم يكن جون قد شاهد قط شيئاً شبيهاً. جدولٌ شفافٌ، بلون السماء، ينساب ببطءٍ، متعرجاً عبر نباتات الحزاز الخضراء. اقترب جون بهدوء، جاساً الأرض بطرف قدمه كي لا يغوص في بركةٍ ما، وجثا على حافة الجدول.

كان الماء الأزرق يجري خاراً، صقيلاً وصافياً مثل الزجاج. قاع الجدول مغطى بحصيات صغيرة، أدخل جون ذراعه ليلتقط إحداها. كان الماء بارداً وأكثر عمقاً مما تصور، مما حتّم أن يمّد ذراعه حتى الإبط. أمسكت أصابعه حصاة واحدة بيضاء، شفيفة بعض الشيء، على شكل قلب.

فجأة، ومرةً أخرى، شعر جون بأحدٍ ما ينظر إليه. وقف مرتعشاً، وكمّ سترته مبللٌ بالماء البارد. استدار ونظر حوله، إلى أبعد ما يستطيع النظر إليه، لم يكن هناك سوى الوادي الذي يهبط بانحدارٍ خفيف، والسهل الكبير للحزاز وحراز الصخر حيث تعبر الريح. حتى إنه لم يعد هناك طيور الآن.

لمح جون البقعة الحمراء لدراجته الجديدة بجانب حزاز التلة أسفل المنحدر تماماً، مما جعله يطمئن.

لم يكن ما وصل تماماً نظرةٌ، عند انحنائه على ماء الجدول. كان أيضاً مثل صوتٍ لفظ اسمه، على نحوٍ خافت جداً، داخل أذنه، صوتٌ خفيفٌ وعذب لا يشبه شيئاً معروفاً. أو مثل موجة، أحاطته كالنور، وجعلته يختلج، مثل غيمةٍ تنشق مُظهرةً الشمس.

مشى جون برهةً بمحاذاة الجدول باحثاً عن مخاضة ما. وجدها في الأعلى، عند خروج الجدول من منعطف، فعبرها. كان الماء يجري فوق الحصى المسطحة للمخاضة، فيما انسابت خصل من الحزاز الأخضر نُزعت من الحواف، منزلقةً دون صوت. قبل أن يتابع سيره، جثا جون من جديد عند حافة الجدول وشرب عدة جرعات من الماء الجميل البارد.

كانت الغيوم تتباعد، ثم تتكاثف مرة أخرى، والنور يتغير دون توقف. كان نوراً غريباً، إذ بدا كما لو أنه لم يكن صادراً عن الشمس، يتموج في الهواء، حول جدران الجبل. كان نوراً بطيئاً جداً، وقد فهم جون أنه سيستمر أشهراً أخرى، دون أن يضعف، يوماً بعد يوم، ودون أن يترك مكاناً لليل. لقد وُلد لتوه، خارجاً من الأرض، مُنيراً في السماء بين الغيوم، كما لو أنه ينبغي أن يعيش للأبد. شعر جون بأنه كان ينسّل فيه عبر كلّ بشرة جسده ووجهه، كان يحرق ويخترق المسامات مثل سائلٍ حار، مُشبعاً ملابسه وشعره. فجأة شعر برغبةٍ في التعري. اختار مكاناً يشكل فيه حقل الحزاز حوضاً محمياً من الريح، ونزع سريعاً كلّ ملابسه، ثم تدحرج على الأرض الرطبة، يفرك ساقيه وذراعيه في الحزاز. كانت الخصل المرنة تصرّ تحت ثقل جسده، تغطيّه بقطرات باردة. ظلّ جون ساكناً، مستلقياً على ظهره، ذراعاه متباعدتان، ناظراً إلى السماء ومنصتاً إلى الريح. في تلك اللحظة، انشقت الغيوم، فوق ريداراميرِ، وأحرقت الشمس وجه جون وصدره وبطنه.

ارتدى جون ملابسه متابعاً سيره نحو جدار الجبل. كان وجهه حاراً وأذناه تدويان، كما لو أنه احتسى البيرة. كان الحزاز المرن يجعل قدميه تقفزان، وكان من الصعب قليلاً السير على نحوٍ مستقيم. عند انتهاء حقل الحزاز، شرع جون بتسلق خاصرة الجبل. أصبحت الأرض غير منتظمة، مكونة من كتل بازلت داكنة ودروب حصى الخفان الذي يصرّ ويتفتت تحت نعليه.

ارتفع أمامه جدار الجبل عالياً جداً بحيث إن القمة لم تكن تُرى. لم تكن هناك وسيلةٌ للصعود في ذلك المكان. التف جون حول الجدار، وصعد نحو الشمال، بحثاً عن ممر. وجده فجأة، وبدفقةٍ واحدة ضربته هبات الريح التي حمته منها حتى تلك اللحظة الجدران، فجعلته يترنح إلى الوراء. كان أمامه شقٌ واسع يشق الصخرة السوداء، يشّكل ما يشبه باباً ضخماً، دخله جون.

بين جدران الشق، كانت كتلٌ بازلتية كبيرةٌ قد تساقطت على نحوٍ غير منتظم، وكان ينبغي الصعود ببطءٍ، بمساعدة كلّ حزٍ، وكلّ شقٍ. تسلق جون الكتل واحدة وراء أخرى، دون التقاط أنفاسه. كان هناك شيء من العجلة داخله، فقد أراد الوصول إلى أعلى الشق بأسرع ما يمكن. كاد يقع على ظهره عدة مرات، لأن الكتل الحجرية كانت مغطاة بالندى وحراز الصخر. كان جون يتشبث بيديه، وفي لحظةٍ ما، كُسر ظفر سبابته دون أن يشعر بشيء. رغم برودة الظلّ، تابعت الحرارة الدوران في دمه.

استدار في أعلى الشق، كان وادي الحمم والحزاز يمتد على مدّ النظر، والسماء واسعة تجري فيها غيومٌ رمادية. لم يرَ جون قط شيئاً بهذا الجمال. كما لو أن الأرض قد أصبحت بعيدةً وخالية، دون ناس، دون بهائم، دون شجر، كبيرة ومنعزلة مثل محيط. في بعض الأماكن، فوق الوادي، كانت غيمة تمطر، فرأى جون خيوط المطر المائلة وهالات النور.

نظر جون إلى الأرض المنبسطة دون أن يتحرك، وظهره مستندٌ إلى جدار حجري. بحث بعينيه عن البقعة الحمراء لدراجته، وشكل بيت والده، في الطرف الآخر من الوادي. إلا أنه لم يستطع رؤيتهما. اختفى كلّ ما كان يعرفه، كما لو أن الحزاز الأخضر صعد وغطى كلّ شيء. كان الجدول يلمع وحده، أسفل الجبل مثل ثعبان طويل لازوردي. إلا أنه اختفى هو أيضاً، في البعيد، كما لو أنه كان يجري داخل مغارة.

فجأة، نظر جون محدقاً إلى الشق الداكن تحته، وارتعش، لم يدرك ذلك أثناء تسلقه الكتل، كانت كلّ قطعة بازلت تشكل درجة من درجٍ ضخم.

حينها، مرةً أخرى، شعر جون بالنظرةِ الغريبة التي كانت تحيط به. كان الحضور المجهول يثقل رأسه وكتفيه وكلّ جسده، نظرةٌ داكنة وقوية تغطي كلّ الأرض. رفع جون الرأس. كانت فوقه السماء ممتلئة بنورٍ باهر يلمع من أفقٍ لآخر ببريق واحد. أغلق جون عينيه كما لو أنه أمام البرق. ثم تجمعت من جديد الغيوم الواسعة المنخفضة الشبيهة بالدخان، مغطية الأرض بالظل. ظلّ جون مغلقاً عينيه زمناً طويلاً، كي لا يشعر بالدوار. أنصت إلى صوت الريح التي كانت تنساب على الصخور الملساء، إلا أن الصوت الغريب العذب لم يلفظ اسمه، كان يهمهم فقط، على نحو مبهمٍ في موسيقا الريح.

هل هي الريح؟ كان جون يسمع أصواتاً مجهولةً، أصوات همهمة نساء، خفقان أجنحة، هدير أمواج. أحياناً، كان يصعد من عمق الوادي أزيز نحل غريب، دوي محركات. كانت الأصوات تختلط، يرن صداها على حواف الجبل، وتنساب مثل ماء ينابيع، تختفي بين حراز الصخر والرمال.

فتح جون عينيه، تشبثت يداه بجدار صخري. كان وجهه مبللاً بقليلٍ من العرق، رغم البرد. كما لو أنه كان الآن على مركب من الحمم ينعطف ببطءٍ ملامساً الغيوم. كان الجبل الكبير ينساب على الأرض برقة، فيما كان جون يشعر بحركة التأرجح. في السماء، كانت الغيوم تمتد هاربةً مثل أمواج ضخمة، تبعث وميض النور.

استمر ذلك وقتاً طويلاً، طويل بقدر زمن السفر إلى جزيرة. ثم شعر جون بالنظرة التي كانت تبتعد عنه، نزع أصابعه عن جدار الصخرة. كانت قمة الجبل تظهر فوقه بجلاء، هضبةٌ كبيرة من الحجر الأسود، نُفخت مثل بالون، ملساء لامعة في نور السماء.

كانت تدفقات الحمم والبازلت تُشكلّ منحدراً خفيفاً على جوانب القمة، ومن هذا المكان، اختار جون متابعة صعوده. كان يصعد بخطواتٍ صغيرة، بتعرجٍ مثل معزاة، الجذع منحن إلى الأمام. أصبحت الريح طليقة الآن، كانت تضربه بعنفٍ، تصفقُ ملابسه. كان جون يشّد شفتيه، فيما عيناه غشاهما الدمع، لكنه لم

يكن خائفاً، ولم يعد يشعر بالدوار. لم تعد النظرة المجهولة تثقل عليه الآن. على نقيض ذلك، كانت تسند جسده، وتدفعه إلى الأعلى بكلّ نورها.

لم يكن جون قد شعر مطلقاً بمثل هذا الشعور بالقوة. كان يمشي إلى جانبه أحدٌ ما يحبه، بذات الخطا، يتنفس بذات التواتر. كانت النظرة المجهولة تسحبه إلى أعلى الصخور، تساعده على التسلق. أحدٌ ما قادم من أعماق حلم، فيما كانت قوته تزداد بلا توقف، وتتضخم مثل غيمة. كان جون يضع قدميه على ألواح الحمم، تماماً حيث يجب، ربما لأنه كان يتعقب أثاراً غير مرئية. كانت الريح الباردة تجعله يلهث وتشوش رؤيته، إلا أنه لم يكن محتاجاً للرؤية. كان جسده يتوجه وحده ويرتفع متراً وراء متر على منحنى الجبل.

كان وحيداً وسط السماء، الآن، لم تعد حوله أرض، ولا أفق، فقط الهواء والنور والغيوم الرمادية. كان جون يتقدم بنشوةٍ نحو أعلى الجبل، وأصبحت حركاته بطيئة مثل حركات سبّاح. كانت يداه تلمسان أحياناً البلاطة الملساء والباردة، وبطنه يحتك بها، ويشعر بالحواف الحادة للصدوع وآثار عروق الحمم. كان النور ينفخ الصخر، ينفخ السماء، يكبر أيضاً في جسده، يتموج في دمه. كانت موسيقا صوت الريح تملأ أذنيه، يرن صداها في فمه. لم يكن جون يفكر بشيء، ولا ينظر إلى شيء. كان يصعد دفعةً واحدة، كلّ جسده يصعد، دون توقف، إلى قمة الجبل.

وصل شيئاً فشيئاً. أصبح منحدر البازلت أقل حدة، أكثر طولاً، كان جون الآن مثلما كان في الوادي، عند سفح الجبل، لكنه واد حجري، جميلٌ وواسع، يمتد في منحنى طويل إلى حيث تبدأ الغيوم.

كانت الريح والمطر قد حتّا الحجر، صقلاه كرحى. في بعض الأماكن كان يلمع كريستال أحمر قانٍ، وأخاديد خضراء وزرقاء، وبقع صفراء تبدو متموجة في النور. في الأعلى، كان الوادي الحجري يختفي في الغيوم، تنساب فوقه جّارةً وراءها خيوطاً وفتائل، وحين كانت تذوب كان جون يرى من جديد الخط النقي للمنحنى الصخري.

بعد ذلك، صار جون على قمة الجبل تماماً. لم يدرك ذلك مباشرة، فقد جرى ذلك شيئاً فشيئاً. لكن حين نظر حوله، رأى هذه الدائرة السوداء الكبيرة التي كان هو مركزها، وفهم بأنه قد وصل. كانت قمة الجبل هي هضبة الحمم التي تلامس السماء. هنا، كانت الريح تهبّ، لا على شكل هبات، ولكن على نحو مستمرٍ وقوي، حادة على الحجر مثل شفرة. قام جون بعدة خطوات متمايلاً، كان قلبه يخفق في صدره بشدة، يدفع دمه إلى صدغيه وإلى عنقه. اختنق لبرهة لأن الريح كانت تضغط على منخريه وعلى شفتيه.

بحث جون عن ملجأ، فقد كانت قمة الجبل جرداء، دون عشب، ودون تجويف. كانت الحمم تلمع بقساوة مثل إسفلت، مشروخة في بعض الأماكن، حيث حفر المطر مزاريبه. كانت الريح تقتلع قليلاً من الغبار الرمادي الهارب من التصلب، على شكل أعمدة دخانية قصيرة.

هنا، كان النور يسود. كان قد ناداه وهو يسير عند سفح الجبل، ومن أجل ذلك ترك دراجته مقلوبة عند تلة الحزاز، على طرف الدرب. كان نور السماء يبرق هنا، طليقاً تماماً. ينبجس من الفضاء دون توقف ويضرب الصخر، ومن ثم يرتد إلى الغيوم. اخترقت الحممُ السوداء بهذا النور الثقيل والعميق مثل البحر في الصيف، نورٌ دون حرارة، قادمٌ من أبعد مكان في الفضاء، نور كلّ الشموس وكلّ النجوم غير المرئية، يعيد إشعالَ الجمرات القديمة، ويعيدُ ولادة النيران التي احترقت على الأرض قبل ملايين السنين. كان اللهب يضيء بين الحمم، داخل الجبل، يلمعُ تحت هبة الريح الباردة. كان جون يرى أمامه الآن، تحت الصخور القاسية، كلّ السوائل الغامضة التي تتحرك. كانت العروق الحمراء تزحف، مثل ثعابين من النار، وتلمع الفقاعات البطيئة المتخثرة وسط الحمم مثل الأجزاء المضيئة لأجسام الحيوانات البحرية.

توقفت الريح فجأة، مثل نفسٍ يُحبس. وبهذا استطاع جون أن يسير نحو وسط هضبة الحمم. توقف أمام ثلاث علامات غريبة، كانت ثلاثة أحواض

محفورة في الحجر، أحدها مملوءٌ بماء المطر، فيما احتوى الآخران على الحزاز وجنبة نحيفة. تبعثرت حول الأحواض أحجارٌ سوداء، ورماد الحمم الحمراء الجارية في الأخاديد.

كانت الملجأ الوحيد. جلس جون على حافة حوض الجنبة. هنا، بدت الريح وكأنها لا تهبّ بقوة البتة. كانت حممٌ ناعمة ملساء فترت بنور السماء. استند جون إلى الخلف على كوعيه، وأخذ ينظر إلى الغيوم.

لم يكن قد رأى الغيوم بهذا القرب قط. كان جون يحب الغيوم. في الأسفل، في الوادي، غالباً ما كان ينظر إليها، مستلقياً على ظهره خلف جدار المزرعة، أو مختبئاً في خليج البحيرة الصغير، كان يظلّ وقتاً طويلاً، رأسه مقلوباً إلى الخلف، حتى يشعر أن أوتار رقبته قد شُدت مثل الحبال. لكن هنا، في قمة الجبل، لم يكن المشهد مماثلاً. كانت الغيوم تصل بسرعة، على مستوى هضبة الحمم، فاتحةً أجنحتها الضخمة، تبتلع الهواء والحجر، دون صوتٍ، دون جهد، ناشرةً أغشيتها على نحو واسع جداً. حين كانت تعبر قمة الجبل، كان كل شيء يصبح أبيضَ ومتألقاً، ويتغطى الحجر الأسود باللآلئ. كانت الغيوم تعبر دون ظلّ. بل، كان النور يلمع بقوةٍ أشد، يكسو كلّ شيء بلون الثلج والزبد. كان جون ينظر إلى يديّه البيضاء، وأظافره الشبيهة بقطعٍ معدنية. قلب رأسه وفتح فمه ليشرب القطرات الناعمة المختلطة بالنور البّراق. كانت عيناه الواسعتان المفتوحتان تنظران إلى وميض الفضة الذي يملأ الفضاء. حينها، لم يعد هناك جبل، ولا وديان حزاز، ولا قرى، لم يعد هناك شيء، أي شيء، ماعدا جسد الغيمة الهارب نحو الجنوب، والذي يسّد كلّ ثقبٍ، كلّ أخدود. كان البخار العذب يدور طويلاً فوق قمة الجبل، يُعمي العالم، ثم وبسرعة، كما جاءت، كانت السحابة تغادر، وتجري نحو الطرف الآخر للسماء.

كان جون سعيداً بوصوله إلى هنا، قرب الغيوم. كان يحب بلادها، العالية جداً والبعيدة جداً عن الأودية وطرق البشر. كانت السماء تتشكل وتتفكك دون توقف، حول دائرة الحمم، وكان ضوء الشمس الوامض يتحرك مثل حزم أنوار المنارات. ربما حقاً لم يكن هناك شيءٌ آخر. ربما يتحرك كلّ شيء الآن دون توقف، مدخناً، زوابع كبيرة، عُقَد، أشرعة، أجنحة، أنهرٌ شاحبة. كانت الحمم السوداء تنزلق أيضاً، تنتشر وتسيل إلى الأسفل، الحمم الباردة البطيئة جداً التي كانت تفيض من شفاه البركان.

حين كانت الغيوم ترحل، كان جون ينظر إلى ظهورها المستديرة الراكضة في السماء. حينها، كان المحيط الهوائي يعود للظهور، بزرقةٍ شديدة، يتموج بضوء الشمس، فيما كانت كتل الحمم تتصلّب من جديد.

استلقى جون على بطنه ولمس الحمم. فجأة، رأى حصاة غريبة، على حافة الحوض المملوء بماء المطر. اقترب على أطرافه الأربعة، لتفحصها. كانت كتلةً من الحمم السوداء، انفصلت دون شك عن كتلتها بسبب الحت. أراد جون أن يقلبها، إلا أنه لم يستطع. كانت ملتحمةً بالأرض بسبب ثقلٍ ضخم غير متناسب مع حجمها.

حينئذٍ، شعر جون بذات الرعشة التي أصابته قبل قليل حين كان يصعد كتل الوهد. فقد كان للحجر شكل الجبل تماماً. لم يكن هناك أي شك ممكن: إنها ذات القاعدة العريضة، بارزة التقاطيع، وذات القمة نصف كروية. مال جون مقترباً أكثر، وميّز بوضوح الشق الذي صعد من خلاله. شكلّ ذلك على الحصاة مجرد صدعٍ، لكنه مسنن مثل درجات الدرج الضخم الذي تسلقه.

قرّب جون وجهه من الحجر الأسود، إلى أن اضطربت رؤيته. كانت كتلة الحمم تكبر، وتملأ كلّ نظرته وتنتشر حوله. كان جون يشعر شيئاً فشيئاً أنه يفقد جسده، وثقله. كان يطفو الآن، نائماً على الظهر الرمادي للغيوم،

يجتازه النور من طرفٍ لآخر، ويرى تحته ألواح الحمم الكبيرة اللامعة بالماء والشمس، وبقع حراز الصخر الذابل، والبحيرات المستديرة الزرقاء. ببطء، كان ينساب فوق الأرض، بما أنه أصبح شبيهاً بغيمة، خفيفة متبّدلة الشكل. كان دخاناً رمادياً، بخار ماء يتعلق بالصخور تاركاً قطراته الناعمة.

لم يعد نظر جون يترك الحجر. كان سعيداً بذلك، كان يمسح مطولاً السطح الأملس براحتيه المفتوحتين. كان الحجر يتموج تحت أصابعه مثل بشرة. كان يشعر بكلّ نتوء، بكلّ شق، وبكل علامة صقلها الزمن، فيما كانت حرارة النور العذبة تشكل بساطاً خفيفاً، شبيهاً بالغبار.

توقفت نظرته عند رأس الحصاة. هنا، على السطح المستدير واللامع، رأى ثلاثة ثقوب صغيرة جداً. كانت لرؤية المكان نفسه الذي هو فيه نشوةٌ غريبة. رأى جون بانتباه مؤلم آثار الأحواض، لكنه لم يستطع رؤية الحشرة السوداء الغريبة الساكنة فوق قمة الحجر.

ظلّ طويلاً ينظر إلى كتلة الحمم. بنظرته، كان يشعر بأنه يهرب شيئاً فشيئاً من نفسه. لم يكن يفقد وعيه، غير أن جسده تخدر ببطء. صارت يداه باردتين، مبسوطتين على كلّ جانب من الجبل. استند رأسه، وذقنه على الحجر، فيما عيناه ثابتتين.

أثناء ذلك الوقت، كانت السماء حول الجبل تتفكك وتعيد تشكلها. كانت الغيوم تنساب على هضبة الحمم، والقطيرات تسيل على وجه جون، وتتعّلق بشعره. كانت الشمس تسطع أحياناً بأشعةٍ كبيرة حارقة، وتدور هبات الريح حول الجبل طويلاً، تارة في اتجاه، وتارة في آخر.

ثم سمع جون خفقات قلبه، لكن بعيداً داخل الأرض، بعيداً، حتى عمق الحمم، حتى شرايين النار، حتى قواعد الجبال الجليدية. كانت الخفقات تزعزع الجبل، تهتز في عروق الحمم، وفي الصخور الكلسية، وعلى البازلت. كان صداها يرّن في عمق الكهوف والشقوق. ولا بد أن الصوت المتناوب كان يجوب وديان الحزاز، حتى بيوت البشر.

«دوم- دوم، دوم- دوم، دوم- دوم، دوم- دوم، دوم- دوم، دوم- دوم»

كان الصوت الثقيل الذي يقود نحو عالم آخر، مثل يوم الولادة، فيما كان جون يرى أمامه الحجر الأسود الكبير الذي يخفق في النور. مع كل نبضة، كان جلاء السماء يضطرب، يزداد بدفقة وميض. كانت الغيوم تتمدد، وتنتفخ بالكهرباء، متألقة مثل تلك التي تنساب حول البدر.

التقط جون صوتاً آخر، صوت بحر عميق، يحتك بثقل، صوت بخار ينتشر، كان ذلك أيضا يقوده إلى أبعد. كان من الصعب مقاومة النعاس. تنبثق أصوات أخرى دون توقف، أصواتٌ جديدة، ارتجاج محركات، صرخات طيور، صرير رافعات، رجفان سوائل تغلي.

كانت كلّ الأصوات تُولد، تجيء، تبتعد، تعود ثانية، كان ذلك يكوّن موسيقا تحمل إلى البعيد. لم يعد جون يقوم بأي جهد للعودة، إلى الحاضر. كان ساكناً تماماً، يشعر بأنه ينزل إلى مكانٍ ما، ربما نحو قمة الحصاة السوداء، على حافة الثقوب الصغيرة جداً.

حين فتح عينيه من جديد، رأى في الحال الطفل ذا الوجه المضيء الواقف على سطح الحمم، أمام حوض الماء. كان النور كثيفاً حول الطفل، بما أنه لم تعد هناك غيوم في السماء.

«جون»، نادى الطفل. كان صوته ناعماً وهشاً، إلا أن وجهه المضيء كان يبتسم.

«كيف تعرف اسمي؟» سأل جون.

لم يجب الطفل، ظلّ ثابتاً على حافة حوض الماء، ملتفتاً إلى الجانب قليلاً كأنه كان مستعداً للهرب.

«وأنت، ما اسمك؟» سأل جون. «لا أعرفك.» لم يكن يتحرك كي لا يخيف الطفل.

«لماذا جئت؟ لا يجيء أحد مطلقاً إلى الجبل.»

«كنت أريد رؤية المشهد من هنا»، قال جون. «كنت أحسب أن كل شيء يُرى من العلو الشاهق، مثل الطيور»

تردد قليلاً، ثم قال:

«أتسكن هنا؟»

تابع الطفل الابتسام، كان النور المحيط به يبدو صادراً من عينيه ومن شعره.

«هل أنت راعٍ؟ إنك تلبس مثل الرعاة.»

«أعيش هنا»، قال الطفل. «كلّ ما تراه هنا لي.»

نظر جون إلى اتساع الحمم والسماء.

«أنت مخطئ، إنه ليس ملك أحد»، قال.

قام جون بحركة كي يقف. إلا أن الطفل قام بقفزة إلى الجانب، كما لو أنه كان سيغادر.

«لن أتحرك»، قال جون ليطمئنه. «ابق، لن أنهض.»

«لا ينبغي لك أن تنهض الآن»، قال الطفل.

«إذاً تعال واجلس بجانبي.»

تردد الطفل. كان ينظر إلى جون كما لو أنه يريد أن يخمن بماذا يفكر، ثم اقترب وجلس متربعاً إلى جانب جون.

«لم تجبني. ما اسمك؟» سأل جون.

«ليس مهماً، بما أنك لا تعرفني»، قال الطفل. «أنا لم أسألك عن اسمك.»

«صحيح»، قال جون. لكنه شعر بأنه ينبغي أن يكونَ مندهشاً.

«قلّ لي، إذن، ماذا تفعل هنا؟ أين تسكن؟ لم أر بيتاً أثناء الصعود.»

«كلّ ذلك بيتي» قال الطفل. كانت يداه تتحركان ببطء، بحركاتٍ رشيقة لم يرَ جون مثلها قط.

«هل تعيش حقاً هنا؟» سأل جون. «وأبوك وأمك؟ أين هما؟»

«لا والدين لي.»

«أخوتك؟»

«أعيش وحيداً، قلت لك ذلك لتوي.»

«ألا تخاف. أنت صغير جداً على العيش وحيداً.»

ابتسم الطفل أيضاً.

«لماذا أخاف؟ هل تخاف أنت في بيتك؟»

«لا»، قال جون. كان يفكر بأن الأمر مختلف، إلا أنه لم يجرؤ على قول ذلك.

ظلا صامتين برهةً، ثم قال الطفل:

«منذ زمن طويل أعيش هنا. أعرف كلّ حجرٍ من هذا الجبل أكثر مما تعرف غرفتك. أتعلم لماذا أعيش هنا؟»

«لا»، قال جون.

قال الطفل: «إنها قصةٌ طويلة، منذ زمن طويل، طويل جداً، وصل الكثير من الناس، أقاموا بيوتهم على الضفاف، وفي الأودية، وأصبحت البيوت قرى، والقرى أصبحت مدناً. حتى إن الطيور هربت، حتى إن الأسماك خافت، لذا غادرتُ أنا أيضاً الضفاف والأودية، وجئت إلى هذا الجبل. أنت أيضاً جئت الآن إلى هذا الجبل، وسيأتي بعدك آخرون.»

«تتكلم كما لو أنك عجوزٌ جداً»، قال جون. «مع ذلك، فإنك لست سوى طفل!»

«نعم، إني طفل»، قال الطفل. كان ينظر إلى جون بثبات، كانت نظرته الزرقاء ملأى بنورٍ دفع جون لخفض عينيه.

كان نور شهر حزيران أكثر جمالاً. خطر لجون، بأنه ربما كان يخرج من عيني الراعي الغريب، وينتشر حتى السماء وحتى البحر. فوق الجبل، كانت السماء قد خلت من غيومها، وكان الحجر الأسود ناعماً وفاتراً. لم يعد جون الآن نعساً. كان ينظر بكلّ قوته إلى الطفل الجالس بجانبه، إلا أن الطفل كان ينظر إلى مكان آخر. كان هناك صمت كثيف، دون هبة ريح واحدة.

التفت الطفل من جديد نحو جون.

«هل تعزف الموسيقا؟» سأل. «أحب الموسيقا كثيراً.»

هز جون رأسه، ثم تذكر أنه كان يحمل في جيبه قيثارة صغيرة. أخرجها ليشاهدها الطفل.

«هل تستطيع عزف الموسيقا بهذه؟» سأل الطفل، مد جون له القيثارة وفحصها الطفل برهةً.

«ماذا تريد أن أعزف لك؟» سأل جون.

«ما تعرف عزفه، أي شيء! أحب كلّ الموسيقا.»

وضع جون القيثارة في فمه، وأخذ يهز بسبابته الشفرة المعدنية الصغيرة. عزف لحناً يحبه كثيراً، درومكفادي، لحنٌ قديم كان والده قد علّمه إياه في ما مضى.

كانت أصوات القيثارة الخن يتردد صداها بعيداً في سهل الحمم، فيما كان الطفل يستمع مميلاً الرأس قليلاً إلى الجانب.

«جميل، من فضلك، اعزف من أجلي أيضاً.» قال الطفل حين انتهى جون.

شعر جون بالسعادة، دون أن يفهم السبب، لأن موسيقاه ترضي الراعي الفتيّ.

«أعرف أيضاً عزف مانستي إكي فينا، إنها أغنية أجنبية.» قال جون.

في الوقت الذي كان يعزف فيه، كان يضبط الإيقاع بالقدم على بلاطة الحمم.

كان الطفل منصتاً، فيما كانت عيناه تلمعان برضى.

«أحب موسيقاك، أتعرف عزف موسيقا أخرى؟»، قال أخيراً.

فكر جون.

«يُعيرني أخي أحياناً نايه. لديه ناي جميل، من الفضة، يعيرني إياه أحياناً لأعزف.»

«أحب أيضاً الاستماع إلى هذه الموسيقا.»

«سأحاول استعارة نايه، في المرة القادمة»، قال جون. «ربما قد يود هو أيضاً المجيء، ليعزف الموسيقا لك.»

«أحب ذلك»، قال الطفل.

ثم بدأ جون من جديد العزف على القيثارة. كانت الشفرة المعدنية تهتز في صمت الجبل، كان جون يفكر بأنه ربما كان يُسمع في آخر الوادي، حتى المزرعة. اقترب الطفل منه. كان يحرك يديه على الإيقاع، ورأسه منحنٍ قليلاً. كانت عيناه الفاتحتان تلمعان، بدأ بالضحك حين أصبحت الموسيقا خناء حقاً. لذا أبطأ جون الإيقاع، منشداً علامات طويلة ترتعش في الهواء، فيما كان وجه الصبي يصبح من جديد رصيناً، وتستعيد عيناه لون البحر العميق.

في النهاية، توقف، منهكاً. كانت أسنانه وشفتاه تؤلمانه.

صفق الطفل وقال: «جميل! إنك تعرف عزف موسيقا جميلة!»

«أعرف أيضاً التكلم بالقيثارة»، قال جون.

دُهش الطفل.

«التكلم؟ كيف تستطيع التكلم بهذه الآلة؟»

وضع جون القيثارة في فمه ثانية، وببطء شديد، لفظ بعض الكلام بهز الشفرة المعدنية.

«أفهمت؟»

«لا»، قال الطفل.

«أنصت جيداً.»

بدأ جون من جديد، أكثر بطئاً. أشرق وجه الطفل.

«إنك تقول: يوم سعيد يا صديقي!»

«صحيح».

أوضح جون:

«عندنا، في الأسفل، في الوادي، يتقن جميع الصبية ذلك. عند قدوم الصيف، نذهب إلى الحقول، خلف المزارع، ونتكلم على هذا النحو إلى الفتيات، بقيثاراتنا. حين يجد أحدنا فتاة تعجبه، يذهب خلف بيتها، في المساء، ويكلمها على هذا النحو، كي لا يفهم والداها. تحبّ الفتيات ذلك كثيراً. يضعن رؤوسهن على نوافذهن وينصتن إلى ما يقال لهن، مع الموسيقا.»

أطلع جون الصبي كيف يُقال: «أحبك، أحبك، أحبك»، بمجرد حك الشفرة المعدنية للقيثارة، وتحريك اللسان في فمه.

«إن ذلك سهل»، قال جون. أعطى الآلة للطفل، الذي حاول بدوره التكلم بحك الشفرة المعدنية. لكن ذلك لم يكن يشبه مطلقاً أي كلام، فقهقها معاً ضاحكين.

لم يعد الآن الطفل مرتاباً. أطلعه جون أيضاً على كيفية عزف ألحان موسيقية، فيما دوّى صدى الأصوات الخنّ طويلاً في الجبل.

انخفض النور قليلاً، هبطت الشمس بالقرب من الأفق، في ضبابة حمراء. أضاءت السماء بغرابة، كما لو أن هناك حريقاً ما. نظر جون إلى وجه

رفيقه، وبدا له بأن لونه قد تغيّر. صار لون بشرته وشعره رمادياً مثل الرماد، وأصبح لعينيه لون السماء. كانت الحرارة اللطيفة تنخفض شيئاً فشيئاً. وحلّ البرد مثل ارتعاش. في لحظة ما، أراد جون النهوض للرحيل، إلا أن الطفل وضع يده على ذراعه.

«لا تغادر، أرجوك» قال ببساطة.

«عليّ النزول الآن، أصبح الوقت متأخراً.»

«لا تغادر. سيكون الليل صافياً، تستطيع البقاء حتى صباح الغد.»

تردد جون وقال:

«أمي وأبي ينتظراني في بيتنا».

فكر الطفل وعيناه الرماديتان تلمعان بقوة، وقال.

«أبوك وأمك نائمان، لن يستيقظا قبل صباح الغد. بإمكانك البقاء هنا.»

«كيف تعرف أنهما نائمان؟» سأل جون. لكنه فهم أن الطفل كان يقول الحقيقة. ابتسم الطفل.

«أنت تعرف عزف الموسيقا والكلام بها، أما أنا فأعرف أشياء أخرى.»

أخذ جون يد الطفل وعصرها. لم يكن يعرف لماذا، لكنه لم يشعر مطلقاً بمثل هذه السعادة من قبل.

«علمني أشياء أخرى! إنك تعرف الكثير من الأشياء!» قال.

بدلاً من إجابته، نهض الطفل قافزاً وركض نحو الحوض. أخذ قليلاً من الماء بملء يديه وحملها إلى جون. قرّب يديه من فم جون.

قال «اشرب!».

أطاع جون. سكب الطفل الماء ببطء بين شفتيه. لم يشرب جون مثل هذا الماء قط. كان عذباً بارداً، لكنه كثيف وثقيل أيضاً، وبدا أنه جرى في كلّ جسده مثل ماء نبع. كان ماءاً يطفئ العطش والجوع، يتحرك في العروق مثل النور.

«إنه طيب»، قال جون. «ما هذا الماء؟»

«إنه يجيء من الغيوم»، قال الطفل. «لم يره أحد مطلقاً.»

كان الطفل واقفاً أمامه على بلاطة الحمم.

«تعال سأريك السماء الآن.»

وضع جون يده في يد الطفل وسارا معاً على قمة الجبل. كان الطفل يسير بخفة، متقدماً بعض الشيء، بالكاد تتساب قدماه الحافيتان على الأرض. وهكذا سارا إلى طرف هضبة الحمم، حيث يطلّ الجبل على الأرض مثل رأسٍ بحري.

شاهد جون السماء المفتوحة أمامهما. كانت الشمس قد اختفت تماماً خلف الأفق، إلا أن النور استمر في إنارة الغيوم. في الأسفل، بعيداً جداً، فوق الوادي، كان هناك ظلٌّ خفيف يحجب تضاريس الأرض. لم تعد البحيرة والتلال مرئية، ولم يعد يمكن لجون أن يتعرف على البلاد. غير أن السماء الواسعة كانت ملأى بالنور، فرأى جون كلّ الغيوم، طويلة، ذات لون دخاني، ممتدة في الفضاء الأصفر والزهري. في الأعلى، كانت الزرقة قد بدأت، زرقةٌ عميقة وداكنة تموج بالنور أيضاً، لمحَ جون النقطة البيضاء لكوكب الزهرة، التي كانت تلمعُ وحيدةً مثل منارة.

جلسا على حافة الجبل ينظران إلى السماء. لم تكن هناك أية هبة ريح، أي صوت، أية حركة. شعر جون بأن الفضاء يدخل فيه وينفخ جسده، كما لو أنه كان يحبّس نفسه. لم يكن الطفل يتكلم. كان ساكناً، وجذعه مستقيم، ورأسه إلى الخلف قليلاً، ينظر إلى عمق السماء.

أضاءت النجوم واحدةً وراء الأخرى، مصدرةً أشعتها الثمانية الحادة. شعر جون من جديد بالخفقان المنتظم في صدره وفي شرايين عنقه، بما أنها كانت قادمة من عمق السماء عبره ويتردد صداها في كل الجبل. كان نور

النهار يخفق أيضاً، تماماً قرب الأفق، مجيباً خفقان السماء الليلية. كان اللونان يتحدان في السمت، الداكن العميق، والفاتح الحار، ويتحركان معاً بالحركة المتأرجحة ذاتها.

عاد جون إلى الوراء فوق الحجر، واستلقى على ظهره، وعيناه مفتوحتان. الآن، كان يستمع إلى الضجيج بوضوح، الضجيج الكبير الآتي من كل زوايا الفضاء ويتجمع فوقه. لم يكن كلاماً، ولا موسيقا، مع ذلك كان يبدو له أنه يفهم ماذا يريد ذلك أن يقول، مثل الكلمات، مثل مقاطع غنائية. كان يسمع البحر والسماء والشمس والوادي الذين كانوا يصرخون مثل حيوانات. كان يسمع الأصوات الثقيلة السجينة في درك الأعماق، والهمهمة المختبئة في عمق الآبار وفي عمق الشقوق. من مكانٍ ما من الشمال، جاء الصوت المتتابع والناعم للجبال الجليدية، القشعريرة التي تتقدم وتصرّ فوق الهضبة الصخرية. كان البخار يندفع من مناجم الكبريت، مطلقاً صرخاتٍ حادة، فيما كانت الأشعة العالية للشمس تشخر مثل مصاهر الحديد. في كل مكان، كان الماء يجري، والطين يتشظى غشاوةً من الفقاعات، والبذور الصلبة تنشق وتنتش تحت الأرض. كانت هناك اهتزازات الجذور، جريان النسغ في جذوع الأشجار، قطرةً فقطرة، والشدو الريحي للأعشاب الباترة. ثم كانت هناك أصواتٌ أخرى تأتي أيضاً، يعرفها جون على نحو أفضل، محركات الشاحنات والمضخات، صَلصلة السلاسل المعدنية، المناشير الكهربائية، طرَقاتُ المكابس، صفير السفن. كانت طائرة تشق الجو بمحركاتها الارتكاسية الأربع، بعيداً فوق المحيط. كان صوت رجل يتكلم، في مكان ما من صالة مدرسية، لكن هل هو حقاً رجل؟ بالأحرى، كان غناء حشرة يتحول إلى أزيز حاد، أو إلى قرقرة، أو يتجزأ إلى صفير صارّ. كانت أجنحة طيور البحر تخر فوق الجروف، وكانت النوارس وطيور الغويلاند[١] تصأى. كانت كل الأصوات

(١) جنس طير طويل الريش يطير فوق البحار شبيه بالنوارس (المترجم).

تحمل جون، كان جسده يطفو فوق بلاطة الحمم، ينزلق كما لو أنه على طوف من الحزاز، يدور في الدوامات اللا مرئية، فيما كانت النجوم تشع بلمعانها الثابت في السماء، على حدود الليل والنهار.

ظل جون طويلاً على هذا النحو، على ظهره، ينظر وينصت، ثم ما لبثت الأصوات أن ابتعدت وخفتت، واحداً وراء الآخر. وأصبح خفقان قلبه أكثر هدوءاً، وأكثر انتظاماً، فيما انحجب النور بغطاء رمادي.

التفت جون إلى الجنب ونظر إلى رفيقه. كان الطفل نائماً متكوراً على البلاطة السوداء، ورأسه مستند على ذراعيه. كان صدره يرتفع ببطء، ففهم جون بأنه قد نام، لذا أغلق عينيه هو أيضاً، منتظراً نعاسه.

استيقظ جون عند ظهور الشمس فوق الأفق. جلس ونظر حوله، دون أن يفهم. لم يعد الطفل هنا. لم يكن هناك سوى امتداد الحمم السوداء، والوادي على مدّ النظر، حيث بدأت أولى الظلال بالارتسام. كانت الريح تهب من جديد، تكنس الفضاء. نهض جون، وبحث عن رفيقه. اتبع منحدر الحمم حتى الأحواض. كانت المياه في حوض المياه بلونٍ معدني، متغضنة بهبات الريح. في حوضه المغطى بالحزاز وحراز الصخر، وكانت الشجيرة الجافة تهتز وترتجف. على البلاطة، لا زالت الحصاة ذات شكل الجبل في ذات المكان. ظل جون واقفاً لبرهة في قمة الجبل، ونادى عدة مرات، لكن حتى الصدى لم يرد:

«أوهه»

«أوهه»

حين فهم أنه لن يجد صديقه، شعر جون بوحدة جعلته يشعر بالألم وسط جسده، مثل وجع الخاصرة. بدأ بنزول الجبل، بأسرع ما يستطيع، قافزاً فوق الصخور. بعجلة، بحث عن الشق حيث كان يوجد الدرج الضخم. انزلق على

الحجارة الكبيرة المبللة، ونزل نحو الوادي، دون أن يلتفت. كان النور الجميل يكبر في السماء، وكان النهار قد حلّ عند وصوله إلى الأسفل.

ثم بدأ بالركض على الحزاز وقدماه تقفزان وتدفعانه إلى الأمام بسرعة أكبر. اجتاز بقفزة الجدول سماوي اللون، دون أن ينظر إلى أطواف الحزاز التي كانت تنزل ملتفة في الدوامات. ليس بعيداً، رأى قطيعاً من الأغنام الذي فرّ بثغائه، وفهم بأنه الآن من جديد في أرض البشر. قرب الدرب الترابي، كانت دراجته الجميلة الجديدة بانتظاره، مقودها الكرومي مغطى بقطرات الماء. امتطى جون دراجته، وابتدأ بالسير على الدرب الترابي ودائماً إلى الأسفل. في أثناء سيره عبر الطريق الترابي بدراجته لم يكن يفكر، ولم يكن يشعر إلا بالخواء وبالوحدة دون حدود. عند وصوله إلى المزرعة، وضع جون دراجته على الحائط، ودخل دون صوت كي لا يوقظ أباه وأمه اللذين كانا لا يزالان نائمين.

عجلة الماء

لم تشرق الشمس على النهر بعد. ينظرُ جوبا من باب المنزل الضيق إلى المياه الراكدة التي بدأت باللمعان، في الجهة الأخرى من الحقول الرمادية. يعتدل في فراشه، ويرمي الغطاء الذي يلفه. يصيبه هواء الصباح البارد بالارتعاش. في المنزل المعتم، تلتفُ أشكالٌ أخرى بالأغطية، أجسادٌ أخرى نائمة. يتعرف جوبا على أبيه، وفي الجهة الأخرى للباب على أخيه، وفي آخر الغرفة تماماً على أمه وأختيه متراصات تحت غطاءٍ واحد. ينبح أحد الكلاب نباحاً طويلاً، في مكان ما، بصوتٍ غريب، يعلو ثم يختنق. غير أنه لم يكن هناك ضجيج كثير، سواءٌ على الأرضِ أم في النهر، لأن الشمسَ لم تشرق بعد. الليلُ رماديٌ وبارد، يحملُ هواءَ الجبال والصحراء والنور الشاحبِ للقمر.

ينظر جوبا إلى الليلِ مرتعشاً، دون أن يتحرك من فراشه. تصعدُ برودةُ الأرضِ عبرَ حصيرةِ القصب، فيما قطراتُ الندى تتشّكل على الغبار. في الخارج، تلمعُ الأعشاب لمعاناً خفيفاً، مثل شفرات مبللة. أشجار الأكاسيا الطويلة والنحيفة سوداءٌ وساكنة في الأرض المتشققة.

ينهضُ جوبا دون صوتٍ. يطوي الغطاءَ ويلفُّ الحصيرة، ثم يمشى على الدرب الذي يجتازُ الحقول الخالية. ينظرُ إلى السماء، من جهة الشرق، ويعرفُ أن النهار سيظهرُ قريباً. يشعرُ بقدوم النور في عمق جسده، كذلك تعرف الأرض، أرض الحقول المحروثة، والأرض المغبرة بين أدغال الأشواك وجذوع الأكاسيا. يجيء شيءٌ عبر السماء، مثل القلق، مثل الشّك،

يطوفُ في ماء النهر البطيء، وينتشرُ على سطحِ الأرض. ترتجفُ بيوت العنكبوت، وتهتز الأعشاب، ويطيرُ الذبابُ الصغيرُ فوق البرك. غير أن السماء خالية، لأنه لم يعد هناك خفافيش، فيما لم تأتِ الطيور بعد. الدرب يابسةً تحت قدمي جوبا العاريتين. يسري الاهتزاز البعيد في ذات الوقت الذي يسيرُ فيه، وتبدأُ الجرادات الرمادية الكبيرة بالقفز وسطَ الأعشاب. فيما يبتعدُ جوبا عن المنزل، تنجلي السماء ببطءٍ في أسفل النهر. ينخفضُ الضبابُ بين الضفافِ بالسرعة التي يسيرُ فيها طوفٌ، ساحباً أغشيته البيضاء.

يتوقف جوبا على الطريق، وينظر برهةً إلى النهر: القصب المبلول منحنٍ على الضفتين الرمليتين. يتقلب جذعٌ أسود كبير جانح في تيار الماء، يغطسُ ثم تخرج أغصانه مثل عنق أفعى تسبح. لا زال الظلّ على النهر، والماءُ ثقيلٌ وكثيف، يجري بتموجاته البطيئة. لكنَ الأرض القاحلة خلفَ النهر قد ظهرت. الرملُ يابسٌ تحت قدمي جوبا، والتراب الأحمر متصدع مثل الأواني القديمة، فيما تتعرج الأثلام كأنها تصدعات قديمة.

ينشقُ الليل في السماء وعلى الأرض شيئاً فشيئاً. يجتازُ جوبا الحقول الخالية، ويبتعد عن منازل القرويين القصبية، ولم يعد يرى النهر. يرتقي كومةَ حجارةٍ تعلقت بها بعض أشجار الأكاسيا. يلتقطُ جوبا بضع زهرات أكاسيا من الأرض يلوكها فيما يتسلق الكومة، فتنتشرُ العصارة في فمه، وتحلّ خدر النعاس. على السفح الآخر من التل الحجري، ينتظرُ الثوران. عند وصول جوبا قربهما، يراوح الحيوانان الكبيران بقوائمهما بعرجٍ، فيما يقلب أحدهما رأسه إلى الخلف كي يخور.

«تتتت! أوتا، أوتا!» يقول جوبا فيعرفه الثوران، ودون أن يتوقف عن القرقعة بلسانه، ينزعُ جوبا قيودهما ويقودهما إلى أعلى التل الحجري. يتقدمُ الثوران بمشقةٍ وتعثر، لأن القيود قد خدّرت قوائمهما الخلفية، فيما البخار يخرج من خياشيمهما.

عند وصولهم أمام الناعورة، يتوقفُ الثوران. يلهثان ويتراجعان إلى الخلف، يبعثان أصواتاً من حلقيهما، وتضربُ حوافرهما الأرض وتبعثران الحصى. يربطُ جوبا الثورين بطرف السنديانة الطويلة. وفيما كان يربطهما بالنير، لم يتوقف عن قرقعة لسانه مقابل حنكه. يبتدأُ الذباب بالطيران حول عيون وخياشم البقرتين، ويكشُّ جوبا تلك التي تحط على وجهه ويديّه.

تنتظرُ الدابتان أمام البئر، يقرقع ويصّر مِجَرُ العجلة الخشبي الثقيل عندما تتقدمان خطوة إلى الأمام. يسحبُ جوبا الحبل المربوط بالمقرن، وتبدأ العجلة بالأزيز، مثل قاربٍ يرتجّ. يسير الثوران الرماديان بثقل على المسار الدائري. تحطُّ حوافرهما على آثار الأمس، تحفرُ الحفرُ القديمة في التراب الأحمر، بين الحصى. في طرف السنديانة الطويلة، هناك عجلة خشبية كبيرة تدورُ في ذات الوقت الذي يدور فيه الثوران، ومحورها يجر العجلة الشاقولية الأخرى لتتشابك بها، فيما ينزل المشط الطويل من الجلد المقسى إلى عمق البئر، حاملاً الدلاء لتصل للماء.

يثيرُ جوبا الثورين عن طريق قرقعة لسانه دون توقف، ويكلمهما أيضاً، بصوتٍ خافت وبهدوء، لأن الظل ما يزال يغطي الحقول والنهر. تصّر آلية الخشب الثقيلة وتقرقع، تقاوم، ثم تعود للدوران. يتوقف الثوران من وقت لآخر، ويترتب على جوبا أن يركض خلفهما، ويسوط مؤخرتهما بعصا، ويدفع المِجَر. فيعود الثوران إلى حركتهما الدائرية، برأس منخفض، لاهثين.

أخيراً، عندما تشرق الشمس، تضيء الحقول بدفعة واحدة من أشعتها. الأرضُ الحمراء محفورة بأثلام المحراث، تُظهر كتلها الغضارية الجافة، وحصاها المدببة اللامعة. فوق النهر، في الطرف الآخر من الحقول، يتشقق الضباب فيما الماء يتألق.

يتدفق بعنفٍ من الضفتين، من بين القصب، سربٌ من الطيور، ينتشر في السماء الفاتحة مطلقاً صياحه. إنها طيور القطا وحجل الصحراء، وينتفض جوبا مذعوراً من صراخها الحاد. يتبعها بنظرته برهةً، واقفاً على حجارة البئر. تصعدُ الطيور إلى الأعلى، تعبرُ أمام قرص الشمس، ثم تتكفئ نحو الأرض من جديد وتختفي بين أعشاب النهر. بعيداً، في الطرف الآخر من الحقول، تخرج النسوة من منازلهن، يشعلن مواقد الجمر. إلا أن نور الشمس كان بكراً إلى درجة لم يستطع معها أن يكمد الوميض الأحمر للفحم الذي يحترق. يسمع جوبا صرخات أطفال وأصوات رجال. أحدٌ ما، في مكان ما، ينادي ويدوي صوته الحاد طويلاً في الهواء:

«جووووووبا!»

الآن يسير الثوران بشكلٍ أسرع. فالشمس تدفئ جسديهما وتعطيهما القوة. تئن الطاحونة وتصّر، كلّ سنّ في المسنن يطقطق منطبقاً على الآخر، فيما الشريط الجلدي المشدود من ثقل الدلاء يصدر اهتزازاً مستمراً. تصعد الدلاء إلى مثابة[1] البئر، ثم تنقلبُ في المزراب المعدني، وتعود إلى النزول مصطدمةً بالجدران الداخلية للبئر. ينظرُ جوبا إلى الماء الذي يسيل بدفقات على المزراب، ويسيلُ في الساقية، وينزلُ بدفقاتٍ منتظمة نحو تراب الحقول الأحمر. يسيلُ الماء بدفقاتٍ بطيئة، فيما تشرب الأرض الجافة بلهفة. يصبح قعر الحفرة طينياً، فيما تتقدم المياه المتدفقة بانتظام، متراً وراء متر. ينظر جوبا إلى الماء دون كلل، جالساً على حجرٍ عند طرف البئر. تدور بجانبه العجلة الخشبية ببطء شديد، مصدرةً صريرها، ويصعد الأزيز المتتابع للشريط الجلدي في الهواء، وتطرق الدلاء المزراب المعدني، الواحد وراء الآخر، ساكبة الماء الذي ينزلق محدثاً خريراً. إنها موسيقا بطيئة نائحة مثل صوت إنساني، تملأ السماء الخاوية والحقول. إنها موسيقا يعرفها جوبا جيداً، يوماً

(١) حجر منقور مُثْبت حول فوهة البئر (المترجم).

بعد يوم. ترتفع الشمس ببطء فوق الأفق، فيما يهتز نور النهار على الحجارة وسيقان النباتات، وعلى الماء الذي يسيل في الساقية. يمشي الرجال في البعيد، عند منحنى الحقول، كأخيلة سوداء أمام السماء الشاحبة. يسخنُ الهواء شيئاً فشيئاً، وتبدو الحجارة منتفخة، ويلمعُ التراب الأحمر مثل بشرة إنسان. هناك صرخات، من أطراف الأرض، صرخات رجال وعواء كلاب، يرّن صداها في السماء دون نهاية، بينما تدور عجلة الماء وتصّر. لم يعد جوبا ينظر إلى الثورين. يدير ظهره لهما، إلا أنه يسمع أنفاسهما التي تكشط حلقيهما، تبتعد ثم تعود لتقترب. تطرقُ حوافر الدابتين دائماً الحصى ذاتها على المسار الدائري، منغرزة في الحفر ذاتها.

يلفّ جوبا رأسه بالقماشةِ البيضاء ويتوقف عن الحركة. ينظر إلى البعيد، ربما إلى الطرف الآخر من حقول التراب الأحمر، وإلى الضفة الأخرى من النهر ذي اللون المعدني، لا يسمع صوت العجلة التي تدور، ولا صوت مِجَر العجلة الخشبي الذي يدور حول محوره.

«إيه..آوو!»

هو أيضاً، يشدو ببطء من حلقه، العينان نصف مغلقتين.

«إيييه-آووو، آووو - آووو!»

اليدان والوجه مُخبآن تحت القماشة البيضاء، والجسد لا يتحرك، يشدو في الوقت ذاته الذي تدور فيه العجلة. بالكاد يفتح فمه، فيما شدوه يخرج من حلقه ممدوداً، مثل نفث الثورين، مثل الأزيز المتتابع لشريط الحركة الجلدي.

«إيه-إيه- إيييه-أو!»

يبتعدُ نفث الثوريين، ثم يعود، يدور دون توقف على المسار الدائري. يشدو جوبا لنفسه، ولا أحد يستطيع سماعه، فيما ينزلق الماء على دفقات في الساقية. المطر والريح والماء الثقيل للنهر النازل نحو البحر، كلها في حلقه،

في جسده الساكن. تصعد الشمس في السماء دون عجلة، والحرارة تهز العجلات الخشبية ومِجَر العجلة. ربما هي الحركة ذاتها التي تجرّ النجم وسط السماء، فيما يتقدم الثوران ببطء على المسار الدائري.

«إيبيه-آووو، إيبيه-آووو، ووو - آو - ووو - آو!»

يسمع جوبا الشدو الذي يصعد منه، ويجتاز بطنه وصدره، الشدو القادم من عمق البئر. يسيل الماء متدفقاً، لونه لون التراب، ينزل نحو الحقول الجرداء. يدور الماء أيضاً، ببطء، يطوق الأنهار والجدران والغيوم حول المحورِ غير المرئي. يسيل مطقطقاً، صارّاً، دون توقف نحو اللجّة الداكنة للبئر حيث تعود الدلاء الفارغة لحمله.

موسيقا لا يمكن أن تنتهي، مادامت موجودة في العالم أجمعه، وحتى في السماء، حيث يصعد القرص الشمسي ببطء، على طول مساره المنحني. تصعدُ الأصوات العميقة والمنتظمة والرتيبة من العجلة الخشبية الكبيرة ذات المسننات التي تتأوه في تشابكها، ويدور الملفاف حول محوره مصدراً أنينه، وتنزل الدلاء المعدنية في البئر، ويهتزُ الحبل الجلدي اهتزاز صوت، ويسيل الماء على المزراب، بدفقات، غامراً الساقية. لا أحد يتكلم، لا أحد يتحرك، فيما يهبط الماء شلالاً، يكبرُ مثل سيلٍ، ينتشر في الأثلام، في حقول التراب الأحمر والحجارة.

يديرُ جوبا رأسه قليلاً إلى الخلف وينظر إلى السماء. يرى الحركة الدائرية التي ترسم مخورها المتألقة. يرى الطبقات الشفافة، وتشابكَ النور في الفضاء. يملأ صوت عجلة الماء كلّ الفضاء، يدور إلى ما لا نهاية مع الشمس. يسير الثوران على الإيقاع ذاته، الجبهة منحنية إلى الأسفل، والرقبة مشدودة تحت المقرن. يسمع جوبا الصوت البهيم لحوافرها، وصوت أنفاسها الذي يذهبُ ويعود، ويحادثهما أيضاً، يقول لهما كلماتٍ خفيضة ممدودة، كلماتٍ تمتزجُ بصرير مِجَر العجلة وصوت تشابك العجلات ورنة الدلاء التي تصعد دون توقف، ساكبة الماء.

«إبيا - آياها، إيا - أو! إيا - أو!»

بعد ذلك، يغلقُ جوبا عينيه، فيما تصعد الشمس ببطء، تسحبها العجلة وخطوات الثورين تشّكل الحرارة والنور زوبعةً وديعةً تحمله في تيارهما، في حلقةٍ هي من الاتساع بحيث تبدو أنها لن تُغلقَ ثانيةً. يعتلي جوبا جناحي نسرٍ أبيض، مرتفع جداً في سماءٍ بلا غيم. ينسابُ، عبر طبقات الهواء، ويتموجُ التراب الأحمر ببطءٍ تحت جناحيه. الحقول الجرداء والطرق والمنازل ذات السقوف المصنوعة من ورق الشجر والنهر ذو اللون المعدني، كلّ شيء يدور حولَ البئر، مصدراً قرقعة وصريراً. تدورُ الموسيقا الرتيبة لعجلات الماء، لهاث الثورين، خرير الماء في الساقية، كلّها تدور وتحمله وترفعه. النور قويٌ، والسماء مفتوحة. الآن لم يعد هناك بشر لقد اختفوا. لم يعد هناك سوى الماءِ والتراب والسماء تعبرُ وتتقاطع، كلّ عنصرٍ يشبه عجلةً مسننة تتشابك.

لم يكن جوبا نائماً. لقد فتح عينيه من جديد، وأخذ ينظرُ مباشرةً أمامه، إلى ما وراء الحقول، لا يتحرك، تغطي القماشة البيضاء رأسه وجسده، ويتنفسُ بهدوء.

في عين اللحظة تظهر يول. مدينةُ غريبةٌ شديدةُ البياض وسطَ الأرض الخاوية والحجارة الحمراء. لا تزال أوابدها العالية تتحرك، أوابد ملتبسةٌ، خيالية، كما لو أن إنجازها لم ينته، شبيهةٌ بانعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبيرة.

يعرفُ جوبا جيداً هذه المدينة. غالباً ما رآها، من بعيد، حين يكون ضوء الشمسُ قوياً جداً وحين تحتجبُ العيون بشيءٍ من التعب. غالباً ما رآها، لكن لم يقترب منها أحد، بسبب أرواح الأموات. سأل أباه يوماً عن اسم المدينة بالغة الجمال وشديدة البياض، فأجابه أبوه بأنها تدعى يول، وأنها ليست مدينة للناس ولكن فقط لأرواح الأموات. حدّثه أبوه أيضاً عن ذلك الذي كان يحكم المدينة

منذ زمن طويل، ملكٌ شابٌ[١] جاء من الطرف الآخر من البحر، والذي يحمل نفس اسمه.

الآن، ظهرت يول مرةً أخرى في الموسيقا البطيئة للعجلات، وفي النور الباهر حين تصير الشمس في أعلى نقطةٍ في السماء. تكبُر أمام جوبا، فيرى بجلاءٍ مبانيها الكبيرة التي ترتجف في الهواء الحار. هناك أبراجٌ عالية دون نوافذ، داراتٍ بيضاء وسط حدائق النخيل، قصورٌ ومعابد. تتلألأ كتل المرمر كما لو أنها قد قُطعت لتوها. تدورُ المدينة ببطء حول جوبا، فيما الموسيقا الرتيبة لعجلة الماء تشبه هديرَ البحر. تطفو المدينة على الحقول الخالية، خفيفةً مثل انعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبيرة، وأمامها تجري مياه نهر آزان مثل طريقٍ من النور. ينصتُ جوبا لهدير البحر، من الطرف الآخر من المدينة. صوتٌ ثقيلٌ، يمتزجُ بقرع الطبل، وأصوات الأبواق. يُسرع شعب حميّر في شوارع المدينة، العبيد السود القادمون من النوبة، وكتائب الجنود والفرسان ذوو الدثار الأحمر المغطاة رؤوسهم بخوذٍ نحاسية، الأبناء الشقر لسكان الجبال. يصعدُ الغبار في الهواء، فوق الطرق والمنازل، مشكلاً غيمة رمادية كبيرة تزوبع على أبواب الأسوار.

تصرخ الجموع: «إيا! إيا!»، فيما يتقدم جوبا على الدرب الأبيض. إنه شعب حميّر من يناديه، ويمدّ الأذرع نحوه، إلا أنه يتقدم على الطريق الملكي دون النظر إليهم. في أعلى المدينة، فوق الدارات والشجر، وقف معبدُ ديانا

---

(١) الملك الشاب جوبا الثاني Juba II (٥٢ قبل الميلاد - ٢٣ أو ٢٤ بعد الميلاد)، ملك موريتانيا ابن جوبا الأول Juba I، حفيد هيمبسال، ووالد بطليموس Ptolémée، شبّ في روما بعد انتحار والده، واصبح ملكاً في المناطق الواقعة حالياً في المغرب وغرب الجزائر وموريتانيا بأمر من روما، تزوج كليوبترا سيليني سليلة البطالمة، وانصرف إلى الفن والتأليف والآداب اليونانية هو وزوجته كليوبترا سيليني بعد أن وطد أسس ملكه التابع لروما والذي استمر ٤٨ سنة (المترجم).

الضخم، أعمدته المرمرية شبيهةٌ بالجذوع المتحجرة. ينيرُ نورُ الشمس جسدَ جوبا ويسكره، فيما يسمع الهدير المستمر للبحر وهو يعلو. المدينة حوله خفيفة، تتموج وتتأرجح مثل انعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبيرة. يسير جوبا وقدماه تبدوان لا تلمسان الأرض، كما لو أنه محمول على غيمةٍ. يسير معه شعب حمّير، رجالاً ونساءً، يرّن صدى الموسيقا الخفية في الشوارع والساحات، وأحياناً تطغى الأصوات التي تناديه على هدير البحر:

«جوبا! إيه! جو - ووو - باا!»

عند وصول جوبا إلى قمة المعبد، تدفق النور دفعةً واحدة. إنه البحرُ الواسع والأزرق الذي يمتد حتى الأفق. والحركة الدائرية البطيئة ترسمُ خط الأفق الناصع، فيما صدى صوت الأمواج الرتيب يرن على الصخور.

«جوبا! جوبا!»

تعلو أصوات شعب حميّر، واسمه يرن في كلّ المدينة، فوق الأسوار ذات اللون الترابي، في الأروقة الأمامية للمعابد، وساحات القصور البيضاء. يملأ اسمه الحقولَ الحمراء، حتى حدود نهر آزان.

يصعدُ جوبا الدرجات الأخيرة لمعبد ديانا. مرتدياً رداءً أبيض، وشعره مربوط بعصبة من خيط ذهبي. يلتفت وجهه الجميل ذو اللون النحاسي نحو المدينة، وعيناه الداكنتان تنظران، إلا أنهما بدتا كأنهما تنظران عبر أجساد الناس، عبر الجدران البيضاء للمباني.

تجتاز نظرة جوبا أسوار يول، تذهبُ إلى ما خلفها، تتبع منعطفات نهر آزان، تعبر امتداد الحقول الخالية، تصلُ إلى قمم آمور، وحتى نبع سبغاغ. ترى الماء الصافي الذي يتدفق بين الصخور، الماء الثمين والبارد الذي يجري باعثاً صوته المنتظم.

تصمتُ الجموع الآن، فيما ينظر جوبا بعينيه الداكنتين. وجهه شبيه بوجه إله شاب، وبدا نور الشمس يتضاعف على ملابسه البيضاء وعلى بشرته النحاسية.

ما زالت الموسيقا تتدفقُ مثل جلبة الطيور، تدوي بين أسوار المدينة. تنفخ السماء والبحر، فيما تتباعد موجاتها على نحو مسهب.

«أنا جوبا»، يفكر الملك الشاب، ثم يقولُ بصوت عال، وبعنفوان:

«أنا جوبا، ابن جوبا، حفيد هيمبسال!»

«جوبا! جوبا! إيا - أوووه!» تصرخ الجموع.

«أنا جوبا، مليككم!»

«جوبا!، جوووبا!»

«عدتُ اليوم، ويول عاصمة مملكتي!»

ما زال هدير البحر يكبرُ. تصعد الآن على درجات المعبد امرأةٌ شابةٌ، جميلةٌ ترتدي ثوباً أبيض تحركه الريح، وشعرها الفاتح يملؤه البريق. يأخذ جوبا يدها ويمشي معها إلى طرف المعبد.

«كليوباترا سيليني[(١)]، ابنة أنطوان وكليوباترا ملكتكم!» يقول جوبا.

عاد صوت الجموع يغطي المدينة.

تنظر المرأة الشابة دون أن تتحرك إلى الدارات البيضاء والأسوار وامتداد الأرض الحمراء. وبالكاد تبتسم.

إلا أن الحركة البطيئة للعجلات تستمر، وصوت البحر أكثر قوة من أصوات الناس. في السماء، تهبطُ الشمس شيئاً فشيئاً في طريقها المنحني. يتغير لون نورها على الجدران المرمرية ويُطيل ظلال الأعمدة.

---

(١) كليوبترا سيليني Cléopâtre Séléné: ابنة مارك أنطوان Marc Antoine وكلبوباترا Cléopâtre زوجة جوبا الثاني (المترجم).

كما لو أنهما وحيدان الآن، يجلسّان في أعلى درجات المعبد، جانب أعمدة المرمر. حولهما، الأرض والبحر يدوران ويبعثان بهديرهما المنتظم. تنظر كليوباترا سيليني إلى وجه جوبا. إنها معجبةٌ بوجه الملك الشاب، جبهةٌ عالية، أنفٌ محدب، عينان واسعتان يحيطهما الخط الأسود للأهداب. تميل عليه وتكلمه بلطف، بلغةٍ لا يفهمها جوبا، صوتها ناعم، ونفسها معطر. ينظر إليها جوبا بدوره، ويقول:

«كل شيء جميل هنا، منذ زمن طويل تمنيت العودة. منذ طفولتي، تخيّلت كلّ يوم اللحظة التي أستطيع فيها رؤية كلّ هذا. أريد أن أكون خالداً، كي لا أغادر هذه المدينة وهذه الأرض أبداً، كي أرى دائماً ما أراه.»

تلمع عيناه الداكنتان من المشهد الذي يحيطه. لا يتوقف جوبا عن النظر إلى المدينة والبيوت البيضاء والشرفات وبساتين النخيل. ترتعش يول في نور العصر، خفيفةً وخيالية مثل انعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبيرة. الريح التي تهب تطيّر شعر كليوباترا سيليني الذهبي، تحمل معها إلى أعلى المعبد الهدير الرتيب للبحر.

يستجوبه صوت المرأة الشابة، فقط بلفظ اسمه:

«جوبا... جوبا؟»

«مات أبي مهزوماً هنا»، يقول جوبا. «أخذوني كعبدٍ إلى روما. إلا أن هذه المدينة جميلةٌ اليوم، وأريدها أن تكون أكثر جمالاً. لا أريد أن تكون هناك مدينة أكثر جمالاً منها على الأرض. سنُعلّم فيها الفلسفة وعلوم الفلك، وعلم الأرقام، وسيجيء الناس من كل أنحاء العالم للتعلم.»

تنصت كليوباترا سيليني إلى كلمات الملك الشاب دون أن تفهم. إلا أنها كانت تنظر أيضاً إلى المدينة، وتستمع إلى صخب الموسيقا الذي يدور حول الأفق. يشدو صوتها قليلاً حين تناديه:

«جوبا! إيااا -أو!»

«في الساحة، وسط المدينة، سيعلّم الأساتذة لغة الآلهة. سيتعلم الأطفال إجلال المعرفة، سيقرأ الشعراء أعمالهم، وسيتنبأ علماء الفلك بالمستقبل. لن تكون هناك أرضٌ أكثر رفاهية، وشعبٌ أكثر مسالمة. ستسطع المدينة بكنوز الروح، بهذا النور.»

يلمعُ الوجه الجميل للملك في النور الذي يحيط بمعبد ديانا. عيناه تنظران إلى البعيد، ما وراء الأسوار وما وراء التلال، حتى وسط البحر.

«سيجيء الرجالُ الأكثر حكمة من أمتي إلى هنا، إلى هذا المعبد، مع النسّاخ، وسأضع معهم تاريخ هذه الأرض، تاريخ الناس والحروب ومنجزات الحضارة الكبرى وتاريخ المدن، والأنهار والجبال وضفاف البحر، من مصر وحتى بلاد سرنة[(١)].

ينظر جوبا إلى رجال شعب حميّر الذين يسرعون في شوارع المدينة، حول المعبد، دون أن يسمع صخب أصواتهم، ينصت فقط إلى الهدير الرتيب للبحر.

«لم آتِ هنا للانتقام»، قال جوبا.

ينظر أيضاً إلى الملكة الشابة الجالسة بجانبه.

ويضيف: «سيولد ابني بطليموس، سيصير ملكاً هنا، في يول، وكذلك أطفاله من بعده، كيلا تصل الأشياء إلى نهايتها.»

ثم يقف فوق منصة المعبد، تماماً مقابل البحر. يضيئه النور الباهر، النور القادم من السماء، الذي يجعل الجدران المرمرية والمنازل والحقول والتلال متلألئة. يجيء النور من عمق السماء، ساكناً فوق البحر.

---

(١) جزيرة Cerné، جزيرة يصفها البحارة القدماء بأنها تقع في أقصى الطرف الغربي للعالم. يُعتقد اليوم أنها جزيرة موكادور التي تقع قبالة مدينة الصويرة المغربية (المترجم).

لم يعد جوبا يتكلم. وجهه شبيه بقناعٍ نحاسي، فيما يلمع النور على جبهته وعلى انحناءة أنفه وعلى وجنتيه. ترى عيناه الداكنتان ما وراء البحر. تهتز وتتموج الجدران البيضاء والمسلات الكلسية حوله، مثل انعكاس الشمس على بحيرات الملح الكبرى. وجه كليوباترا سيليني ساكنٌ أيضاً، منير، هادئ مثل وجه تمثال.

يقف الملك الشاب وزوجته جنباً إلى جنب معاً على منصة المعبد، وتدورُ المدينة ببطءٍ حولهما. تملأ الموسيقا الرتيبة للعجلات الكبيرة المخفية آذانهما وتمتزج بصخب الأمواج على صخور الشاطئ، مثل شدو، مثل صوت إنساني يصرخ من بعيد جداً وينادي:

«جوبا!، جوووويا!»

تكبُر الظلال على الأرض، فيما تهبط الشمس على يسار المعبد شيئاً فشيئاً نحو الغرب. يرى جوبا المباني تهتز وتتفكك. تنزلق على نفسها مثل الغيوم، ويصبح شدو العجلات في السماء والبحر أكثر قوةً، وأكثر نواحاً. ثمة دوائر بيضاء كبيرة في السماء، أمواجٌ كبيرة تسبح. تصغر الأصوات البشرية وتبتعد وتضمحل. في بعض الأحيان، تُسمع نغمات الموسيقا، وأصوات الأبواق والنايات الحادة والطبول. أو رغاء الجمال بالقرب من بوابات الأسوار. يمتد الظل الرمادي والبنفسجي تحت التلال، متقدماً في وادي النهر. المعبد وحده مضاءٌ بالشمس، ينتصب فوق المدينة مثل سفينة حجرية.

جوبا وحيدٌ الآن بين خرائب يول. تعبر الأمواج البطيئة المرمر المتكسر، معكرةً سطح البحر. تستلقي الأعمدة في عمق الماء، والجذوع المتحجرة غارقة بين الطحالب، والأدراج مغمورة. لم يبق رجالٌ أو نساء وكذلك أطفال. تشبه المدينة مقبرة تهتز في عمق البحر، وتجيء الأمواج وتضرب آخر درجات معبد ديانا، مثل صخرةٍ في البحر. لا زال الصوت الرتيب، صوت هدير البحر. كانت تلك حركة العجلات الكبيرة المسننة التي لا زالت تصرّ وتنوح، فيما تبطئ البقرتان المربوطتان إلى مجر العجلة سيرهما الدوراني. في السماء الزرقاء الداكنة، يظهر الهلال ويتألق نوره دون حرارة.

يزيح جوبا الغطاء الأبيض الذي يغطي رأسه. يرتجف، لأن برد الليل جاء سريعاً. أطرافه مخدرة وفمه جاف. يغرف براحة يده قليلاً من الماء من دلوٍ لا يتحرك. وجهه الجميل معتم جداً، يقاربُ السواد، من حرارة الشمس. تنظرُ عيناه إلى امتداد الحقول الحمراء، حيث لا يوجد أحد الآن. توقف الثوران في مسارهما الدائري، ولم تعد العجلتان الخشبيتان الكبيرتان تدوران، إلا أنهما ما زالتا تطقطقان وتصران، فيما الحبل الجلدي المقسى لا زال يهتز.

يفكّ جوبا رباط البقرتين دون الثورين، ويزيح العارضة الخشبية الثقيلة. يصعد الليل من الطرف الآخر من الأرض، عند مهبط نهر آزان. بالقرب من المنازل، تُشعل نيران الجمر، وتقف النساء أمام المواقد.

«جووووبا!، جووووبا!»

الصوت نفسه ينادي، الصوت المرتفع والرخيم، من مكانٍ ما في الطرف الآخر من الحقول الخالية. يلتفتُ جوبا وينظرُ برهةً، ثم يهبط تل الحجارة يقود الثورين من رسنهما. عند وصوله أسفل التل، يربط جوبا القيود بعرقوبي الثورين. الصمت في وادي النهر هائل، غطى الأرض والسماء مثل ماء هادئ لا تتحرك فيه أي موجة. إنه صمت الحجارة.

ينظر جوبا حوله طويلاً، منصتاً إلى صوت تنفس الثورين، توقف الماء عن الجريان في الساقية، شربت التربة آخر القطرات في شقوق الأثلام. عاد الظل الرمادي ليغطي المدينة البيضاء ذات المعابد الخفيفة والأسوار وبساتين النخيل. هل من الممكن أنه ظل هناك في مكان ما، نصبٌ ما على شكل قبرٍ، أو قبةٌ حجرية مكسورةً حيث ينبت العشب والجنبات، في مكانٍ ليس ببعيد عن البحر؟ هل من الممكن في الغد حين تبدأ العجلتان الكبيرتان بالدوران ثانية، وحين يسير الثوران ببطء لاهثين على مسارهما الدائري، أن تظهر المدينة من جديد، شديدة البياض مترنحة وخيالية مثل انعكاسات الشمس؟ يستدير جوبا حول نفسه، وينظر فقط إلى امتداد الحقول التي تستريح من النور مغمورة في بخار النهر. ثم يبتعد ويمشي بسرعة نحو المنازل حيث ينتظر الأحياء.

ذلك الذي لم يرَ
البحر... قط

كان اسمه دانييل، وكم وّد أن يكون اسمه سندباد. لأنه كان قد قرأ مغامراته في كتاب كبير ذي غلافٍ أحمر، كان يحمله دائماً معه، في الصف، وفي عنبر النوم. أحسبُ أنه لم يكن قد قرأ البتة كتاباً غيره. لم يكن يتكلم عنه إلا أحياناً عندما يُطلب منه ذلك. حينها كانت عيناه السودوان تلمعان بقوةٍ أكبر، وتظهر علامات الانتعاش فجأة على وجهه الطويل الحاد. إلا أنه كان فتى قليل الكلام، ولا يشترك في أحاديث الآخرين، إلا إذا كان الحديث يدورُ عن البحر أو عن الأسفار. معظم الناس عادة أناسٌ برّيون، ولدوا على الأرض، تهمهم الأرض وأشياؤها. حتى إن البحارة هم، غالبا، أناسٌ برّيون، يحبون البيوت والنساء، يتكلمون عن السياسة والسيارات. أما هو، دانييل، كان كما لو أنه من جنسٍ آخر. كانت الأشياء البرّية تصيبه بالملل، المحلات والسيارات والموسيقا والأفلام، وبالطبع دروس المدرسة الثانوية. لم يكن يقول شيئاً، حتى إنه لم يكن يتثاءب مظهراً ملله، لكنه كان يبقى في مكانه، جالساً على مقعدٍ، أو على الدرج، أمام الباحة، محدقاً في الفراغ. كان تلميذاً دون المتوسط، يحصلُ في كل فصلٍ على ما يلزم فقط من علاماتٍ للبقاء. عندما كان أحد المدرسين يلفظ اسمه، ينهض ويسرد درسه، ثم يجلس ثانيةً وينتهي الأمر. كان كما لو أنه ينام بعينين مفتوحتين.

حتى عند الحديث عن البحر، لم يكن يهتم بذلك طويلاً. كان ينصتُ لحظةً، ويسأل عن شيئين أو ثلاثة، ثم يدرك أن الحديث لم يكن حقيقةً عن

البحر، وإنما عن السباحة وعن الصيد في أعماق البحر وعن الشواطئ وعن ضربات الشمس. لذا كان يعود إلى الجلوس في مقعده، أو على الدرج، محدقاً في الفراغ. لم يكن يستهويه أن يسمع عن هذا البحر، إنما عن بحرٍ آخر، لم يكن معلوماً أي بحر، لكنه بحر آخر.

كان ذلك قبلَ أن يختفي، قبلَ أن يغادر. لم يتخيّل أحدٌ أنه سيغادر يوماً ما، أريد أن أقول حقّاً، دون عودة. كان فقيراً جداً، يملك والده مزرعة صغيرة على بعد بضع كيلومترات من المدينة، وكان يرتدي صدرية رمادية خاصة بالطلبة الداخليين، لأن عائلته كانت تقيم بعيداً بحيث إنه لم يكن يستطيع العودة إلى منزله كلّ مساء. كان له ثلاثة إخوة أو أربعة أكبر منه، لم نكن نعرفهم.

لم يكن لديه أصدقاء، لا يعرف أحداً ولا أحد يعرفه. ربما كان قد فضّل ذلك، كي لا يكون له صلة بأحد. وجهه غريب طويل حاد، وعينان سوداوان جميلتان لا مباليتين.

لم يكن قد قال شيئاً لأحد. لكن بالتأكيد، كان قد حضّر كلَّ شيءٍ لهذه اللحظة. حضّر كلَّ شيءٍ في رأسه، بتذكر الطرق والخرائط، وأسماء المدن التي سيجتازها. ربما كان قد حلمَ بأشياءَ كثيرة، يوماً بعد يوم، وكلّ ليلة، وهو مستلق على سريره في العنبر، في الوقت الذي كان يمزح فيه الآخرون ويدخنون سجائرهم خفيةً. كان قد فكّر بالأنهار التي تنحدر ببطءٍ نحو مصباتها، بصرخات النوارس، بالريح، وبالعواصف التي تصفّر فوق صواري السفن وبصفارات المنارات.

غادر في بداية الشتاء، تقريباً في منتصف شهر أيلول. كان قد اختفى، عند استيقاظ الطلاب الداخليين، في العنبر الكبير الرمادي. أدركوا ذلك مباشرة، منذ أن فتحوا عيونهم، لأن السرير لم يكن مستعملاً. كانت الأغطية مسحوبة بعناية، وكلّ شيء مرتباً. لذا قالوا فقط: «عجباً..! غادر دانييل..!»

دون أن يكونوا مندهشين حقاً، لأنهم كانوا يعرفون، إلى حدٍ ما، بأن ذلك سيحدث. لكن أحداً منهم لم يقل شيئاً آخر، لأنهم لم يريدوا الحديث عن ذلك مرةً أخرى.

حتى التلاميذ الأكثر ثرثرةً في الصف المتوسط لم يقولوا شيئاً. على أي حال، ما الذي كان يمكن قوله؟ لم يكن أحد يعرف شيئاً. كنا نتهامس، لوقتٍ طويل، في الباحة أو خلال دروس اللغة الفرنسية، لكن ذلك لم يكن سوى عبارات مقتضبة، لم يعرف معانيها سوانا.

«أتحسب أنه قد وصل الآن ؟»

«أتظن؟ ليس بعد، إنه بعيد، أنت تعلم...»

«غداً؟»

«نعم، ربما....»

الأكثر إقداماً كانوا يقولون:

«ربما صار في أمريكا...»

و المتشائمون:

«إيه، ربما سيعود اليوم».

لكن، وإن كنا صمتنا نحن، فإن القضية بالمقابل أثارت ضجةً في المستويات العليا. فقد تمّ استدعاء المدرسين والمراقبين، دورياً إلى مكتب المدير، وحتى إلى الشرطة. من وقتٍ إلى آخر، كان المحققون يأتون ويستجوبون التلاميذ، واحداً بعد واحد، محاولين استدراجهم إلى الكلام.

بالطبع، كنا نتكلم عن كلّ شيء ما عدا عما كنا نعرفه، عنه، عن البحر. كنا نتكلم عن الجبال والمدن والفتيات والكنوز، حتى عن المتسكعين سارقي الأطفال والكتيبة الأجنبية. كنا نقول ذلك من أجل إلقاء الغموض على خيوط التحقيق. كانت عصبية المدرسين والمراقبين تزداد أكثر فأكثر، مما جعلهم مزعجين.

استمرت الضجة الكبيرة عدة أسابيع، عدة أشهر. نُشر إعلانُ بحث أو ثلاثة في الصحف، مع العلامات المميزة لدانييل وصورة لم تكن تشبهه. بعد ذلك، هدأ كل شيء فجأة، لأننا تعبنا جميعاً من هذه القصة. ربما أننا فهمنا جميعاً أنه لن يعود البتة.

التأمت آلام والديّ دانييل، لأنهما كانا فقيرين جداً ولأنه لم يكن لديهما شيءٌ آخر يستطيعان فعله. حفظ رجال الشرطة القضية، قالوا ذلك بأنفسهم، مضيفين شيئاً، كرره المدرسون والمراقبون، كما لو أنه كان شيئا عادياً جدا، وبدا لنا نحن، نحن، شيئاً غير عادي. قالوا إن هناك عشرات آلاف من الأشخاص يختفون، كل سنة بالطريقة نفسها، دون أن يتركوا أي أثر، ودون أن يُعثر عليهم البتة. كان المدرسون والمراقبون يرددون هذه العبارة الصغيرة، بهز أكتافهم، كما لو أنه كان الشيء الأكثر تفاهة في العالم، أما نحن، حين سمعناه، فقد جعلنا نحلم، ونطلق في أعماقنا حلماً خفياً فتاناً لم ينته بعد.

من المحتم أن دانييل قد وصل في الليل، على متن قطار بضائع طويل كان قد سار وقتاً طويلاً، نهاراً وليلاً. تسير قطارات البضائع خاصةً في الليل، لأنها طويلة جداً، وتتحرك ببطءٍ شديد، من عقدة حديدية إلى أخرى. كان دانييل مستلقياً على الأرضية اليابسة، ملتفاً بقطعةٍ قديمة من الخيش. كان ينظر من خلال فتحات البوابة التي يتسرب منها الضوء، حين كان القطار يتباطأ ويتوقف صارًّا على أرصفة البضائع. فتح دانيل الباب وقفز على المسار، وركض بمحاذاة المنحدر إلى أن وجد ممراً. لم يكن يحمل أي حقيبة، سوى كيس الشاطئ الأزرق البحري الذي كان يحمله معه دائماً، والذي وضع داخله كتابه الأحمر القديم.

الآن صار طليقاً، وكان يشعر بالبرد. كانت ساقاه تؤلمانه، بعد كلّ هذه الساعات التي قضاها في عربة القطار. كان الوقت ليلاً، والسماء تمطر. كان دانييل يسير بأسرع ما يستطيع، للابتعاد عن المدينة. لم يكن يعرف إلى أين

سيذهب. كان يسير إلى الأمام، بين جدران المستودعات، على الطريق الذي كان يلمع بنور المصابيح الأصفر. لم يكن أحد هنا، ولم تكن هناك أسماء مكتوبة على الجدران. إلا أن البحر لم يكن بعيداً، كان دانييل يخمّن بأنه في مكان ما على الجانب الأيمن، تخفيه البنايات الإسمنتية الكبيرة، في الطرف الآخر من الجدران. مغلفاً بالليل.

بعد فترة، شعر دانييل بالتعب من السير. كان قد وصل لتوه إلى الريف، والمدينة تلمع بعيداً خلفه. كان الليل مظلماً، والأرض والبحر غير مرئيين. بحث دانييل عن مكانٍ يحتمي فيه من المطر والريح، فدخل كوخاً خشبياً، على طرف الطريق. مكث فيه كي ينام حتى الصباح. لم يكن قد نام أو أكل منذ عدة أيام، لأنه كان طيلة الوقت يترصد من خلال باب عربة القطار ما حوله. كان يعلم بأن عليه ألا يلتقي برجال الشرطة. لذلك اختبأ جيداً في عمق الكوخ الخشبي، قضم قليلاً من الخبز، ثم نام.

عندما استيقظ، كانت الشمس في السماء. خرج دانييل من الكوخ، وسار عدة خطوات وهو يرمش بعينيه. كان هناك دربٌ يؤدي إلى الكثبان، مشى فيه. كان قلبه يخفق بقوةٍ أكبر، لأنه كان يعرف أنه في الطرف الآخر، بالكاد على بعد مئتي متر. يركض على الدرب، ويتسلق منحدر الرمل، فيما كانت الريح تهب بقوة أكبر فأكبر، حاملة معها صخباً ورائحة مجهولة. ثم وصل قمة الكثيب، وفجأة رآه.

كان هنا، في كل مكان، أمامه، واسعاً، منفوخاً كمنحدر جبل، لامعاً بلونه الأزرق، عميقاً، قريباً جداً، بأمواجه العالية، التي كانت تتقدم نحوه.

«البحر! البحر!» كان دانييل يفكر، دون أن يجرؤ على قول شيء بصوتٍ عال. ظلّ غير قادرٍ على الحركة، أصابعه متباعدة قليلاً، لم يكن يستطع أن يصدق أنه قد نام بجانبه. كان ينصت إلى صخب الأمواج البطيء

المتحركة على الشاطئ. فجأة توقفت الريح، وسطعت الشمس على البحر مشعلةً النور على ذروة كل موجة. كان رمل الشاطئ رمادياً، ناعماً، تجتازه مسيلات الماء، وتغطيه برك عريضة تعكس السماء.

ردد دانييل في أعماقه الاسم الجميل عدة مرات، على هذا النحو:

«البحر، البحر، البحر...»

رأسه مليء بالصخب والنشوة. كانت لديه رغبة بالكلام، وحتى بالصراخ، لكن حلقه لم يكن يسمح له بتمرير صوته. لذا كان يجب أن ينطلق صارخاً، رامياً بعيداً كيسه الأزرق الذي تدحرج على الرمل، كان يجب أن ينطلق محركاً ذراعيه وساقيه مثل شخصٍ يجتاز الطريق السريعً. كان يقفز فوق حزم الفوقس[1]، مترنحاً فوق الرمل الجاف أعلى الشاطئ. خلع حذاءه وجوربيه، وتابع الركض بقدمين حافيتين، بسرعة أكبر، دون أن يشعر بوخزات الشوك.

كان البحر بعيداً، في الطرف الآخر من سهل الرمل. كان يلمعُ في النور، يغيّر لونه ومظهره، واسعاً أزرق، ثم رمادياً، أخضر، يقارب السواد، أرصفة من الرمل الأمغر، أهداب بيضاء للأمواج. لم يكن دانييل يعلم بأنه كان بعيداً جداً. كان يتابع جريه، بذراعين مشدودتين على جسده، وبقلبٍ يخفقُ بكل قواه في صدره. صار يشعر بأن الرمل القاسي مثل الأسفلت رطب وبارد تحت قدميه. كلما كان يقترب، كان صخب الأمواج يعلو، يملأ كل الأمكنة كصفير البخار. كان صخباً هادئاً جداً وبطيئاً جداً، ثم يصير عنيفاً ومقلقاً مثل القطارات على الجسور الحديدية، أو هارباً إلى الخلف مثل ماء الأنهار. إلا أن دانييل لم يكن خائفاً، كان يتابع جريه إلى الأمام بأسرع ما يستطيع في الهواء البارد، دون أن ينظر إلى أي شيء آخر. عندما لم يبق إلا بضعة أمتار

---

(١) الفوقس: نبات أخضر يقذفه البحر (المترجم).

عن حافة الزبد، شّم رائحة الأعماق وتوقف. كان ألمٌ حاد يحرق خاصرته، فيما كانت الرائحة القوية للماء المالح تمنعه أن يستعيد نَفَسِه.

جلس على الرمل المبلل، نظر إلى البحر الصاعد أمامه إلى أن يقارب وسط السماء. كان قد فكر كثيراً في هذه اللحظة، تخيل كثيراً اليوم الذي سيراه فيه، حقيقةً، لا كما في الصور أو في السينما، وإنما حقيقياً، البحرُ كله، معروضٌ حوله، متورمٌ، مع الظهور الكبيرة للأمواج التي تنقض وتتكسر، وغيوم الزبد، ورذاذ المطر كالهباء في ضوء الشمس، ولاسيما، في البعيد، ذاك الأفق المقوس مثل جدارٍ أمام السماء! كان قد اشتهى كثيراً هذه اللحظة التي يفقد فيها قواه، كما لو أنه سيموت، أو أنه سيغفو.

كان البحر حقاً، بحره، الآن له وحده، وكان يعرف بأنه لن يستطيع أن يغادره أبداً. ظلّ دانييل وقتاً طويلاً مستلقياً على الرمل القاسي، انتظر وقتاً طويلاً، ممدداً على جنبه، بدء صعود البحر بمحاذاة المنحدر وملامسة قدميه الحافيتين.

كان ذلك المد. وثب دانييل على قدميه، كلّ عضلاته مشدودة للهرب. في البعيد، كانت الأمواج تتكسر، على الصخور السوداء البارزة، بصوت راعد. إلا أن الماء لم يكن قوياً بعد. كان يتكسر، يفور أسفل الشاطئ، لا يصل إلا زحفاً. كان الزبد الخفيف يحيط بساقي دانييل، ويحفر أخاديد حول عقبيه. في البداية، لسع الماء البارد أصابعه وعرقوبيه، ثم خدّرها.

ومع المد، جاءت الريح. هبت من عمق الأفق، وتجمعت الغيوم في السماء. غير أنها كانت غيوماً مجهولة، مثل زبد البحر، وكان الملح يسافر مع الريح كحبيبات الرمل. لم يعد دانييل يفكر بالهرب. بدأ يمشي بمحاذاة البحر على أهداب الزبد. في كل موجةٍ كان يشعر بأن الرمل يفتل بين أصابع قدميه المتباعدة ثم يرتد. في البعيد، كان الأفق يتضخم وينخفض كأنه تنفس يلقي ضغطه على الأرض.

كان دانييل عطشاً. أخذ في باطن يديه قليلاً من الماء والزبد، وشرب جرعة منه. حرقَ الملح فمه ولسانه، إلا أن دانييل تابع الشرب، لأنه كان يحب طعم البحر. منذ وقت طويل جداً كان يفكر بكلّ هذا الماء ، ماء طليقٌ، لا حدودَ له، كلّ هذا الماء يمكن أن يُشرب منه طيلة الحياة! كان المد الأخير قد رمى على الشاطئ، قطعاً من الخشب والجذور، شبيهة بالعظام الكبيرة. صار الماء يستعيدها ببطءٍ، يرفعها إلى الأعلى قليلاً، ويخلطها مع الأشنيات الكبيرة السوداء.

كان دانييل يسير على حافة الماء، ناظراً بلهفةٍ إلى كلّ شيء، كمن يريد أن يعرف في لحظةٍ واحدة كلّ ما يستطيع البحر أن يطلعه عليه. كان يأخذ في يديه الأشنيات اللزجة وقطعاً من الصدف، يحفر في الطين سراديب الديدان، يبحث في كل مكانٍ، خلال سيره، أو بالأحرى، زحفه على أطرافه الأربع، على الرمل المبلل. كانت الشمس قاسيةً وقوية في السماء، فيما البحر يهدر دون توقف.

من وقتٍ لآخر، كان دانييل يتوقف مواجهاً الأفق، وينظر إلى الأمواج العالية التي كانت تحاول أن تعبر فوق الصخور البارزة. كان يتنفسُ بكل قواه، لاستنشاق النسمات، وكأن البحر والأفق ينفخان رئتيه وبطنه ورأسه، وكأنه أصبح عملاقاً. كان ينظر إلى الماء الداكن، في البعيد، هناك حيث لا أرض ولا زبد وإنما سماءٌ خالية فحسب. إليه كان يتكلم، بصوتٍ منخفض، كما لو أنه يستطيع سماعه، قائلاً:

«تعال! اصعد إلى هنا، تعال! تعال!»

«يا لجمالك، ستأتي وتغطي كل الأرض، كل المدن، ستصعد إلى أعالي الجبال!»

«تعال، بأمواجك، اصعد، اصعد! من هنا، من هنا!»

ثم كان يتراجع، خطوةً فخطوة، إلى أعلى الشاطئ.

وهكذا، تعلم سلوك سير الماء الذي يصعد، وينتفخ، ويمتد كالأيدي في الأودية الرملية الصغيرة. كانت السرطانات الرمادية تركضُ أمامه، رافعة ملاقطها، خفيفة كالحشرات. كان الماء الأبيض يملأ الثقوبَ الغامضة، يُغرق السراديب السرية. كان يصعد، قليلا إلى أعلى مع كل موجة، يوسّع مساحاته المتحركة. أما دانييل فقد كان يرقص أمامه، مثل السرطانات الرمادية، يركض بميلان قليل، رافعاً ذراعيه، والماء يقرص عقبيه. ثم كان ينزل ثانية، ويحفر خنادق في الرمل كي يصعد بشكل أسرع، مدندناً كلامه ليساعده في القدوم:

«هيا، اصعد، هيا أيتها الأمواج، اصعدي أعلى، تعالي إلى أعلى، هيا!»

وصل الماء حتى حزامه، إلا أنه لم يكن يشعر بالبرد، لم يكن خائفاً. كانت ملابسه مخضلةً بالماء، ملتصقةً ببشرته، شعره يغطي عينيه مثل الأشنيات. كان البحر يفور حوله، يتراجع بقوة كبيرة تدفعه إلى التشبث بالرمل، كي لا يقع على ظهره، ثم ما يلبث أن ينقض من جديد دافعاً إياه إلى أعلى الشاطئ.

كانت الأشنيات الميتة تجلد ساقيه، تشابك عرقوبيه، كان دانييل ينزعها، كما لو أنه ينزع الأفاعي قاذفاً إياها في البحر، صارخا:

«أغ! أغ!»

لم يكن ينظر إلى الشمس، ولا إلى السماء. حتى إنه لم يعد يرى الشريط البعيد للأرض، وظلال الأشجار. ما من أحد إلا البحر، فيما كان دانييل طليقاً.

فجأة، بدأ البحر بالصعود بشكلٍ أسرع. كان ينتفخ فوق الصخور البارزة، وصارت الأمواج تأتي من عرض البحر، دون أن يثنيها شيء. عالية وكبيرة، مائلة قليلاً، بذراها التي يتصاعد منها البخار وجوفها الأزرق الداكن

الذي ينحفر أسفلها، مزنرةً بالزبد. كانت تصل سريعةً جداً بحيث لم يُتح لدانييل الوقت الكافي ليكون في مأمن. أدار ظهره ليهرب، فلمست موجةٌ كتفيه، وعبرت فوق رأسه. بغريزته، تشبث دانييل بأظافره في الرمل، وتوقف عن التنفس. سقط الماء عليه بصوتٍ راعد، دائراً في دوامة، مخترقاً عينيه وأذنيه وأنفه.

وبجهد كبير، زحف دانييل نحو الرملِ الجاف. كان مصاباً بدوار شديدٍ بحيث إنه بقي للحظة مستلقيا على بطنه بين خطوط الزبد، دون أن يتمكن من الحركة. إلا أن الأمواج الأخرى كانت تصل، هادرة. ترفع ذراها أكثر علواً وتتعمق أجوافها كالكهوف. لذلك ركض دانييل إلى أعلى الشاطئ، وجلس على رمل الكثبان، في الجانب الآخر من حاجز القوقس. بقية النهار، لم يقترب ثانية من البحر. إلا أن جسده ظلّ يرتعش، وطعم الملح الحارق يغطي بشرته، وحتى في جوفه، وأثر ألق الأمواج في أعماق عينيه.

في الطرف الآخر من الخليج، كان هناك رأسٌ صخري أسود، محفورٌ بالكهوف. أمضى فيه دانييل الأيام الأولى، عند وصوله البحر. كان كهفه، عبارة عن تجويفٍ صغير في الصخور السوداء، مفروش بالحصى الناعم وبالرمل الرمادي. أمضى دانييل فيه كلّ هذه الأيام، دون أن يغادرَ البحرُ قط عينيه.

عندما كان ضوء الشمس يظهر، شاحباً وقاتماً، وعندما يكون الأفق بالكاد مرئياً مثل خيطٌ وسط ألوان السماء والبحر المختلطة، كان دانييل يستيقظ ويخرجُ من الكهف. يتسلق أعلى الصخور السوداء، كي يشرب من ماءِ المطر المتجمع في البرك الصغيرة. كانت طيور البحر الكبيرة تأتي إلى هنا أيضاً، تحلّق حوله بصرخاتها الطويلة الزاعقة، فيحيّها دانييل بصفيره. في الصباح، حين يكون البحر منخفضاً، كانت الأعماق الغامضة تنكشف. برك كبيرة من الماء الداكن، مسيلات تتساقط بين الصخور، دروبٌ زلقة، تلال من الأشنيات الحية. لذا كان دانييل يترك الرأس البحري، وينزل بمحاذاة الصخور

إلى وسط المساحات التي كشفها البحر. كما لو أنه كان يصل وسط البحر ذاته، إلى بلاد غريبة، لا توجد إلا لبضع ساعات.

كان عليه أن يسرع، كانت الحافة السوداء للصخور الناتئة قريبة جداً، وكان دانييل يسمع الأمواج التي تهدر بصوت منخفض، وهمهمة التيارات العميقة. هنا، لم تكن الشمس تسطع لوقتٍ طويل. يعود البحر قريباً ليغطيها بظله، و ينعكس النور عليها بعنف، دون أن يستطيع تدفئتها. كان البحر يُظهر العديدَ من الأسرار، إلا أنه من الواجب تعلمها سريعاً، قبل أن تختفي. كان دانييل يركض على صخور قاع البحر، بين غابات الأشنيات. كانت الرائحة القوية تتصاعد من البرك والأودية السوداء، الرائحة التي لم يكن الناس يعرفونها والتي تصيبهم بالثمالة.

في البرك الكبرى، قربَ البحر، كان دانييل يبحثُ عن السمك والقريدس والأصداف. كان يغمرُ ذراعيه في الماء بين أكوام الأشنيات، وينتظرُ أن تدغدغَ القشريات أطراف أصابعه، فيلتقطها. في البرك، كانت أزهارُ برقوق البحر البنفسجية والرمادية والحمراء بلون الدم، تفتح وتغلق تويجاتها.

على الصخورِ الملساء، كانت تعيشُ الصحنيات[١] البيضاء والزرقاء، والدود الشاطئي البرتقالي، والمحار ذو الصدف الطويل والمدبب، وأم الخلول[٢]. في تجاويف البرك، كان النور يلمع أحياناً على الظهر العريض لسمك التنة، أو على صدفة لبنية اللون لقوقعة. أو كانت تظهر، فجأة، بين أوراق الأشنيات القوقعة الفارغة المتقزحة مثل غيمة لأذن بحر[٣] عجوز،

(١) الصحنيات: نوع من المحار يؤكل ويكثر على الصخور التي تتكشف عند الجزر وتشبه صدفته الصحن (المترجم).

(٢) أم الخلول: جنس من أجناس المحار (المترجم).

(٣) أذن البحر: رخوية مفلطحة الصدفة (المترجم).

شفرة سكين، الشكل الكامل لصدفة سان جاك. كان دانييل ينظر إليها طويلا، حيث هي، عبر زجاج الماء، كما لو كان هو أيضاً يعيش في البركة، في عمق شق صغير، مفتوناً بالشمس، منتظراً ليل البحر.

كان يصطاد الصحنيات لطعامه. كان ينبغي الاقتراب منها، دون صوت، كيلا تلتحم بالحجارة. ثم ينزعها بركلةٍ، بضربها بإبهام القدم. إلا أنه غالباً، ما كانت الصحنيات تسمع صوت خطواته، أو صوت تنفسه، فتلتصق بالصخور الملساء، مصدرةً قرقعةً متتابعة. حين كان دانييل يأخذ ما يكفيه من القريدس والمحار، كان يضع صيده في تجويف مليء بالماء لإحدى الصخور، كي يطهوها فيما بعد في علبة كونسروة على نار الفوقس. ثم يذهبُ بعيداً، تماما إلى طرف سهل عمق البحر، حيث تتكسر الأمواج. هناك حيث كان يعيش صديقه الأخطبوط.

كان هو الذي تعرف دانييل عليه مباشرةً، في اليوم الأول لوصوله أمام البحر، حتى قبل أن يعرف طيور البحر والبرقوق. كان قد جاء إلى شاطئ الأمواج التي تتكسر وتسقط على نفسها، عند توقف البحر والأفق عن الحركة والانتفاخ، وحين بدت التيارات الكبيرة الداكنة كما لو أنها تمسك بنفسها قبل أن تقفز. دون شك، كان المكان الأكثر سرية في العالم، حيث لا يسطع نور النهار فيه إلا للحظات. كان دانييل قد مشى ببطء، متمسكاً بجدران الصخور الملساء، كما لو أنه كان ينزل إلى مركز الأرض. كان قد رأى البركة الكبرى بمياهها الثقيلة، حيث تتحرك الأشنيات الطويلة ببطء، وظل ساكناً، كاد الوجه يلمس السطح. حينها رأى مجسات الأخطبوط طافية أمام جدران البركة. تخرج من شقٍ قرب القاع، شبيهة بدخان، وتنزلق ببطء على الأشنيات. حبس دانييل نفسه، ناظراً إلى المجسات التي كانت بالكاد تتحرك، ملتفةً بألياف الأشنيات.

ثم خرج الأخطبوط. كان الجسد الطويل الأسطواني يتحرك بحذر، وتتهادى مجساته أمامه. تحت النور المنكسر للشمس الزائلة، كانت عيناه الصفراويتان تلمعان مثل معدن تحت الحاجبين البارزين. ترك الأخطبوط مجساته الطويلة ذات الأقراص البنفسجية تطفو للحظة، كما لو أنه كان يبحث عن شيءٍ ما. ثم رأى ظلّ دانييل منحنياً فوق البركة، فقفز إلى الخلف بشّد مجساته، مطلقاً غيمة رمادية زرقاء غريبة.

الآن، مثل كل يوم، وصل دانييل إلى حافة البركة، قريباً من الأمواج. انحنى فوق الماء الشفاف، ونادى الأخطبوط بهدوء. جلس على الصخرة، تاركاً ساقيه العاريتين تغوصان في الماء، أمام الشق الذي كان الأخطبوط يسكن فيه، وانتظر، دون أن يتحرك. بعد برهة شعر بالمجسات التي كانت تلامس بشرته بخفة، ملتفة حول عرقوبيه. كان الأخطبوط يداعبه بحذر، أحيانا بين أصابعه وتحت باطن قدميه، وبدأ دانيل يضحك.

قال دانييل: «يوم سعيد ويات» كان اسم الأخطبوط ويات، إلا أنه بالطبع، لم يكن يعرف ذلك. كان دانييل يكلمه بصوت منخفض، كي لايخيفه. كان يطرح عليه أسئلة عما يجري في قاع البحر، عن ذلك الذي يمكن رؤيته تحت الأمواج. لم يكن ويات يجيب، إلا أنه كان يتابع مداعبة قدمي وعرقوبي دانييل بلطف، كما لو أنه يداعب شعره.

كان دانييل يحبه كثيراً. لم يستطع رؤيته لوقتٍ طويل، لأن البحر سرعان ما كان يصعد. حين يكون الصيد وفيراً، كان دانييل يحملُ إليه سرطانا أو قريدساً، تاركاً إياها في البركة. كانت المجسات الرمادية تبرزُ كالسياط، تمسكُ الفرائس، وتسحبها نحو الصخرة. لم يكن دانييل قد رأى الأخطبوط قطّ وهو يأكل. كان يبقى دائماً مختبئاً في ثغره المظلم ساكناً، بمجساته التي تتهادى أمامه. ربما كان مثل دانييل، ربما سافر طويلاً، كي يجد بيته في قاع البركة، وربما كان ينظر إلى السماء الصافية عبر الماء الشفاف.

عندما كان البحر في أقصى جزره، كان هناك شيء مثل إلهام. كان دانييل يمشي بين الصخور على سجادات الأشنيات، فيما كانت الشمس تبدأ بعكس أشعتها فوق الماء والصخور، مشعلةً أنواراً يملؤها العنف. في تلك اللحظة، لا تكون هناك ريح، ولا أي هبّة. السماءُ الزرقاء واسعةً جداً فوق سطح عمق البحر، تلمعُ بضوءٍ لامثيل له. كان دانييل يشعرُ بالحرارة على رأسه وكتفيه، كان يغلقَ عينيه كيلا يصيبه الألق الرهيب بالعمى. لم يكن هناك شيءٌ آخر، أي شيءٌ آخر: السماء، الشمس، والملح الذين يبدؤون الرقص على الصخور.

في يومٍ انسحب فيه البحرُ بعيداً، بحيث صار لا يبدو في اتجاه الأفق إلا كشريطٍ رفيعٍ أزرق. سار دانييل عبر صخور عمق البحر. شعر فجأةً بنشوةِ هؤلاء الذين دخلوا إلى أرضٍ عذراء، والذين يدركون بأنهم ربما لن يستطيعوا العودة. في هذا اليوم، لم يكن هناك شيءٌ شبيهٌ بهذا، كلّ شيءٍ كان مجهولاً وجديداً. استدار دانييل فرأى اليابسة بعيداً خلفه، شبيهة ببحيرةٍ من طين. أحسّ بالوحدة أيضاً، بصمتِ الصخور العارية التي حتّتها ماءِ البحر، بالقلقِ الذي كان يخرجُ من كلّ الشقوق، من كلّ الآبار السرية، فسار على نحوٍ أسرع، ثم أخذ يركض. كان قلبه يخفق بقوةٍ في صدره، كما في اليوم الأول لوصوله أمام البحر. كان دانييل يركض دون أن يستعيد نفسه، يقفز فوق البرك وأودية الأشنيات، متبعاً النتوءات الصخرية، رافعاً ذراعيه للمحافظة على توازنه.

كانت هناك أحياناً بلاطاتٌ واسعةٌ دبقةٌ، مغطاةٌ بأشنياتٍ مجهرية، أو بصخورٍ حادة كالشفرات، بأحجارٍ غريبة شبيهة بجلد سمك القرش. في كلّ مكانٍ، كانت بركُ الماءِ تلمعُ وترتجف. كانت الأصداف المرصعة بين الصخور تطقطق تحت الشمس، فيما كانت لفائف الأشنيات تبعثُ صوتاً غريباً كالبخار.

كان دانييل يركض دون أن يعرف إلى أين يذهب، وسطَ أرض عمق البحر، دون أن يتوقف لرؤية حدود الأمواج، كان البحرُ قد اختفى الآن، انسحبَ إلى الأفق، كما لو أنه قد سال عبر ثقبٍ يصل إلى مركز الأرض.

لم يكن دانييل خائفاً، إلا أنه لم يعد هو نفسه تماماً. لم يكن ينادي البحر، لم يعد يكلمه. كان ضوء الشمس ينعكسُ على ماء البرك كما على المرايا، يتكسر على أسنة الصخور، يقفزُ قفزاتٍ سريعة، يضاعفُ بريقه. كان النور في كل مكانٍ في وقت واحد، قريباً جداً بحيث إنه كان يشعرُ بمرور أشعة قاسية على وجهه، أو بعيداً جداً كلمعان الكواكب البارد. بسببه، كان دانييل يركضُ عبر السهل الصخري بخطٍ معوجٍ. جعله النورُ طليقاً ومجنوناً، يقفزُ كما يقفز، دون أن يرى. لم يكن النورُ لطيفاً وهادئاً، مثل نور الشواطئ والكثبان. كان دوامة خرقاء، تتدفق دون توقف، ترتدُ بين مرآتي السماء والصخور.

على نحو خاص، كان الملح قد تراكم في كل مكان، منذ أيام، على الحجارة السوداء، وعلى الحصى، وفي قواقع الرخويات وحتى على الأوراق الشاحبة الصغيرة للنباتات الكثيفة، في سفح الجرف. كان الملح قد اخترقَ بشرة دانييل، وتموضّع على شفتيه، وعلى حاجبيه وأهدابه، وعلى شعره وملابسه، فأصبح مثل قوقعة قاسية مُحرقة. حتى إن الملح دخل إلى جوفه، وإلى حلقه، وإلى بطنه، وحتى إلى مخ عظامه، كان ينخرُ ويصّر كغبار الزجاج، يضيء ألقاً في شبكية عينيه المتألمة. كان ضوءُ الشمس يهيّج الملح، وصار كلّ شعاعٍ يلمع على جسده وحوله. لذلك، كان هناك هذا النوع من النشوة، وهذه الكهرباء التي تتذبذب، لأن الملح والنور لم يكونا يريدانه أن يبقى في مكانه، كانا يريدانه أن يرقص، أن يجري، أن يقفز من صخرةٍ إلى أخرى، كانا يريدانه أن يهرب عبر أعماق البحر.

لم يكن دانييل قد رأى قط بياضاً كهذا البياض. حتى ماء البرك، والسماء كانا أبيضين. كانا يحرقان شبكية العينين. أغلق دانييل العينين تماماً وتوقف، لأن ساقيه كانتا ترتجفان ولم تعودا تقويان على حمله. جلسَ على صخرةٍ مسطحة، أمام بركةٍ من ماء البحر. استمعُ إلى صخبِ النور الذي كان يقفز على الصخور، وإلى كلّ أصوات القرقعة والفرقعة والأزيز، وقرب أذنيه، الهفيف الحاد الشبيه بشدو النحل. كان يشعرُ بالعطش، لكنه، كان عطشاً لا يستطيع أي ماءٍ أن يرويه. كان النور يتابع لفح وجهه، يديه، كتفيه، ينهشه بآلاف الوخزات والتنملات. بدأت الدموع المالحة تسيل ببطء من عينيه المغلقتين، تخطّ شقوقاً حارةً على خديه. فتح جفنيه بمشقةٍ، ونظر إلى حقل الصخور البيضاء، الصحراء الكبيرة حيث كانت برك الماء الثقيل تلمع. كانت الحيوانات البحرية والأصداف قد اختفت في الشقوق، تحت ستارة الأشنيات.

انحنى دانييل إلى الأمام على الصخرة المسطحة، واضعاً قميصه على رأسه، كي لا يرى النور والملح. ظلّ لوقتٍ طويل ساكناً، الرأسُ بين ركبتيه، فيما كان الرقصُ الحارق يعبرُ ويعاود العبور فوق عمق البحر.

ثم جاءت الريحُ والتي كانت تسير بمشقةٍ في الهواء الثقيل، ضعيفةً في البداية. اشتدت الريح، الريحُ الباردة الخارجة من الأفق، فيما كانت برك ماء البحر ترتجف مغيّرة ألوانها. غطت الغيوم السماء، وأعاد النور التحامه. سمعَ دانييل هدير البحر القريب، الأمواجُ القوية التي كانت بطونها تلطمُ الصخور. بلّلت قطرات الماء ملابسه، فاستفاق من خدره.

كان البحر هنا. كان يأتي سريعاً، يحيطُ بسرعةٍ كبيرة بالصخور الأولى مثل الجزر، يُغرق الصدوع، ينزلق بصخب نهر يفيض. في كلّ مرة كان يلتهم فيها قطعةً من الصخور، يَحدثُ صوتٌ مخنوقٌ يزعزع الهضبة، ودويٌ في الهواء.

نهض دانييل قافزاً. شرع راكضاً نحو الشاطئ، دون توقف. الآن، لم يعد يشعر بالنعاس، ولم يعد يخشى الضوء والملح. كان يشعر بنوعٍ من الغضب في أعماق جسده، بقوةٍ لم يكن يفهمها، كما لو أنه قد استطاع أن يحطمَ الصخور وأن يحفرَ الصدوع، هكذا، بضربةٍ واحدة بكعبه. كان يركض أمام البحر، متبعاً اتجاه الريح، يسمع من خلفه هدير الأمواج. كان يصرخ من وقتٍ لآخر، هو أيضاً، مقلداً إياها:

«رام! رام!»

بما أنه كان هو الذي يوجه البحر.

كان عليه أن يركض بسرعة! كان البحر يريد أن يأخذ كلّ شيءٍ، الصخور، الأشنيات، وأيضاً ذلك الذي كان يركض أمامه. كان يمد ذراعاً تارةً نحو اليسار، وتارةً نحو اليمين، ذراعاً طويلة رمادية مبّقعة بالزبد تقطع طريق دانييل، كان يقفز جانباً، يبحث عن ممرٍ في قمة الصخور، فيما كان الماء يتراجع مرتشفاً ثقوب الصدوع.

اجتاز دانييل سباحةً عدة بحيراتٍ عكرة. لم يعد يشعر بالتعب. بل كان يشعر بداخله بنوع ما من الفرح، كما لو أن البحر والريح والشمس أذابوا الملح وأطلقوه.

كان البحرُ جميلاً! والحزم البيضاء تنفجر في النور، عاليةً، منتصبةً، ثم تسقطُ ثانيةً كغيوم بخار تنزلق في الريح. كان الماء الجديد يملأ شقوق الصخور، يغسل القشرة البيضاء، يقتلع حزم الأشنيات. في البعيد، قرب الجروف، كان طريق الشاطئ الأبيض يلمع. كان دانييل يفكر بحكاية غرق السندباد، عندما حملته الأمواج إلى جزيرة الملك مهراج. الأمر ذاته يجري الآن. كان يركض بسرعة على الصخور، وقدماه الحافيتان تختاران الممرات الأفضل، دون أن يجد الوقتَ ليفكر بها. دون شك كان قد عاش هنا منذ الأزل، في عمق البحر، وسط السفن الغارقة والعواصف.

كان يركضُ بسرعةِ البحر، دون توقف، دون أن يستعيد نفسه، مستمعاً إلى صخب الأمواج. كانت تأتي من الطرف الآخر من العالم، عالية، منحنية إلى الأمام، حاملة الزبد، منزلقةً على الصخور الملساء، متحطمةً على تصدعات الصخور.

كانت الشمس تلمع ببريقٍ ثابت، قرب الأفق. منها كانت تأتي كلَّ هذه القوة، كان نورها يدفع الأمواجَ إلى الأرض. كان رقصاً لا يمكن له أن ينتهي، رقصُ الملح حين يكون البحر في جزره، ورقص الأمواج والريح عندما يصعد المّد نحو الشاطئ.

دخل دانييل المغارة عند وصول البحر إلى جدار الفوقس. جلس على الحصى كي ينظر إلى البحر والسماء. إلا أن الأمواج تجاوزت الأشنيات، مما دعاه إلى التراجع داخل المغارة. كان البحر يضرب على نحو مستمرٍ، ملقياً أغطيته البيضاء المرتعشة على الحصى كما لو أنه ماءٌ يغلي. كانت الأمواجٍ تتابع الصعود، على هذا النحو، واحدةً وراء أخرى إلى أن وصلت آخر حاجز من الأشنيات والعساليج[١]. وصل الماء إلى الأشنيات الأكثر جفافاً، وأغصان الأشجار التي ابيضت بفعل الملح، كلّ ما تراكم على مدخل المغارة منذ أشهر. كان الماء يصطدم بالبقايا، يشتتها، يأخذها في ارتداد الموج. الآن، أسند دانييل ظهره على الحائط الجوفي للمغارة. لم يعد قادراً على التراجع أكثر. لذا نظر إلى البحر لإيقافه. نظر إليه بكل قوته، دون أن يتكلم. كان يُرجع الأمواج إلى الخلف بموجات مضادة تكسر وثوب البحر.

قفزت الأمواج عدة مرات فوق جدار الأشنيات والبقايا، راشةً عمق المغارة، ومحيطةً بساقي دانييل. ثم توقف البحر فجأة عن الصعود. انخفض صوت الصخب المرعب، وأصبحت الأمواج أكثر هدوءاً، وأكثر بطئاً، كما لو أنها كانت مثقلةً بالزبد. فهم دانييل بأن الأمر قد انتهى.

---

(١) العسلوج: غصن دقيق أملس ينتهي غالباً ببرعم ثمري.

تمدد على الحصى، عند مدخل الكهف، رأسه ملتف نحو البحر. كان يرتعش من البرد والتعب، إلا أنه لم يكن قد عرف قط سعادةً مثل هذه السعادة. وهكذا غفى، في سلام هادئ، فيما خفت ضوء الشمس ببطء مثل شعلة تنطفئ.

ما الذي جرى له فيما بعد؟ ما الذي فعله، كلّ هذه الأيام، كلّ هذه الشهور، في كهفه، أمام البحر؟ ربما، كان قد غادر حقا إلى أمريكا، أو إلى الصين، على ظهر سفينة شحن، تسيرُ ببطءٍ، من ميناء إلى ميناء، من جزيرة إلى جزيرة. الأحلام التي تبدأ يجب أن لا تتوقف. هنا، بالنسبة لنا، نحن الذين نعيش بعيداً عن البحر، كان كلّ شيء مستحيلاً وسهلاً. كلّ ما كنا نعرفه، أن ما حدث كان أمراً غريباً.

كان غريباً، لأن فيه وجهاً غير منطقي يُبطل كلّ ما كان يقوله الناس الجديون. فعلوا الكثير في كل الاتجاهات، كي يجدوا أثر دانييل سندباد، الأساتذة والمراقبون ورجال الشرطة، طرحوا الكثير من الأسئلة، وفي أحد الأيام، اعتباراً من تاريخٍ محدد، تصرفوا كما لو أن دانييل لم يكن موجوداً قط. كفّوا عن الكلام عنه. أرسلوا أغراضه، وحتى أوراق امتحاناته القديمة، إلى والديه، ولم يبق شيءٌ منه في الثانوية سوى ذكراه. حتى هذه، ما عاد الناس يريدونها. عادوا إلى الكلام، كما كان الأمر من قبل، عن أشياء وأشياء أخرى، عن نسائهم وعن منازلهم، عن سياراتهم وعن الانتخابات المحلية، كما لو أن شيئاً لم يحدث.

ربما كانوا لا يفعلون ذلك متظاهرين، ربما كانوا فعلا قد نسوا دانييل، من فرط ما فكروا به خلال أشهر. ربما إذا عاد، وحضر إلى باب الثانوية، لن يعرفه الناس، وسيسألونه:

«من أنت؟ ماذا تريد؟»

أما نحن، فلم ننسه. لم ينسه أحد في العنبر، في الصفوف، في الباحة، حتى هؤلاء الذين لم يعرفونه. كنا نتكلم عن أمور الثانوية، عن المسائل والترجمات. إلا أننا كنا نفكر به دائماً، كما لو أنه حقاً سندباد وأنه يتابع تجواله في العالم. من وقتٍ لآخر، كنا نتوقف عن الكلام، فيسأل أحد ما، دائماً، ذات السؤال:

«أتحسب أنه هناك؟»

لا أحد يعرف بالضبط ماذا تعني «هناك»، إلا أن الأمر كان يبدو كما لو أننا نرى ذلك المكان، البحر الواسع، السماء، الغيوم، أرصفة البحر البرية، الأمواج، الطيور الكبيرة البيضاء التي تحلق في الريح.

عندما كان النسيم يهز أغصان الكستناء، كنا ننظر إلى السماء، ونقول بشيءٍ من القلق، على طريقة البحارة:

«ستهب العاصفة»

وعندما كانت تسطع شمس الشتاء، في السماء الزرقاء، كنا نعلق:

«إنه محظوظ، اليوم.»

غير أننا لم نكن نقول شيئاً أكثر من ذلك، لأنه كما لو أن هناك عهداً عقدناه مع دانييل، دون أن نعرف، تحالف خفي، صامت، عقدناه ذات يوم معه. أو ربما، أن هذا الحلم الذي كنا قد بدأناه، ببساطة ذات صباح، حين فتحنا أعيننا على سرير دانييل في ظل العنبر، والذي رسمه دانييل لبقية حياته، كما لو أنه كان يجب أن لا يعود للنومِ أبداً.

هازران

لم يكن «سّدُ الفرنسيين» حقاً مدينة، حيث لم تكن هناك منازلٌ أو شوارع، بلّ مجردَ أكواخٍ من الألواح الخشبية والورق المقطرن والتراب المجبول. علّها كانت تدُعى بهذا الاسم لأنها مسكونةٌ من قبل إيطاليين ويوغسلاف وأتراك وبرتغاليين وجزائريين وأفارقة، من بنائين وحفارين وفلاحين غير متيّقنين من أنهم سيجدون عملاً، ولا يعرفون مطلقاً إن كانوا سيبقون سنةً أو يومين. كانوا يصلون إلى هنا، إلى السّد، قرب المستنقعات التي تحيط بمصب النهر، ويستقرون هنا حيث يستطيعون، ويبنون أكواخهم ببضع ساعات. كانوا يشترون الألواح الخشبية من الراحلين، ألواحٌ قديمةٌ، ملأى بالثقوب التي يُرى منها ضوء النهار. كانوا يضعون للسقف أيضاً ألواحاً خشبية وأوراقاً كبيرة مقطرنة، أو قطعاً من الصفائح الحديدية المتمّوجة المثبتةً بسلكٍ حديدي وحجارة، حين يحالفهم الحظ بالعثور عليها، فيما كانوا يسّدون الثقوب ببقايا خرق القماش.

كانت علياء تعيش هنا، غرب السّد، ليس بعيداً عن منزل مارتان. جاءت إلى هنا في ذات الفترة التي جاء فيها، تماماً عند نشأة السد، حين لم يكن عدد الأكواخ يتجاوز العشرين، والأرض لا زالت رخوة، بحقولٍ كبيرة من العشب والقصب على حافة المستنقع. كان والدها ووالدتها قد ماتا إثر حادثٍ، حين كانت لا تعرف شيئاً سوى اللعب مع الأطفال الآخرين، فأخذتها عمتها لتعيش معها. بعد أربع سنوات، كَبُر السد، أصبح يغطي الضفة اليسرى من المصّب، يبدأ عند منحدر الطريق الكبير وينتهي عند البحر، مع مئات من

حارات التراب المجبول والكثير من الأكواخ التي لا تحصى. كانت تتوقف العديد من الشاحنات كلّ أسبوع، عند مدخل السّد، لإنزال العائلات الجديدة واصطحاب تلك العائلات الراحلة. في أثناء ذهابها لجلب الماء من المضخة، أو لشراء الرز والسردين من التعاونية، كانت علياء تتوقف لمشاهدة القادمين الجدد الذين يستقرون حيث لا تزال هناك أمكنة. أيضاً، كانت الشرطة تأتي أحياناً عند مدخل السّد لتحقق، ولتسجل المغادرين والقادمين في دفتر.

كانت علياء تذكر جيداً اليوم الذي وصل فيه مارتان. في المرة الأولى التي رأته فيها، نزل من شاحنة مع أشخاصٍ آخرين. كان وجهه وملابسه رماديين من الغبار، إلا أنها انتبهت إليه مباشرةً. رجلٌ غير مألوف، طويلٌ ونحيف، ذو وجهٍ أسود من الشمس، مثل بحارٍ. كان من الممكن الظن أنه عجوز، بسبب تجعدات جبهته ووجنتيه، غير أن شعره كان غزيراً شديد السواد، تلمعُ عيناه بقوةٍ مثل المرايا. كانت علياء تحسبُ أنه يملك العينين الأكثر إثارة في السّد، وربما في كل البلاد. لذلك، انتبهت إليه.

ظلّت ساكنة حين عبر جانبها. كان يمشي ببطءٍ، ناظراً حوله، كما لو أنه جاء لمجردِ زيارة المكان، وأن الشاحنة ستحمله بعد ساعة. إلا أنه بقي هنا.

لم يستقر مارتان وسط السّد. ذهب تماماً إلى طرف المستنقع، حيث تبدأ حصى الشاطئ. بنى وحده كوخه هناك، على هذه القطعة من الأرض، التي لا يرغبها أحدٌ غيره، بسبب بعدها عن الطريق ومضخات الماء العذب. كان منزله حقاً آخر منزلٍ في المدينة.

كان مارتان قد بناه بنفسه، دون مساعدةِ أحد، كانت علياء تحسب أنه أيضاً المنزل الأكثر إثارةً للاهتمام في المنطقة، بطرازه. كوخٌ مستدير، دون فتحات سوى بابٍ منخفض، لا يستطيع مارتان عبوره واقفاً. صُنع السقف من الورق المقطرن، مثل الأكواخ الأخرى، لكن على شكل غطاء. حين يُشاهد منزل مارتان من بعيد، في ضباب الصباح، وحيداً وسط الأرض المهجورة، عند حدود المستنقع والشاطئ، كان يبدو أكبر وأعلى، مثل برج قصرٍ.

لذا كان الاسم الذي منحته علياء له، منذ البداية: القصر. كان الناس الذين لا يحبون مارتان ويستهزؤون منه بعض الشيء، مثل مدير التعاونية، يقولون بأنه مثل جُحر، لغيرتهم. كان شيئاً غريباً، حيث إن مارتان كان فقيراً جداً، أفقر من أي شخص في هذه المدينة، إلا أن هذا المنزل الخالي من النوافذ كان يمتلك شيئاً من الغموض، ومهيباً بحيث أنه لم يكن يُفهم، ويثيرُ الفزع.

كان مارتان يسكن هنا وحيداً، منعزلاً. أحاط صمتٌ دائمٌ منزله، لاسيما في المساء، صمتٌ يجعلُ كل شيء بعيداً وخيالياً. حين كانت الشمس تلمع فوق الوادي المغبّر والمستنقع، مارتان يبقى جالساً على صندوقٍ أمام باب منزله. لم يكن الناس يذهبون غالباً إلى هذه الناحية، ربما لأن الصمت كان يفزعهم حقاً، أو لأنهم كانوا لا يريدون أن يزعجوا مارتان. في الصباح والمساء، كانت تمر أحياناً النسوة الباحثات عن الحطب والأطفال العائدين من المدرسة. كان مارتان يحب الأطفال، يكلّمهم بلطفٍ، لهم وحدهم يبتسم حقاً. لذا كانت عيناه تصبحان جميلتين جداً، تلمعان مثل مرايا الحجارة، يملؤهما النور الصافي الذي لم تره علياء في مكانٍ آخر. كان الأطفال يحبونه أيضاً، لمعرفته برواية الحكايات وطرح الأحاجي. بقية الوقت، لم يكن مارتان يعمل حقاً، إلا أنه كان يجيد إصلاح أشياء صغيرة في مسننات الساعات، وأجهزة الراديو ومواقد الكيروسين. كان يقوم بذلك دون مقابل، لأنه لم يكن يريد لمسَ النقود.

لذلك، منذ وصوله إلى هنا، كان الناس يرسلون أطفالهم كلّ يوم حاملين شيئاً من الطعام في صحون، بطاطا، سردين، رز، خبز، أو القليل من القهوة الساخنة في كأس. كانت النساء يأتين أيضاً، في بعض الأحيان، يقدمن له الطعام، فيما كان مارتان يشكرهن ببضع كلمات. عند انتهائه من طعامه، كان يعيد الصحن للأطفال. كان كما لو أنه يريد أن يُدفع له بهذه الطريقة.

كانت علياء تحب زيارة مارتان، لسماع حكاياته ورؤية لون عينيه. كانت تأخذ قطعةً من الخبز في الحافظة، وتجتاز السّد لتصل القصر. عند وصولها، كانت تشاهد الرجل جالساً على صندوقه، أمام منزله، يصلح مصباحاً غازياً، فكانت تجلس على الأرض لتنظر إليه.

في المرة الأولى التي جاءت فيها حاملةً له الخبز، نظر إليها بعينيه المليئتين بالنور وقال لها:

«يوم سعيد، يا قمر.»

«لماذا تدعوني بقمر؟» سألت علياء.

ابتسم مارتان فيما عيناه صارتا أكثر لمعاناً.

« لأنه اسمٌ يعجبني. ألا تريدين أن أدعوك قمر؟»

«لا أعرف. لم أعتقد أن ذلك اسماً.»

«اسمٌ جميل» قال مارتان. «ألم تنظري إلى القمر حين تكون السماء صافيةً جداً وشديدة السواد، في الليالي الباردة جداً؟ إنه دائري تماماً ووديع، وأنا أجدكِ مثل ذلك.»

ومنذ ذلك اليوم ناداها مارتان دائماً بهذا الاسم: قمر، قمر الصغيرة. كان لديه اسمٌ لكلّ طفلٍ يأتي لرؤيته، اسم كوكب أو فاكهة أو حيوان، أسماء تجعلهم يضحكون. لم يكن مارتان يتكلم عن نفسه، ولم يكن أحد يتجرأ على سؤاله عن أي شيء. بدا كما لو أنه كان هنا دائماً، في السّد، قبل الآخرين، حتى قبل أن يُبنى الطريق والجسر الحديدي ومدرج هبوط الطائرات. كان يعرف بالتأكيد أشياءً لا يعرفها الناس هنا، أشياء قديمة جداً وجميلة جداً، يحفظها داخل رأسه وتجعل النور يلمع في عينيه.

كان ذلك غريباً، لأن مارتان لم يكن يملك شيئاً، حتى كرسياً أو سريراً. لم يكن هناك شيءٌ في منزله سوى حصيرة للنوم على الأرض وإبريق ماء على صندوق. لم تكن علياء تفهم جيداً، إلا أنها كانت تشعر كما لو أنه كان يرغب في عدم الاحتفاظ بشيء. كان ذلك غريباً، لأن ذلك كان مثل قطعة نور صاف يلمع دائماً في عينيه، مثل هذه البرك المائية التي تكون أكثرَ صفاءً وأكثر جمالاً حين لا يكون شيءٌ في عمقها.

عند انتهائها من عملها، كانت علياء تخرج من منزل عمتها، تضّمُ في قميصها قطعة الخبز، وتذهب لتجلس أمام مارتان. كانت تحب أيضاً أن تنظر إلى يديه، عند إصلاحه للأشياء. كانت يداه كبيرتين، اسودتا بالشمس، ذات أظافر مكسورة مثل الحفارين والبناءين، لكنهما أكثر خفةً ومهارة، تعرفان عمل العقد بخيوط رقيقة وتدوير الحلزونات التي بالكاد كانت ترى. كانت يداه تعملان عنه، دون أن تشغلانه ودون أن يراهما، فيما عيناه مسمرتين بعيداً، كما لو أنه كان يفكر بشيءٍ آخر.

«بماذا تفكر؟» سألت علياء.

نظر إليها الرجل مبتسماً.

«لماذا تسألينني ذلك يا قمر الصغيرة؟ وأنت بماذا تفكرين؟»

ركزت علياء وفكرت.

«أفكر بأنه لا بّد أن يكون المكان الذي جئت منه مكاناً جميلاً.»

«ما الذي جعلك تعتقدين ذلك؟»

«لأن..»

لم تجد جواباً فاحمر وجهها.

«إنك على حق» قال مارتان «إنه جميلٌ جداً»

«أفكر أيضاً بأن الحياة هنا حزينة» قالت علياء أيضاً.

«لماذا تقولين ذلك؟ لا أجدها كذلك.»

«ما من شيءٍ هنا، إنه مكانٌ قذر، يتوجب الذهاب لجلب الماء من المضخة، هناك ذباب وجرذان وكلّ الناس فقراء جداً.»

«أنا أيضاً فقير» قال مارتان. «ومع ذلك لا أجده سبباً للحزن.»

فكرت علياء مرة أخرى.

«إذا كان المكان الذي جئت منه جميلاً جداً، لماذا رحلت، ولماذا جئت إلى هنا حيث كلّ شيء قذرٌ جداً وقبيحٌ جداً؟»

كان مارتان ينظر إليها بانتباه، فيما كانت علياء تبحث في نور عينيه عن كلّ ما تستطيع أن ترى من هذا الجمال الذي تأمله الرجلُ قديماً، البلاد الواسعة ذات الانعكاسات العميقة والمذهبّة التي ظلّت حية في لون قزحيتيه. غير أن صوت مارتان كان أكثر رقةً، مثل صوته عند رواية حكاية.

«هل تستطعين أن تكوني سعيدة حين تأكلين كلّ ما تحبينه يا قمر الصغيرة، إن كنت تعرفين بأن ثمة عائلة إلى جانبك لم تأكل منذ يومين؟»

هزت علياء رأسها.

«هل تستطعين أن تكوني سعيدة بالنظر إلى السماء والبحر والأزهار، أو بالانصات إلى غناء الطيور، إن كنت تعرفين أن هناك طفلاً محبوساً إلى جانبك في المنزل المجاور دون سبب، ولا يستطيع أن يرى وأن يسمع وأن يشم شيئاً؟»

«لا» قالت علياء. «سأذهب أولاً لفتح باب منزله كي يستطيع الخروج.»

في الوقت الذي كانت تقول فيه ذلك، فهمت بأنها أجابت على سؤالها. نظر مارتان إليها مرة أخرى مبتسماً، ثم تابع إصلاح الغرض، بشيء من الشرود، دون أن ينظر إلى حركة يديه.

لم تكن علياء متأكدةً من أنها مقتنعة. فقالت:

«على أي حال، لا بد أن بلدك حقاً جميلٌ جداً.»

حين انتهى الرجل من العمل، نهض وأخذ علياء من يدها. وقادها ببطء إلى الأرض المهجورة، أمام المستنقع.

«انظري.» قال. كان يشير إلى السماء والأرض المنبسطة ومصب النهر الذي ينفتح على البحر. «ها هو ذا، من كلّ ذلك جئت.»

«كلّ ذلك؟»

«كل ذلك، نعم، كلّ ما ترينه.»

ظلّت علياء للحظة طويلة واقفةً، لا تتحرك، تنظر قدر ما تستطيع إلى أن شعرت بالألم في عينيها. كانت تنظرُ بكلِّ قواها، كما لو أن السماء ستنفتح في النهاية وتظهر كل هذه القصور وهذه الحدائق الملأى بالفاكهة والطيور، كان الدوار يجبرها على إغلاق عينيها.

حين التفتت، كان مارتان قد رحل. كان ظلّه العالي النحيف يمشي بين صفوف الأكواخ، نحو الطرفِ الآخر من المدينة.

منذ ذلك اليوم، بدأت علياء بالنظر إلى السماء، بالنظر إليها فعلاً، كما لو أنها لم تكن قد نظرت إليها قط. كانت تخرج برهةً، في بعض الأحيان، أثناء عملها في منزل عمتها، لترفع رأسها في الهواء. وعند عودتها، كانت تشعر بشيء ما يتابع التموج في عينيها وفي جسدها، وتصطدم بالأثاث، لأن شبكتي عينيها تكونان مبهورتين.

حين علم بقية الأطفال من أين جاء مارتان، دهشوا جداً. في تلك الفترة، صار الكثير من الأطفال هنا، في السّد، يتنزهون برؤوسٍ مرفوعة في الهواء، لرؤية السماء فيصطدمون بالأعمدة. كان الناس يتساءلون عما قد أصابهم. لعلهم كانوا يظنّون أنها لعبةٌ جديدة.

أحياناً، لم يكن أحدٌ يعرف لماذا، كان مارتان يمتنع عن الأكل. كان الأطفال يجيئون حاملين صحون الطعام، مثل كلّ صباح، فيرفض بلطفٍ، قائلاً:

«لا، شكراً، ليس اليوم.»

حتى عند حضور علياء، مع قطعة خبزها التي تضمها في قميصها، كان يبتسم بلطفٍ هازاً رأسه. لم تكن علياء تفهم لماذا كان الرجل يرفض أن يأكل، لأن كلّ ما حول المنزل على الأرض وفي السماء كان عادياً. هناك في

السماء الزرقاء، الشمس، غيمةٌ أو غيمتان، ومن وقتٍ لآخر كانت طائرةٌ نفاثة تهبط أو تقلع. في حارات السّد، كان الأطفال يلعبون ويصرخون، فيما تناديهن النساء وتأمرهن بكلّ اللغات. لم تكن علياء ترى ما الذي يمكن أن يكون قد تغيّر. إلا أنها كانت تجلس على أية حال أمام مارتان، مع طفلين أو ثلاثة أطفال آخرين، بانتظار أن يكلمهم.

لم تكن حالة مارتان مثل بقية الأيام، عندما لا يأكل، كان وجهه يبدو أكثر شيخوخةً، وتلمعُ عيناه على نحوٍ مختلف، بالوميض القلق للناس المصابين بالحمى. كان مارتان ينظر إلى البعيد، فوق رؤوس الأطفال، كما لو أنه كان يرى أبعدَ من الأرض والمستنقع، في الطرف الآخر للنهر والتلال، بعيداً جداً، إلى مكانٍ قد يحتاج أشهراً وأشهراً للوصول إليه.

خلال هذه الأيام، كان نادراً ما يتكلم، ولم تكن علياء تطرح عليه الأسئلة. كان الناس يأتون، مثل الأيام الأخرى، ليطلبوا منه خدمةً ما، إلصاق زوج من الأحذية، أو إصلاح رقاص ساعة، أو لمجرد كتابة رسالة. إلا أن مارتان كان بالكاد يجيب، يهز الرأس ويقول بصوتٍ منخفض، بالكاد يحرك شفتيه:

«ليس اليوم، ليس اليوم...»

فهمت علياء بأنه ليس هنا خلال تلك الأيام، وأنه كان حقاً في مكانٍ آخر، حتى وإن كان جسده لا يتحرك، مستلق على الحصيرة داخل المنزل. ربما كان قد عاد إلى بلاده الأصلية، حيث كلُّ شيء بديع، وكلّ الناس أمراء أو أميرات، هذه البلاد التي أشار ذات يوم إلى طريقها الذي يجتاز السماء.

كلّ يوم، كانت علياء تعود مع قطعة خبزٍ جديدة، انتظاراً لعودته. كان يستمر ذلك أحياناً وقتاً طويلاً جداً، كانت ترتعب بعض الشيء عند رؤية وجهه الذي يتجوف، ويصبح رمادياً كما لو أن النور قد توقف عن الاشتعال، ولم يبق إلا الرماد. ذات صباح، عاد، ضعيفاً جداً بالكاد يمشي من فراشه إلى الأرض المهجورة أمام منزله. حين رأى علياء، نظر إليها باسماً بوهن، فيما كانت عيناه كامدتين من التعب.

«عطشان» قال، كان صوته بطيئاً وأجش.

وضعت علياء قطعة الخبز على الأرض، وركضت عبر المدينة لإحضار دلو ماء. حين عادت لاهثة، شرب مارتان طويلاً من الدلو. ثم غسل وجهه ويديه، وجلس على الصندوق، في الشمس، يأكل قطعة الخبز. قام بعدة خطوات حول المنزل، ناظراً حوله. كان ضوء الشمس يدفئ وجهه ويديه، فيما كانت عيناه تبدأان باللمعان من جديد.

نظرت علياء إلى الرجل بنفاذ صبرٍ. متجرئةً على سؤاله:

«كيف كان ذلك؟»

بدا كما لو أنه لم يفهم.

«كيف كان ماذا؟»

«كيف كان المكان الذي ذهبت إليه»

لم يجب مارتان. ربما لم يكن يذكر شيئاً. كما لو أن ما مرّ به كان مجرد منام. كان يبدأ بالعودة إلى الحياة والحديث كالماضي، جالساً في الشمس أمام باب منزله، يصلح الآلات المكسورة أو ماشياً في حارات السّد يحيّ الناس العابرين.

فيما بعد، سألته علياء مرةً أخرى:

«لماذا لا تريد الأكل في بعض الأحيان؟»

«لأنه ينبغي أن أصوم»، قال مارتان.

فكرت علياء.

«ماذا يعني الصوم؟»

ثم أضافت بعد ذلك:

«هل هو مثل السفر؟»

غير أن مارتان ضحك:

«يا لها من فكرةٍ غريبة! لا، الصوم هو حين لا تكون لدينا الرغبة بالأكل.»

كيف يمكن أن لا تكون لدينا الرغبة في الأكل؟ فكرت علياء. لم يقل لها أحد شيئاً غريباً كهذا. رغماً عنها، فكرت أيضاً بكلّ أطفال السّد الذين كانوا يبحثون طيلة النهار عن شيءٍ يأكلونه، حتى هؤلاء غير الجائعين. فكرت بهؤلاء الذين كانوا يذهبون ويسرقون من المحلات الكبيرة، قرب المطار، بهؤلاء الذين كانوا يسرقون الفاكهة والبيض من المزارع المحيطة.

أجاب مارتان في الحال، كما لو أنه قد سمع ما كانت تفكر فيه علياء.

«هل كنت عطشى جداً ذات يوم؟»

«نعم»، قالت علياء.

«حين تكونين عطشى، هل ترغبين بالأكل؟»

هزت رأسها.

«لا، أليس كذلك؟ ترغبين فقط بالشرب رغبةً شديدة. تشعرين بأنك تستطيعين أن تشربي كلّ ماء المضخة، وفي هذه اللحظة، إن أُعطيت صحناً كبيراً من الطعام، سترفضينه، لأن ما تحتاجين إليه هو الماء.»

توقف مارتان عن الكلام للحظة. وابتسم.

«كذلك، حين تكونين جائعة، لن تودي أن يعطيك أحد إبريق ماء. ستقولين، لا، ليس الآن، أريد أن آكل أولاً، آكل بقدر ما أستطيع، وبعد ذلك، إن ظل هناك مكانٌ صغير، سأشرب الماء.»

«لكنك لا تأكل ولا تشرب!» هتفت علياء متعجبة.

«هذا ما كنت أريد أن أقوله لك، يا قمر الصغيرة»، قال مارتان.

«حين نصوم، لا تكون لدينا رغبةٌ بالطعام ولا الماء، لأنه تكون لدينا رغبةٌ شديدة بشيءٍ آخر، شيءٌ أهم من الأكل والشرب.»

«وبماذا، إذن، نرغب؟» سألت علياء.

«الله»، قال مارتان.

قال ذلك بكلّ بساطة، كما لو أن ذلك كان واضحاً، ولم تطرح علياء أسئلة أخرى. كانت المرة الأولى التي يتكلم فيها مارتان عن الله، مما جعلها تخاف قليلاً، ليس الخوف تماماً، لكن ذلك أبعدها فجأة، دفعها بعيداً إلى الخلف، كما لو أن كلّ اتساع السّد مع أكواخ الألواح الخشبية والمستنقع على حافة النهر كان يفصلها عن مارتان.

إلا أن الرجل بدا أنه لم يدرك ذلك. نهض ناظراً إلى سطح المستنقع حيث كان القصب يتهادى. مرّر يده على شعر علياء، وذهب ببطءٍ في الطريق الذي يجتاز المدينة، فيما كان الأطفال يركضون أمامه يصيحون احتفالاً بعودته.

في تلك الفترة، كان مارتان قد بدأ تدريسه، غير أنه ما من أحدٍ كان يعرف ذلك. لم يكن حقاً تدريساً، أود القول، مثل تدريس راهبٍ أو معلم، لأن ذلك كان يجري دون شكل رسمي، وكان المرءُ يتعلم دون أن يعرف ما قد تعلمه. كان الأطفال قد اعتادوا المجيء إلى طرف السّد، أمام قصر مارتان، يجلسون على الأرض للحديث أو اللعب أو من أجل الإنصات إلى الحكايات. لم يكن مارتان يتحرك عن صندوقه، كان يتابعُ إصلاح ما يصلحه، قدر أو صمام قدر ضاغطة، أو قفل، فيما كان التدريس يبدأ. كان الأطفال خاصة هم من يأتون، بعد وجبة الظهر أو عند العودة من المدرسة. لكن كان هناك أيضاً في بعض الأحيان نساءٌ ورجال، عند انتهاء العمل، وحين يكون الجو حاراً لا يمكن النوم فيه. كان الأطفال يجلسون في الأمام، قريباً جداً من مارتان، كانت علياء تحبُ الجلوس هنا أيضاً. كانوا يصدرون الكثير من الضجيج، ولا يبقون في المكان لوقتٍ طويل، إلا أن مارتان كان مسروراً لرؤيتهم. يحادثهم، ويسألهم عما فعلوه وما رأوه في السّد أو على شاطئ البحر. كان منهم من يحب أن يتكلم، ويروي أي شيء خلال ساعات. فيما بعضهم الآخر يظلّ صامتاً، يختبئون خلف أيديهم حين يتوجه مارتان إليهم.

بعد ذلك، كان مارتان يروي حكاية. كان الأطفال يحبون كثيراً سماع الحكايات، من أجلها جاؤوا. حين كان مارتان يبدأ حكايته، كان الجميع يجلس ويتوقف عن الحديث حتى الأطفال الأكثر شغباً.

كان مارتان يعرف الكثير من الحكايات، طويلة، غريبة بعض الشيء، تجري أحداثها في بلادٍ مجهولة، زارها بالتأكيد في الماضي.

كانت هناك حكاية الأطفال الذين أبحروا في نهرٍ على طوفٍ من القصب، وعبروا على هذا النحو ممالك غرائبية، غابات وجبالاً ومدناً غامضة، إلى أن وصلوا إلى البحر. وكانت هناك حكاية الرجل الذي اكتشف بئراً تقود إلى مركز الأرض، حيث توجد دول النار. وهناك حكاية التاجر الذي كان يظن بأنه سيجني ثروة من بيع الثلج، فكان يقوم بإنزاله بأكياسٍ من أعلى الجبل، لكن عند وصوله إلى الأسفل لم يكن يجد معه سوى بركةٍ من ماء. وهناك حكاية الصبي الذي وصل إلى القصر الذي تعيش فيه أميرة الأحلام، والتي ترسل الأحلام والكوابيس إلى الأرض، وحكاية العملاق الذي ينحت الجبال، وحكاية الطفل الذي دجَّن الدلافين، أو حكاية الكابتن تيكام الذي أنقذ حياة طائر القطرس، فعلّمه الطائر سرّ الطيران شكراً له. كانت حكاياتٍ جميلة، جميلةٌ جداً بحيث كان المرء ينام أحياناً قبل سماع النهاية. كان مارتان يرويها ببطءٍ، وهو يقوم بحركاتٍ أو متوقفاً من وقتٍ إلى آخر لتمكينهم من طرح الأسئلة. حين كان يتكلم، كانت عيناه تلمعان بقوة، كما لو أنه هو أيضاً يستمتع كثيراً.

كانت قصة هازاران هي القصة المفضلة للأطفال من بين كلّ الحكايات التي يرويها. لم يكونوا يفهمونها جيداً، لكنهم كانوا كلهم يحبسون أنفاسهم حين يبدأ.

كانت هناك طفلة صغيرة تدعى ترفل (نفل)(١)، كان الاسم الذي تدعى به غريباً، دون شك بسبب علامةٍ على وجنتها قرب أذنها اليسرى تشبه النفل(٢). كانت فقيرة، فقيرةٌ جداً، فقيرةٌ جداً بحيث لم يكن لديها شيءٌ للطعام سوى القليل من الخبز والفاكهة التي كانت تجمعها من الأدغال. كانت تعيش وحيدةً في كوخ رعاة، ضائع وسط العوسج والصخور، دون أن يرعاها أحد. غير أن الحيوانات

---

(١) تعني ترفل Trèfle باللغة الفرنسية نَفَل (المترجم).

(٢) النفل: جنس أعْشاب وَرَقتها مؤلّفة من ثلاث وُرَيْقات (المترجم).

الصغيرة التي كانت تعيش في الحقول صادقتها حين رأتها وحيدة وحزينة جداً. كانوا غالباً ما يأتون لرؤيتها، صباحاً أو مساءً، ويحادثونها لتسليتها، يقومون بجولات ويروون لها حكايات، حيث إن نفل كانت تعرف الحديث بلغتهم. كانت هناك نملة تدعى زوي وعظاءة تدعى زوت، وعصفور دوري يدعى بيبي، ويعسوب يدعى زيل، وفراشاتٌ من كلّ الأنواع، صفراء، حمراء، بنية، زرقاء. كان هناك أيضاً خنفسٌ عارف يدعى كيبر، وجرادة خضراء كبيرة تستحم بالشمس على أوراق الشجر. كانت نفل الصغيرة لطيفةً معهم، ولأجل ذلك كانوا يحبونها. ذات يوم، كانت نفل أكثر حزناً من العادة، لأنه لم يكن لديها شيء تأكله، دعتها الجرادة الخضراء الكبيرة. أتريدين تغيير حياتك؟ قالت لها وهي تصفر. أجابت نفل: كيف يمكنني أن أغيّر حياتي، لا طعام لدي، وأنا وحيدة. قالت الجرادة: تستطيعين إن أردت، يكفيك الذهاب إلى بلاد هازاران. سألت نفل: أيُّ بلادٍ هذه، لم أسمعْ أبداً عن هذا المكان. أجابتها الجرادة حتى تدخلي إليها، ينبغي عليك أن تجيبي عن السؤال الذي يسأله حارس بوابات هازاران. لكن ينبغي أن تكوني عالمة أولاً، عالمة جداً، حتى تتمكنين من الإجابة. لذا ذهبت نفل لرؤية الخنفس كيبر الذي يسكن عند ساق شجرة ورد، وقالت له: كيبر، علّمني ما ينبغي معرفته، لأنني أريد أن أرحل إلى هازاران. خلال وقتٍ طويل، علّم الخنفس والجرادة الخضراء الكبيرة الطفلة الصغيرة كلّ ما يعرفانه. علّماها معرفة حالة الجو، ما يظنه ناس الأرض السفلى، شفاء الحمى والأمراض. علّماها أيضاً أن تسأل السرعوفة فيما إذا كان الرضع الذين يولدون سيكونون بناتاً أم صبياناً، بما أن السرعوفة تعرف ذلك وتجيب برفع مخالبها للولد وبإنزالها للبنت. تعلّمت نفل الصغيرة كلّ ذلك، وأشياء أخرى أيضاً، أسراراً وأحاجٍ. حين انتهى الخنفس والجرادة الكبيرة الخضراء من تعليمها ما يعرفانه، جاء ذات يوم رجلٌ إلى القرية. كان يلبس ملابس الأغنياء ويبدو مثل أميرٍ أو وزير. كان الرجل يجول في القرية قائلاً: أبحث عن أحدٍ ما. إلا أن الناس لم يفهموا. لذا ذهبت نفل نحو الرجل، وقالت له: أنا الذي تبحث عنه. أريد الذهاب إلى

هازاران. كان الرجل مندهشاً، لأن نفل الصغيرة كانت فقيرة جداً وتبدو جاهلةً جداً. أتعرفين الإجابة عن الأسئلة؟ سأل الوزير. إن لم تستطيعي الإجابة لن يمكنك الذهاب أبداً إلى بلاد هازاران. سأجيب عن الأسئلة، قالت نفل. إلا أنها كانت خائفة، لأنها لم تكن متيقنةً من القدرة على الإجابة. إذاً أجيبي عن الأسئلة التي سأطرحها. إن كنت تعرفين الإجابة، ستصبحين أميرة هازاران. ها هي الأسئلة، ثلاثة أسئلة.

كان مارتان يتوقف عن الكلام للحظة، فيما ينتظر الأطفال.

ها هو السؤال الأول، قال الوزير. في المائدة التي دُعيتُ إليها، أعطاني أبي ثلاثة أطعمة لذيذة جداً. شيءٌ تستطيع يدي تناوله، فيما فمي لا يستطيع أكله. شيءٌ تستطيع يدي تناوله، فيما لا تستطيع الاحتفاظ به. شيءٌ يستطيع فمي تناوله فيما لا يستطيع الاحتفاظ به. فكرت الصغيرة، ثم قالت: أستطيع الإجابة على هذا السؤال. نظر إليها الوزير متفاجئاً، فما من أحد حتى الآن أعطاه الجواب. هاهي الأحجية الثانية، تابع الوزير. دعاني أبي إلى بيوته الأربعة. الأول في الشمال، فقيرٌ وحزين، والثاني في الشرق، مليءٌ بالزهور، والثالث في الجنوب، الأكثر جمالاً، والرابع في الغرب، حين أدخله أتلقى هدية، ومع ذلك أكون أكثر فقراً. أستطيع الإجابة عن هذا السؤال، قالت أيضاً نفل. كان الوزير مرة أخرى أكثر تعجباً، فما من أحد استطاع الإجابة عن هذا السؤال أيضاً. هاهي الأحجية الثالثة، قال الوزير. وجه أبي جميلٌ جداً، مع ذلك لا أستطيع النظر إليه، خادمي يرقص له كلّ نهارٍ. إلا أن أمي أكثرُ جمالاً أيضاً، شعرها فاحم السواد ووجهها أبيض مثل الثلج. تزينها الجواهر، وتسهر عليّ حين أنام. فكرت نفل مرة أخرى، وأشارت بأنها ستشرح الأحاجي. هاهو الجواب الأول، قالت: الوجبة التي دُعيتُ إليها هي العالم الذي ولدت فيه. الأطعمة الثلاثة اللذيذة التي أعطاني إياها والدي هي التراب والماء والهواء. تستطيع يدي تناول التراب لكن فمي لا يستطيع أن يأكله. تستطيع

يدي تناول الماء إلا أنها لا تستطيع الاحتفاظ به. يستطيع فمي تناول الهواء غير أني ينبغي أن أعود لطرحه حين أنفث.

توقف مارتان مرة أخرى لبرهة، وكان الأطفال يأخذون التراب بأيديهم ويجعلون الماء يسيل بين أصابعهم وينفثون الهواء أمامهم.

هاهو جواب السؤال الثاني: البيوت الأربعة التي دعاني أبي إليها هي فصول السنة. بيت الشمال الحزين والفقير هو بيت الشتاء. أما بيت الشرق المليء بالأزهار فهو بيت الربيع. أما بيت الجنوب والذي هو أكثر جمالاً هو بيت الصيف. أما بيت الغرب فهو بيت الخريف، حين أدخله أتلقى السنة الجديدة كهدية تجعلني أكثر فقراً بالقوة لأنني كبرت. أشار الوزير إشارةً برأسه موافقاً، لأنه كان متفاجئاً من المعرفة الكبيرة للطفلة الصغيرة. الجواب الثالث بسيط، قالت نفل. ما يدعى أبي هو الشمس التي لا أستطيع أن أراها وجهاً لوجه. الخادم الذي يرقص له هو ظلي. وما يدعى أمي هو الليل، وشعرها فاحم السواد ووجها أبيض مثل وجه القمر. النجوم مجوهراتها. هذا هو معنى الأحجية. حين سمع الوزير أجوبة نفل، أعطى أوامره، فجاءت كل طيور السماء لتحمل الصغيرة إلى بلاد هازاران. إنها بلادٌ بعيدة، بعيدةٌ جداً، بحيث إن الطيور طارت لأيامٍ وليالٍ، لكن حين وصلت نفل كانت مذهولة، لأنها لم تتخيل شيئاً بهذا الجمال، حتى في أحلامها.

توقف مارتان مرة أخرى بعض الوقت، فيما كان صبر الأطفال ينفذ قائلين: كيف كانت؟ كيف كانت بلاد هازاران؟

كان كلّ شيء كبيراً وجميلاً، هناك حدائق ملأى بالزهور والفراشات، وأنهارٌ صافية جداً مثل الفضة، وأشجارٌ عالية جداً ومغطاةٌ بفاكهةٍ من كلّ الأنواع. كانت تعيش هناك الطيور، كلّ طيور العالم. تطير من غصنٍ لغصن، وتغرد طيلة الوقت، وحين وصلت نفل، أحاطوا بها ليرحبوا بها. كان لديهم ملابس من ريشٍ بكلّ الألوان، رقصوا أيضاً أمام نفل، لأنهم كانوا سعداء

بأميرةٍ مثلها. ثم جاءت الشحارير، وزراء ملك الطيور، وقادوها إلى قصر هازاران. كان الملك عندليباً يغني بشكلٍ عذبٍ بحيث إن الجميع كانوا يتوقفون عن الكلام لسماعه. عاشت نفل بعد ذلك في قصره، وبما أنها كانت تعرف لغة الحيوانات، تعلمت الغناء هي أيضاً، لتجيب ملك هازاران. ظلت في هذه البلاد، وربما لا تزال تعيش فيها، وحين تود زيارة الأرض، تأخذ شكل طائر قُرْقب(١)، وتجيء طائرةً لترى أصدقاءها الذين ظلّوا على الأرض، ثم تعود إلى بيتها في الحديقة الكبيرة حيث أصبحت أميرة.

حين تنتهي الحكاية، كان الأطفال يغادرون واحداً وراء الآخر، عائدين إلى منازلهم. كانت علياء دائماً الأخيرة أمام منزل مارتان. لم تكن ترحل إلا حين كان الرجل يدخل قصره ويمد حصيرته كي ينام. كانت تمشي ببطءٍ في حارات السّد، فيما كانت تُنار مصابيح الغاز داخل الأكواخ، ولا تعود حزينة، تفكر في اليوم الذي سيأتي فيه ربما رجلٌ يلبس ثياب وزير ينظر حوله قائلاً:

«أبحث عن أحد ما.»

(١) القرقب: جنس طير من الجواثم (المترجم).

في تلك الفترة تقريباً، بدأت الحكومة بالحضور إلى هنا، إلى سّد الفرنسيين. كانوا أُناساً غريبي الأطوار يجيئون مرةً أو مرتين كلّ أسبوع، في سياراتٍ سوداء وشاحناتٍ برتقالية تتوقف على الطريق، قبل مدخل المدينة بقليل. يقومون بأشياء عديدة دون سبب، مثل قياس المسافات في الحارات وبين المنازل، أخذ بعض التراب في علبٍ حديدية، والقليل من الماء في أنابيب زجاجية، والقليل من الهواء في بالونات صفراء صغيرة. كانوا أيضاً يطرحون الكثير من الأسئلة على الناس الذين يلتقون بهم، ولاسيما الرجال، لأن النساء لم يكن يفهمن ما يقولونه، وعلى أية حال لم يكنّ يجرؤن على الإجابة.

كانت علياء أثناء ذهابها لإحضار الماء من المضخة، تتوقف لتشاهد عبورهم، إلا أنها تعرف جيداً بأنهم لم يأتوا بحثاً عن أحدٍ ما. ولم يأتوا ليسألوا الأسئلة التي تسمحُ بالذهاب إلى بلاد هازاران. لم يكونوا مهتمين بالأطفال، ولم يطرحوا عليهم الأسئلة مطلقاً. كان هناك رجال جديون يلبسون بزات رمادية يحملون حقائب جلدية صغيرة، وطلابٌ، صبيةٌ وفتيات يرتدون صدريات وسترات رياضية مقلنسة. كان هؤلاء الأكثر غرابة، لأنهم كانوا يطرحون أسئلة يستطيع الجميع فهمها عن حالة الجو وعن العائلة، لكنه لم يكن يُفهم لماذا يسألون عن ذلك. كانوا يسجلون الأجوبة في دفاتر كما لو أن ذلك مهمٌ جداً، يلتقطون الكثير من الصور للمنازل والألواح الخشبية، كما لو أنها تستحق التعب. حتى إنهم كانوا يصورون ما في داخل المنازل من خلال مصباحٍ يلمع ويشع بقوةٍ أكبر من الشمس.

بعد زمنٍ قصير، فُهم السبب حين عُرف أن هؤلاء كانوا رجالاً وطلاباً من الحكومة جاؤوا لنقل كلّ شيء، المدينة والناس، إلى مكانٍ آخر. كانت الحكومة قد قررت أن «السّد» لا ينبغي أن يبقى، لقربه من الطريق ومدرج الطيران، أو ربما لأنهم كانوا بحاجةٍ إلى أراضٍ لإشادة مبانٍ ومكاتب عليها. عُرف ذلك لأنهم

وزعوا أوراقاً على كل عائلة ليقولوا إن على الجميع أن يغادروا، وأن المدينة ستُمسّح بالآلات والشاحنات. وقد أطلع طلاب الحكومة الرجال على رسوم تمثل المدينة الجديدة التي ستُبنى أعلى النهر. كانت رسوماً غريبة، لمنازل لا تشبه شيئاً مما كان معروفاً، بيوت كبيرة مستوية ذات نوافذ متماثلة مثل ثقوب الآجر. وفي وسط كلّ منزل باحةٌ كبيرة وأشجار، فيما كانت الشوارع مستقيمة تماماً مثل سكك الحديد. كان الطلاب يسمون ذلك مدينة المستقبل، وحين كانوا يتحدثون إلى رجال ونساء السّد عنها، كان يبدو عليهم السرور وتلمعُ عيونهم، ويقومون بإشارات كبيرة. ربما لأنهم هم من صمّم الرسوم.

حين قررت الحكومة هدم السّد، وبأنه لن يستطيع أحد البقاء، كانت تلزم موافقة المسؤول. إلا أنه لم يكن هناك مسؤول في السّد، عاش الناس دائماً هكذا دون مسؤول، فلم يكن أحد بحاجةٍ إليه حتى الآن. بحثت الحكومة عن أحد يريد أن يكون مسؤولاً، وتمت تسمية مدير الجمعية. لذا كانت الحكومة غالباً ما تذهب إليه للحديث عن مدينة المستقبل، حتى إنهم في بعض الأحيان كانوا يصحبونه في سيارةٍ سوداء للذهاب إلى المكاتب لتوقيع الأوراق ولكي يكون كلّ شي نظامياً. ربما كان على الحكومة الذهاب لرؤية مارتان في قصره، لكن لم يكن أحدٌ قد تكلم عنه، وكان يسكنُ بعيداً في طرف السّد تماماً، قربَ المستنقع. على أية حال، لم يكن ليوقع على أي شيء، وكان الناس سيظنون أنه كان متقدماً في السن.

حين علم مارتان بالخبر، لم يقلّ شيئاً، لكن كان من الواضح أن ذلك لم يرق له. كان قد بنى قصره هنا حيث أراد، ولم تكن لديه مطلقاً الرغبة في السكن في مكانٍ آخر، ولاسيما في منزلٍ من منازل مدينة المستقبل التي تشبه قطعة قرميد.

فيما بعد، بدأ بالصوم، لكنه لم يكن صوم عدة أيام، كما كان يفعل عادةً. كان صوماً مفزعاً، بدا كما لو أنه لا ينبغي أن ينتهي، صومٌ استمر أسابيع.

كلّ يومٍ، تأتي علياء أمام منزله تحملُ إليه الخبز، فيما كان الأطفال الآخرون يأتون أيضاً حاملين صحون الطعام، آملين أن ينهض مارتان. إلا أنه كان يبقى مستلقياً على حصيرته، ووجهه ملتفتٌ نحو الباب، فيما أصبحت بشرته شاحبةً جداً تحت السمرة القديمة. كانت عيناه الداكنتان تلمعان بنورٍ بائس، لأنهما كانتا متعبتين

ومتألمتين من النظر دون توقف. لم يكن ينام في الليل. يبقى هكذا دون حراك ممدداً على الأرض، فيما الوجه ملتفتٌ نحو فتحة الباب، ناظراً إلى الليل.

كانت علياء تجلس بجانبه، تمسح وجهه بخرقةٍ مبللة كي تزيل الغبار الذي تحطه الريح عليه مثلما تحطه على صخرة. كان يشرب القليل من الماء، فقط بضع جرعات طيلة النهار. كانت علياء تقول:

«ألا تريد أن تأكل الآن؟ أحضرت لك خبزاً.»

كان مارتان يحاول الابتسام، إلا أن فمه كان تعباً، عيناه فقط كانتا تستطيعان الابتسام. كانت علياء تشعر باعتصار قلبها لأنها كانت تظن أن مارتان سيموت قريباً.

«هل لأنك لا تريد الرحيل لا تشعر بالجوع؟» كانت علياء تسأل.

لم يكن مارتان يجيب، إلا أن عينيه كانتا تجيبان بنورٍ مليءٍ بالتعب والألم. كانتا تنظران إلى الخارج عبر الباب المنخفض المفتوح، إلى التراب والقصب والسماء الزرقاء.

«ربما لا ينبغي لك أن تجيء معنا إلى هناك في المدينة الجديدة. ربما عليك أن تعود إلى بلادك الجميلة جداً، من حيث جئت، حيث الجميع مثل أميرات وأمراء.»

لم يعد طلاب الحكومة يجيئون كثيراً. ثم توقفوا عن المجيء كلياً. كانت علياء قد رصدتهم أثناء عملها في منزل عمتها أو في طريقها لجلب الماء من المضخة. رأت فيما إذا كانت سياراتهم متوقفة على الطريق، عند مدخل المدينة. ومن ثم ركضت حتى قصر مارتان.

«لم يأتوا اليوم أيضاً!» كانت تحاول الكلام غير أن لهاثها لم يساعدها. «لن يأتوا هنا ثانية! أتسمع؟ إن ذلك انتهى، لن يأتوا ثانية، سنبقى هنا!»

كان قلبها يخفق بقوة، لأنها كانت تعتقد بأن مارتان قد نجح في إبعاد الطلاب لا بشيء إلا بصومه.

«أأنت متأكدة؟» سأل مارتان. كان صوته بطيئاً جداً، وكان يعتدل قليلاً على فراشه.

«لم يجيئوا منذ ثلاثة أيام!»

«ثلاثة أيام؟»

«لن يعودوا الآن، إني متأكدة!»

قطعت قطعة خبز وناولتها لمارتان.

«لا، ليس في الحال» قال الرجل. «ينبغي أن اغتسل أولاً.»

قام مترنحاً بعدة خطواتٍ إلى الخارج، مستنداً على علياء. قادته إلى النهر عبر القصب. ركع مارتان وغسل وجهه ببطء. ثم حلق ذقنه ومشط شعره، دون استعجال، كما لو أنه بكل بساطة قد استيقظ لتوه. بعد ذلك، ذهب ليجلس على صندوقه، في الشمس، وأكل خبز علياء. بدأ الأطفال بالمجيء بعضهم وراء بعض حاملين الطعام، كان مارتان يأخذ كلّ ما يُقدم له، قائلاً شكراً. حين أكل بما فيه الكفاية، عاد إلى داخل منزله، وتمدد على فراشه.

«الآن أريد النوم» قال.

إلا أن الأطفال ظلّوا جالسين على الأرض أمام بابه، ليروه نائماً.

أثناء نومه، عادت السيارات الجديدة. وصل الرجال ذوو البزات الرمادية أولاً بحقائبهم السوداء، وذهبوا مباشرةً إلى منزل مدير التعاونية، ومن ثم وصل الطلاب، بعددٍ أكبر من المرة الأولى.

ظلّت علياء دون حركة، ظهرها مستندٌ على حائط أحد المنازل، فيما كانوا يعبرون أمامها ويمشون بسرعةٍ إلى الساحة، حيث مضخة الماء العذب. اجتمعوا هناك، وكان يبدو عليهم كما لو أنهم ينتظرون شيئاً ما. ثم جاء الرجال ذوو البزات الرمادية أيضاً، يسير معهم مدير الجمعية. كانوا يتحدثون إليه، إلا أنه كان يهز رأسه، وفي النهاية، أعلن أحد رجال الحكومة للجميع بصوتٍ واضحٍ يصل إلى البعيد، قال ببساطة إن الرحيل سيكون غداً اعتباراً من الساعة الثامنة صباحاً، ستأتي شاحنات الحكومة لتنقل الجميع إلى الأرض

الجديدة حيث ستبنى مدينة المستقبل قريباً. قال أيضاً إن طلاب الحكومة سيساعدون السكان تطوعاً على تحميل الأثاث والملابس في الشاحنات.

لم تتجرأ علياء على الحركة، حتى حين غادر الرجال ذوو البزات الرمادية والطلاب ذوو السترات الرياضية المقلنسة في سياراتهم. كانت تفكر بمارتان، بأنه من المحتم سيموت الآن، لأنه لن يعود إلى الأكل مطلقاً.

لذا رحلت لتختبئ أبعد ما تستطيع، وسط القصب، قربَ النهر. ظلّت جالسةً على الحصى تنظر إلى هبوط الشمس. حين تكون الشمس غداً في ذات المكان لن يبقى أحدٌ هنا، في السّد. ستمر البلدزورات وتعود إلى المرور فوق المدينة، دافعةً أمامها المنازل كما لو أنها ليست سوى علب كبريت، ولن يبقى إلا آثار العجلات والسلاسل على الأرض المسحوقة.

ظلّت علياء لوقتٍ طويل دون حركة، وسط القصب، قرب النهر. جاء الليل، ليلةٌ باردة منارة بالقمر المستدير والأبيض. إلا أن علياء لم تكن تريد العودة إلى منزل عمتها. بدأت بالسير عبر القصب بمحاذاة النهر، إلى أن وصلت المستنقع. أعلى قليلاً، عرفت الشكل الدائري لقصر مارتان. كانت تسمع نقيق الضفادع والصوت المنتظم لماء النهر، من الطرف الآخر للمستنقع.

عند وصولها أمام منزل مارتان، رأته واقفاً، لا يتحرك. كان وجهه مناراً بالقمر، فيما عيناه كانتا مثل ماء النهر، داكنتين لامعتين. كان مارتان ينظر باتجاه المستنقع، ونحو المصبّ العريض للنهر، حيث يمتدُ السهل الكبير للحصى المتفسفرة.

استدار الرجل نحوها فيما كانت نظرته ملأى بقوةٍ غريبة، كما لو أنها حقاً كانت تشع نوراً.

«كنتُ أبحث عنك» قال مارتان ببساطة.

«هل ستغادر ؟» تكلمت علياء بصوت منخفض.

«نعم، سأغادر في الحال.»

نظر إلى علياء كما لو أنه يستمتع.

«أتريدين المجيء معي؟»

شعرت علياء فجأة بالفرح ينفخ رئتيها وحلقها. قالت، فيما أصبح صوتها يقارب الصراخ:

«انتظرني! انتظرني!»

ركضت عبر شوارع المدينة تطرق كل البيوت صارخة:

«تعالوا بسرعة! تعالوا! سنغادر في الحال!»

خرج الأطفال والنساء أولاً، لأنهم فهموا. ثم جاء الرجال أيضاً، بعضهم وراء بعض. كانت جموع سكان السّد في الحارات تتضخم. كانوا يحملون ما يمكن حمله تحت ضوء المصابيح الكهربائية، أكياس، صناديق كرتونية، أواني مطبخ. كان الأطفال يصرخون ويركضون عبر الحارات يعيدون ذات العبارة:

«سنغادر! سنغادر!»

حين وصل الجميع أمام منزل مارتان، كانت هناك لحظة صمت، مثل تردد. حتى إن مدير التعاونية لم يتجرأ على قول شيء، لأن الجميع كانوا يشعرون بشيءٍ ما غامض.

ظلّ مارتان دون حركة أمام الطريق الذي كان ينفتح بين القصب. ثم دون أن يقول كلمة للجموع التي كانت تنتظر، بدأ بالسير على الدرب، باتجاه النهر. سار الآخرون خلفه. كان يتقدمُ بخطاه المنتظمة، دون التفاتة، دون تردد، كما لو أنه يعرف أين يذهب. حين بدأ بالسير في ماء النهر، في المخاضة، فهم الناس إلى أين كان يذهب، ولم يعودوا خائفين. كان الماء الأسود يومض حول جسد مارتان، فيما كان يتقدم في المخاضة. أمسك الأطفال أيدي النساء والرجال، وتقدم الجمع ببطءٍ في الماء البارد للنهر. أمامها، الطرف الآخر من النهر الأسود بضفافه من الحصى المفسفرة، وفيما كانت تمشي في العمق الزلق، بثوبها الملتصق ببطنها وفخذيها، كانت علياء تنظر إلى الشريط الداكن للضفة الأخرى، حيث لم يكن يلّمع نورٌ واحد.

شعب السماء

كان فعلُ ذلك من أحب الأشياء لبتيت كروا[١]: الذهاب إلى أقصى القرية، عند اشتداد حرارةُ الشمس، والجلوس بزاويةٍ قائمة على الأرضِ اليابسة. كانت لا تتحرك لساعاتٍ أو بالكاد، الجذعُ مستقيمٌ، والساقان ممتدتان أمامها. كانت يداها تتحركان أحياناً كما لو أنهما مستقلتان، تسحبان خيوطَ العشب لتجدل سلال أو حبال. كانت كما لو أنها تنظر إلى الأرض تحتها، دون التفكير بشيء، ودون انتظار شيء، حسبها فقط أن تجلس بزاويةٍ قائمة على الأرض اليابسة، تماماً في أقصى القرية، هنا حيث كان الجبل ينتهي فجأة ويتركُ المكان للسماء.

كانت بلاداً بلا ناس، بلادُ رملٍ وغبار، حدودها الوحيدة الميسات[٢] المستطيلة عند الأفق. أرضها أفقر من أن تمّد الناس بالطعام، وسماؤها لا تمطر. كان الطريقُ الإسفلتي يجتاز البلاد من طرفٍ إلى آخر، إلا أنه كان طريقاً يمرُ به المرء دون توقف، دون أن ينظرَ إلى قرى الغبار، مستقيمٌ أمامه وسط السراب، وسطَ الصوت الرطب للعجلات الشديدة السخونة.

كانت الشمس قويةً جداً هنا، أقوى من الأرض بكثير. كانت بتيت كروا تجلسُ، وتشعرُ بقوتها على وجهها وجسدها، إلا أنها لم تكن خائفة منها. كانت الشمس تمضي في طريقها الطويل جداً عبر السماء، دون أن تنشغل بها.

---

(١) تعني بتيت كروا Petite Croix في الفرنسية الصليب الصغير (المترجم).

(٢) الميسة: هَضبَة مستوية السّطح متحدرّة الجوانب متخلّفة عن ثَوَران بركاني (المترجم).

تحرق الحجارة، تجفف الجداول والآبار، تطقطق الشجيرات والأدغال الشوكية. حتى إن الثعابين والعقارب كانت تخشاها وتظلّ ملتجئةً في مخابئها إلى أن يحلّ الليل.

إلا أن بتيت كروا لم تكن خائفة. قارب وجهها الساكن أن يصير أسوداً، وكانت تغطي رأسها بطرف غطائها. كانت تحبُّ كثيراً مكانها، في أعلى الجرفِ، حيث تتكسّر الصخور والأرض فجأةً، وتشقُّ الريح الباردة مثل جؤجؤ سفينة. كان جسدها يعرف جيداً مكانها، لقد صُنع من أجلها. مكانٌ صغير، على مقاسها تماماً، في الأرضِ اليابسة، محفورٌ على شكل فخذيها وساقيها. لذا كانت تستطيع أن تبقى وقتاً طويلاً، بزاوية قائمة تماماً على الأرض إلى أن تصبحَ الشمسُ باردةً، وإلى أن يأتي العجوز باهتي ليصحبها بيده من أجل وجبة المساء.

كانت تلمسُ الأرض براحتي يديها، تتبعُ ببطءٍ بأطراف أصابعها التجاعيد الصغيرة التي تركتها الريحُ والغبار، والأخاديد، والنقوش الناتئة. كان غبارُ الرمل يصنع بودرةً ناعمة مثل الطلق[١] التي كانت تنساب تحت راحتي يديها. حين تهبّ الريح، كان الغبار يفلتُ من بين أصابعها، لكنه غبارٌ خفيفٌ شبيهٌ بدخانٍ، تختفي ذراته في الهواء. كانت الأرضُ اليابسةُ حارةً تحت الشمس. منذُ أيامٍ وأشهر، تأتي بتيت كروا إلى هذا المكان. لم تعد تتذكر جيداً كيف وجدته. كانت تذكر فقط السؤال الذي سألته للعجوز باهتي عن السماء، عن لون السماء.

«ما هي الزرقة؟»

كان ذلك ما سألته في المرة الأولى، فيما بعد وجدت هذا المكان، بحفرته في الأرض اليابسة، جاهزاً تماماً لاستقبالها.

---

(١) الطلق: معْدن طَريّ يُسْتَخْدمُ في صُنْع ذَرور الوَجْه وسواه (المترجم).

سكان الوداي بعيدون الآن. مضوا في طريقهم مثل حشرات مجلّلة، وسط الصحراء، ولم تعد تُسمع أصواتهم. أو أنهم يقودون الشاحنات الصغيرة مستمعين إلى الموسيقا المنبعثة من أجهزة الراديو التي تئز وتصر مثل حشراتٍ. يذهبون مباشرةً عبر الطريق الأسود الذي يجتاز الحقول الجافة وبحيرات السراب، دون أن ينظروا إلى ما حولهم. يمضون كما لو أنه لا ينبغي لهم العودة أبداً.

تحبّ بتيت كروا الوقت الذي لا يكون فيه أحد حولها. شوارع القرية خلفها خالية، مصقولةً جداً بحيث إن الريح لا تستطيع أبداً أن تتوقف فيها، ريح الصمت الباردة. جدران المنازل التي انهارت جزئياً مثلَ صخورٍ جامدة، ثقيلة، حتتها الريح، دون صوتٍ، دون حياة.

أما الريح فإنها لا تتكلم، لا تتكلم أبداً. إنها ليست مثل الناس والأطفال، ولا حتى مثل الحيوانات. تعبرُ فقط، بين الجدران، وفوق الصخور، وفوق الأرض اليابسة. تصل إلى بتيت كروا وتلفّها، تنزع برهةً حرقة الشمس من وجهها، وتهزّ أهداب الغطاء.

لو أن الريح كانت تتوقف، لكان من الممكن سماعُ صوت الرجال والنساء في الحقول، وصوت البكرة قرب الخزان، وصرخات الأطفال أمام مبنى المدرسة المسبق الصنع، في الأسفل، في قرية المنازل ذات الصفائح التوتيائية. أكان بإمكان بتيت كروا، أن تسمع من مسافةٍ أبعد، قطارات البضائع التي تصرّ على السكك الحديدية والشاحنات ذوات الثماني عجلات التي تهدر على الطريق الأسود، نحو المدن الأكثر ضجيجاً، نحو البحر؟

تشعر بتيت كروا الآن بالبرد الذي يدخلُ فيها، فلم تقاوم. تلمس فقط الأرض براحتي يديها، ثم تمسح وجهها. في مكان ما خلفها، تنبح الكلاب دون سببٍ، ثم تعود للاستلقاء متربعةً في زوايا الجدران وبأنوف ممرغة في الغبار.

إنها اللحظة التي يكون فيها الصمت عظيماً جداً، بحيث يمكن أن يحدث أي شيء. تتذكر بتيت كروا السؤال الذي تسأله منذ سنوات عديدة، السؤال الذي ترغب كثيراً بمعرفة إجابته، عن السماء ولونها. إلا أنها ما عادت تلفظه بصوتٍ عالٍ:

«ما هي الزرقة؟»

بما أن لا أحد يعرف الإجابة الصحيحة، تظلّ ساكنة، جالسةً بزاوية قائمةً، في طرف الجرف الصخري، أمام السماء. تدرك أن شيئاً ما سيحدث. تنتظره كلّ يومٍ وهي جالسةً على الأرض اليابسة، في مكانها، مالكته الوحيدة. وجهها المائل للسواد محروقٌ بالشمس والريح، مرفوعٌ قليلاً إلى الأعلى كيلا تظلّ هناك بقعة ظلّ على بشرتها. هادئة، غير خائفة. تعرفُ جيداً أن الإجابة ستأتي ذات يوم، دون أن تدرك كيف سيحدث ذلك. من المؤكد أنه لا يمكن للسماء أن تجلب أي سوء. وكي تستطيع سماع إجابة سؤالها جيداً، يصمتُ الوادي الخالي، وتصمت القرية خلفها. هي وحدها يمكن أن تسمع. حتى إن الكلاب تنام دون أن تدرك ما سيحدث.

في البدء، يكونُ النور. يبعثُ ذلك صوتاً ناعماً جداً على الأرض، مثل حفيف مكنسة أوراق الشجر، أو مثل ستارة من قطرات الماء تتقدم. تُنصت بتيت كروا بكلّ قواها، بحبس أنفاسها قليلاً، وتسمع بجلاءٍ الصوت الذي يصل. يبعثُ ذلك صوت ششششش! وأيضاً دت دت دت دت! في كلّ مكانٍ على الأرض، على الصخور، على السقوف المسطحة للمنازل. صوت نارٍ، لكنه صوتٌ عذبٌ جداً وبطيء، نارٌ هادئة لا تتردد، لا ترمي شرراً. يجيء ذلك على نحو خاصٍ من الأعلى، من أمامها، وبالكاد يطير عبر الغلاف الجوي، بحفيف أجنحته الدقيقة. تسمع بتيت كروا التمتمة التي تكبر، التي تتوسع حولها. صارت تنبعث الآن من كل الجهات، ليس فقط من أعلى، ولكن أيضاً من الأرض والصخور ومن منازل القرية، تنبجس من كلّ الاتجاهات، مثل

قطرات الماء، تتشكل عقداً ونجوماً وزخارف وردية. ترسم منحنياتٍ طويلة تقفز فوق رأسها، وأقواساً ضخمة، وباقات.

إنه الصوتُ الأول، الكلمةُ الأولى. حتى قبل أن تمتلئ السماء، تسمعُ صوت مرور أشعةٍ باهرة من النور، فيبدأ قلبها يخفق بسرعةٍ أكثر وبقوةٍ أكبر.

لا تحرك بتيت كروا رأسها، ولا جذعها. تنزعُ يديها من التراب الجاف وتمدهما أمامها، براحتين مفتوحتين إلى الخارج. ينبغي فعلُ ذلك، فتشعرُ بالحرارة التي تعبر في أطراف أصابعها، مثل ملامسةٍ تروح وتجيء. يفرقع النور على شعرها الكثيف وعلى وبر الغطاء، وعلى أهدابها. بشرةُ النور ناعمة ترتعش، عند انسياب ظهره وبطنه الواسعين على الراحتين المفتوحتين للفتاة الصغيرة.

في البدء، يحدث ذلك دائماً، على هذا النحو، مع النور الذي يدورُ حولها، والذي يحّك راحتي يديها مثل أحصنة العجوز باهتي. لكن هذه الأحصنة أكبر بكثير وأعذب، تأتي نحوها مباشرة كما لو أنها سيدتها.

يأتون من عمق السماء، قفزوا من جبلٍ إلى جبل، قفزوا فوق المدن الكبرى، فوق الأنهار، دون صوتٍ، سوى الحفيف الحريري لوبرهم العائم.

تُسرُ بتيت كروا بوصولهم. لم يأتوا إلا لأجلها، ربما للإجابة على سؤالها، لأنها الوحيدة التي تفهمهم، الوحيدة التي تحبهم. فيما يخاف الناس الآخرون، ويخيفّونهم، ولذلك لا يرون أبداً أحصنة الزرقة. تناديهم بتيت كروا وتحدثهم بلطف وبصوتٍ خفيض، تغني قليلاً، لأن أحصنة النور مثل أحصنة الأرض، تحب الأصوات العذبة والأغاني.

«أيتها الأحصنة... أيتها الأحصنة

يا أحصنة الزرقة الصغيرة

خذوني معكم أطير

خذوني معكم أطير

يا أحصنة الزرقة الصغيرة»

تقول «أحصنة صغيرة» كي ترضيها، لأنها بالتأكيد لا تحب أن تعرف أنها ضخمة.

هكذا يحدث الأمرُ في البداية. ثم تأتي الغيوم. لم تكن الغيوم مثل النور، لا يُلامس ظهرها وبطنها راحات الأيدي، لأنها هشة جداً، وخفيفة، بحيث إنها قد تخاطر بفقدان فروها وأن يصير خيوطاً مثل أزهار القطن.

تعرفها بتيت كروا جيداً. تعرف أن الغيوم لا تحب كثيراً ما يمكن أن يستلّها ويجعلها تذوب، لذا تمسك نفسها، وتتنفس بدفقاتٍ صغيرة، مثل الكلاب التي ركضت زمناً طويلاً. يصيب ذلك حلقها ورئتيها بالبرد، وتشعر بأنها أصبحت ضعيفة وخفيفة، هي أيضاً، مثل الغيوم. حينئذٍ، تستطيع الغيوم الوصول.

بدايةً، تكون بعيدةً فوق الأرض، تتمدد وتتكدس، تغيّر شكلها، تعبر وتعاودُ العبور أمام الشمس فيما ينزلق ظلّها على الأرض اليابسة وعلى وجه بتيت كروا مثل نسمة مروحة.

تنسلُ الظلال على بشرةِ وجنتيها وجبهتها التي تقارب السواد، على جفونها، على يديها، تطفئ النور، تشكل بقعاً باردة، بقعاً خاوية. هكذا هو البياض، لون الغيوم. قال العجوز باهتي وأستاذ المدرسة غاسبر لبتيت كروا: الأبيض لونُ الثلج، لونُ الملح، لونُ الغيم، وريح الشمال. إنه لونُ العظم والأسنان أيضاً. الثلجُ بارد ويذوب في اليدين، الريح باردة ولا أحد يستطيع إمساكها. الملح يحرق الشفاه، والعظام ميتة، فيما الأسنان مثل حجارة في الفم. ولأن الأبيض هو لون الخواء، فلا شيء بعد الأبيض، ولا يبقى بعده شيءٌ.

هكذا الغيوم. بعيدة جداً، تأتي من بعيدٍ، من وسط الزرقة، باردةً مثل الريح، خفيفةً مثل الثلج وهشةً، لا تبعث صوتاً حين تصل، إنها صامتة تماماً مثل الأموات، أكثر صمتاً من الأطفال الذين يمشون حفاةً على الصخور حول القرية.

إلا أنها تحب المجيء لرؤية بتيت كروا، لا تخاف منها. صارت تنتفخ حولها، أمام الجرف الوعر. تعرفُ أن بتيت كروا شخصٌ صامت، تعرف أنها لن تؤذيها. تنتفخ الغيوم وتعبر قربها، تحيط بها، فتشعر بالبرودة الندية لفروها، ترطّب ملايين القطرات بشرة وجهها وشفتيها مثل ندى الليل، تسمع الصوت العذب الذي يتموج حولها، وتغني مرة أخرى قليلاً لهم،

«أيتها الغيوم... الغيوم

غيوم السماء الصغيرة

خذيني معك أطير

خذيني معك أطير

أطير

في قطيعك.»

تقول أيضاً «غيوم صغيرة» لكنها تعلم جيداً أنها كبيرة جداً جداً، لأن فروها الرطب يغطيها ويحجبُ حرارة الشمس لوقتٍ طويل لدرجة أنها كانت ترتجف.

تتحرك ببطء حين تكون الغيوم فوقها، كي لا ترعبها. لا يعرفُ سكان هذا المكان محادثةَ الغيوم. إنهم يصدرون الكثير من الصخب والكثير من الحركة، فتبقى الغيوم عالية في السماء. ترفعُ بتيت كروا يديها ببطء إلى وجهها، وتضغط راحتي يديها على وجنتيها.

ثم تتفرقُ الغيوم. تذهبُ بعيداً إلى أعمالها، أبعد من أسوار الهضاب وأبعد من المدن. تذهب إلى البحر، هناك حيث كلّ شيءٍ دائمُ الزرقة، ليهطل ماؤها، إنه أكثر ما تحب فعله في العالم: المطر فوق الامتداد الأزرق للبحر. قال العجوز باهتي، إنه المكان الأكثر جمالاً في العالم، المكان الذي يكون كل شيء فيه أزرق حقاً. هناك كلّ أنواع الزرقة في البحر، يقول العجوز باهتي.

كيف يمكن أن يكون هناك عدةُ أنواع من الزرقة، سألت بتيت كروا. مع ذلك فإن الأمر كذلك، هناك عدةُ أنواع من الزرقة، مثل الماء الذي نشربه ويملأ الفم ويسيل في البطن، تارةً يكون بارداً وتارة يكون حاراً.

تظلّ بتيت كروا تنتظر الأشخاص الآخرين الذي ينبغي لهم أن يأتوا. تنتظر رائحة العشب، رائحة النار، الغبار الذهبي الذي يرقص حولها وهو يدور على ساق واحدة، الطائر الذي ينعق مرةً واحدة وهو يفرك وجهها بطرف جناحه. إنهم يأتون دائماً، عندما تكون هنا. لا يخافون منها. يسمعون سؤالها، دائماً، بخصوص السماء ولونها، ويعبرون قريباً جداً منها بحيث إنها تشعر بالهواء الذي يتحرك على أهدابها وفي شعرها.

ثم أتت النحلات. غادرن مساكنهن في الخلايا الموجودة أسفلَ الوادي باكراً. زرن كلّ الأزهار البرية في الحقول، وبين أكوام الصخور. كن يعرفن الأزهار جيداً، ويحملن غبار الطلع بقوائمهن التي تتدلى تحت الثقل.

تسمع بتيت كروا قدومهن، دائماً في ذات الساعة، حين تكون الشمس عالية جداً فوق الأرض اليابسة. تسمعهن من كلّ الجهات في آن واحد، لأنهن يخرجن من زرقة السماء. حينئذ تفتش بتيت كروا جيوب سترتها وتخرج حبيبات السكر. تتموج النحلات في الهواء، ويعبر غناؤهن الحاد السماء يرتد على الصخور، يحكّ أذني بتيت كروا ووجنتيها.

كلّ يوم، في ذات الساعة، يأتين. يعرفن أن بتيت كروا تنتظرهن، ويحببنها أيضاً. يصلن بالعشرات، من كلّ الجهات، يبعثن موسيقاهن في النور الأصفر. يقفن على اليدين المفتوحتين لبتيت كروا ويأكلن السكر الناعم بنهم. ثم يتنزهن على وجهها ووجنتيها وفمها، يسرن بكثير من النعومة فيما تدغدغ قوائمهن الخفيفة بشرتها فيجعلنها تضحك. إلا أن بتيت كروا لا تضحك عالياً كي لا تخيفهن. تتموج النحلات على شعرها الأسود، قرب أذنيها، فيبعث ذلك

غناءً رتيباً يتحدثُ عن الأزهار والنباتات، عن كلّ الأزهار وكل النباتات التي زرنها هذا الصباح. تقول النحلات: «اسمعينا، رأينا الكثيرَ من الزهور في الوادي، ذهبنا إلى أقصاه دون أن نتوقف، لأن الريح كانت تحملنا، ثم عدنا من زهرة لأخرى.» تسأل بتيت كروا: «ماذا رأيتم؟» «رأينا زهرة عباد الشمس الصفراء وزهرة الشاردون الحمراء وزهرة الأوكتيلو التي تشبه أفعى برأسٍ أحمر. رأينا زهرة صبار البيتايا البنفسجية الكبيرة وزهرة الجزر البري المسننة والزهرة الشاحبة للغار. رأينا زهرة الشرونة السامة وزهرة شجرة النيلة المعكوفة وزهرة الميرمية الحمراء الرقيقة.» «وماذا أيضاً؟» «طرنا حتى الأزهار البعيدة التي تلمع على الشواظة البرية، آكلة النحل، رأينا النجمة الحمراء للعلوك المكسيكي وعجلة النار وزهرة الحليب. طرنا فوق الأغاريتا، وشربنا طويلاً من رحيق الهتونية المنقعية وماء النعنع الليموني. حتى إننا كنا على أجمل زهرة في العالم، تلك التي تنبجس عالية فوق أوراق اليكة ذات الأوراق الحادة، البيضاء مثل الثلج. كلّ هذه الأزهار لك يا بتيت كروا، نحملها لك كي نشكرك.»

هكذا تتكلم النحلات. يتكلمن أيضاً عن أشياء أخرى، يتكلمن عن الرمل الأحمر والرمادي الذي يلمع في الشمس، وعن قطرات الماء التي تقف حبيسة زغب الفربيون، أو متهاديةً على إبر الأغاف، وعن الريح التي تهب على مستوى الأرض ومرقد العشب. يتكلمن عن الشمس التي تصعد في السماء، ثم تهبط، والنجوم اللاتي تبددن الليل.

لا يتكلمن بلغة الناس، إلا أن بتيت كروا تفهم ما يقلنه، فيما تبدو الاهتزازات الحادة لآلاف الأجنحة في شبكيتي عينيها بقعاً ونجوماً وأزهاراً. تعرف النحلات الكثيرَ من الأشياء! تفتح بتيت كروا جيداً يديها كي يستطعن أكل الحبيبات الأخيرة من السكر، وتغني لهن أيضاً أغنية، وهي بالكاد تفتح شفتيها، فيصير صوتها شبيهاً بطنين الحشرات:

«أيتها النحلات..... النحلات

نحلات السماء الزرقاوات

خذوني معكن لأطير

خذوني معكن لأطير

لأطير

في سربكن.»

ساد الصمت طويلاً حين غادرت النحلات.

تهبّ الريح الباردة على وجه بتيت كروا، فتدير رأسها قليلاً كي تتنفس. يداها مضمومتان على بطنها تحت الغطاء، تظلّ ساكنة، بزاوية قائمة مع الأرض اليابسة. من سيأتي الآن؟ الشمس عالية في السماء الزرقاء، تترك ظلالاً على وجه الفتاة الصغيرة، تحت أنفها وتحت قوسي حاجبيها.

تفكر بتيت كروا بالجندي الذي لابدّ أنه يسير الآن كي يأتي. ينبغي له أن يسير عبرَ الممر الضيق الذي يتسلقُ أنف الجبل إلى القرية القديمة المهجورة. تنصتُ بتيت كروا، إلا أنها لم تسمع صوت خطواته، كما أن الكلاب لم تنبح، لا تزال نائمة في زوايا الجدران القديمة وأنوفها في الرمل.

تصفّر الريح وتتأوه على الحجارة والأرض اليابسة. إنها حيوانات طويلة وسريعة، حيوانات بأنوف طويلة وآذانٍ صغيرة تقفز في الرمل تبعثُ صوتاً خفيضاً. تعرف بتيت كروا الحيوانات جيداً. تخرج من جحورها في الطرف الآخر من الوادي، وتركضُ وتعدو وتتسلى بالقفز فوق السيول والوهاد والصدوع. من وقتٍ لآخر، تتوقفُ لاهثةً، والنور يلمع على فروها المذهب. ثم تعود من جديد إلى قفزاتها في السماء وصيدها العجيب، تلامس بتيت كروا، تحرك شعرها وملابسها. وتسوط ذيولها الهواء وهي تصفّر. تمدّ بتيت كروا ذراعيها محاولةً إيقافها، والتقاطها من ذيلها.

«توقفوا! توقفوا! إنكم تسرعون كثيراً! توقفوا!»

إلا أن الحيوانات لا تسمعها. تتسلى بالقفز قريباً منها، وتنزلق بين ذراعيها، وتنفخ بنَفسها على وجهها، مستهزئةً منها. لو استطاعت التقاط أحدها، فقط واحد لا غير، لما تركته مطلقاً. إنها تعرف جيداً ما ستفعله. ستقفز على ظهره، كما تقفز على ظهر حصان، وستشد ذراعيها بقوةٍ كبيرة حول عنقه، ويا هوب! وبقفزةٍ واحدة سيحملها الحيوان إلى وسط السماء. ستطيرُ وتركض معه، بسرعةٍ فائقة، بحيث ما من أحد يستطيع رؤيتها. ستذهبُ عالياً فوق الأودية والجبال، فوق المدن حتى البحر، ستقضي الوقت كلّه في زرقة السماء، أو ستنزلق إلى الأرض على أغصان الشجر والعشب تبعث بصوتها العذب كالماء الذي يسيل. كمّ سيكون ذلك رائعاً.

غير أن بتيت كروا لا تستطيع أبداً التقاط أي حيوان. تشعر بالبشرة الزلقة التي تتسلُ بين أصابعها، وتزوبع في ملابسها وشعرها. تكون الحيوانات أحياناً بطيئةً جداً وباردة كالأفاعي.

لا أحد فوق أنف الجبل. لم يعد أطفال القرية يأتون إلى هنا، إلا فيما ندر، لصيد الأحناش. ذات يوم، جاؤوا دون أن تسمعهم بتيت كروا. قال أحدهم: «لقد حملنا لك هدية.» سألت بتيت كروا: «ما هي؟» قال الطفل: «افتحي يديك، ستعرفين». فتحت بتيت كروا يديها، وحين وضع الطفل الحنش بين يديها ارتعدت إلا أنها لم تصرخ. ارتعشت من رأسها حتى قدميها. ضحك الأطفال، إلا أن بتيت كروا تركت ببساطة الثعبان ينسل إلى الأرض، دون أن تقول كلمة، ثم خبأت يديها تحت غطائها.

الآن أصبح كلّ ما ينزلق على الأرض اليابسة دون أن يبعث صوتاً صديقاً لها، هؤلاء ذوو الأجساد الطويلة الباردة كالماء، الأفاعي والبدغات والعظاءات. تتقن بتيت كروا محادثتهم. تناديهم بلطف، بصافرةٍ من بين

أسنانها، فيأتون نحوها. لا تسمع قدومهم، لكنها تعرف بأنهم يقتربون زحفاً، من صدعٍ إلى آخر، ومن حصاةٍ إلى أخرى، ينصبون رؤوسهم لينصتوا جيداً إلى الحفيف العذب فيما حلوقهم تختلج.

«أفاعٍ،

أفاعٍ»

تغني بتيت كروا أيضاً. ليست كلها أفاعٍ، لكنها سمتهم هكذا.

«أيتها الأفاعي

أيتها الأفاعي

خذوني معكم أطير

خذوني معكم أطير»

يأتون، دون شك، يصعدون على ركبتيها، ويبقون برهةً في الشمس. تحبّ ثقلهم الخفيف على ساقيها. ثم يذهبون فجأة، لأنهم يخافون عند هبوب الريح أو عند فرقعة الأرض.

تنصتُ بتيت كروا إلى صوت خطوات الجندي. إنه يأتي كلّ يومٍ في ذات الساعة، حين تضطرمُ الشمس في الطرف المقابل وتصبح الأرض اليابسة دافئة تحت الأيدي. لا تسمع بتيت كروا مجيئه دائماً، لأنه يمشي بنعليه المطاطيين دون صوت. يجلس على صخرةٍ صغيرة بجانبها وينظر برهةً إليها دون أن يقول شيئاً. إلا أن بتيت كروا تشعر بنظرته عليها، وتسأل:

«منّ هنا؟»

إنه غريب، لا يتكلم جيداً لغة البلاد، مثل هؤلاء الذين يأتون من المدن الكبرى، قرب البحر. حين سألته بتيت كروا من يكون، أخبرها بأنه جندي، وتحدث عن حربٍ وقعت في الماضي، في بلادٍ بعيدة. لعلّه لم يعد جندياً الآن.

حين يصل، يحمل لها عدداً من أزهارٍ برية جمعها في سيره عبر الدرب الذي يصعد إلى أعلى الجرف. أزهارٌ نحيلة طويلة، ذات بتلات متباعدة ورائحة شبيهة برائحة الغنم، إلا أن بتيت كروا تحبها، وتضمها في يديها.

يسأل الجندي: «ماذا تفعلين؟»

تقول بتيت كروا: «انظر إلى السماء، إنها شديدة الزرقة اليوم، أليس كذلك؟»

يقول الجندي: «نعم.»

هكذا تجيب بتيت كروا دائماً، لأنها لا تستطيع نسيان سؤالها. تدير رأسها قليلاً نحو الأعلى، ثم تمرر يديها ببطء على جبهتها ووجنتيها وجفنيها.

تقول: «أعتقد أني أعرف ما هي»

«ماذا؟»

«الزرقة. إنها حارةٌ جداً على وجهي.»

«إنها الشمس.» يقول الجندي.

يشعلُ سيجارةً إنكليزية ويدخن بتمهل، ناظراً مباشرة أمامه. تغطي رائحة التبغ بتيت كروا وتجعلها تشعر بشيء من النشوة.

«حدثني.. اروِ لي.»

هكذا تطلب دائماً. يكلمها الجندي بهدوء، ويتوقف من وقتٍ لآخر كي ينفث سيجارته.

يقول: «يا لهذا الجمال! أولاً، هناك سهلٌ كبير بأراضٍ صفراء، لا بد أنها ذرة قد حان حصادها، أظن ذلك. وهناك دربٌ من التراب الأحمر يتجه مباشرةً إلى وسط الحقول، وكوخٌ خشبي....»

«هل هناك حصان؟» تسأل بتيت كروا.

«حصان؟ انتظري... لا، لا أرى حصاناً.»

«إذن ليس منزل عمي.»

«هناك بئرٌ قربَ الكوخ، لكنه جاف، أظن ذلك... وصخورٌ سوداء لها شكلٌ غريب، كما لو أنها كلاب مستلقية... أبعد قليلاً، طريقٌ وأعمدةُ التلغراف، ثم بركة، لا بد أنها جافة لأن الحصى يُرى في القاع... رمادية، ملأى بالحصى والغبار... بعد ذلك، هناك السهل الكبير الذي يمتد إلى البعيد، البعيد، حتى الأفق، عند الميسة الثالثة. هناك تلالٌ إلى الشرق لكن في باقي الأمكنة السهل مسطح وممهد كما لو أنه مدرج طائرات. في الغرب، هناك جبالٌ حمراء داكنة وسوداء، كأنها أيضا حيواناتٌ نائمة، فيلة....»

«ألا تتحرك؟»

«لا، لا تتحرك، تنام منذ آلاف السنين دون أن تتحرك.»

« أينام الجبل هنا أيضاً ؟» تسأل بتيت كروا. تضع يديها مستقيمةً على الأرض اليابسة.

«نعم، هنا أيضاً ينام.»

تقول بتيت كروا: «لكنه يتحرك أحياناً، يتحرك قليلاً، ويهتز قليلاً، ثم يعود إلى النوم.»

لم يقل الجندي شيئاً لبرهة. تواجه بتيت كروا مباشرةً المشهد الطبيعي كي تشعر بما رواه الجندي. السهل الكبير طويل ووديع في مواجهة وجنتها، إلا أن الوهاد والدروب الحمراء تحرقها قليلاً، ويشقق الغبار شفتيها.

ترفعُ وجهها، فتشعر بحرارةِ الشمس.

تسأل بتيت كروا: «ماذا هناك في الأعلى؟»

«في السماء؟»

«نعم»

«حسنا..» قال الجندي. لكنه لا يعرف روايةَ ذلك. يثني عينيه من ضوء الشمس.

«هل هناك زرقةٌ كثيرة اليوم؟»

«نعم السماء شديدة الزرقة.»

«أليس هناك بياض إطلاقاً؟

«لا، إطلاقاُ»

تمّد بتيت كروا يديها إلى الأمام.

«نعم، لا بد أنها شديدة الزرقة، إنها محرقة جداً اليوم، مثل النار.»

تخفض رأسها لأن الحرارة تؤلمها.

«هل هناك نارٌ في الزرقة؟» تسأل بتيت كروا.

لم يبدُ أن الجندي قد فهم قصدها جيداً.

في النهاية يقول: «لا.. النار حمراء وليست زرقاء.»

«لكنها نارٌ مخفية» تقول بتيت كروا. «نارٌ مخفية في عمق زرقة السماء، مثل ثعلبٍ ينظر إلينا، ينظر بعينيه الحارقتين.»

« خيالك خصب.» يقول الجندي. يضحكُ قليلاً، لكنه هو الأخر تفحص السماء، واضعاً يديه كواقية أمام عينيه.

«ما تشعرين به هو الشمس.»

«لا، الشمس ليست مخفية، لا تحرق على هذا النحو. الشمس وديعة، فيما الزرقة مثل حجارة فرن، تؤلم الوجه.»، تقول بتيت كروا.

فجأة، تطلق بتيت كروا صرخةً خفيفة، وتنتفض.

يسأل الجندي: «ماذا هناك؟»

تمّرر الفتاة الصغيرة يديها على وجهها متأوهة قليلاً، رأسها محنيٌ إلى الأرض.

«لقد وخزني..» قالت.

يُبعد الجندي شعر بتيت كروا ويمرّر أطراف أصابعه الخشنة على وجنتها.

«ما الذي وخزك؟ لا أرى شيئاً...»

«نور.. زنبور»، تقول بتيت كروا.

«لا شيء هناك، يا بتيت كروا، كنت تحلمين.»، يقول الجندي.

يظلان برهةً دون أن يقولا شيئاً. بتيت كروا جالسة دوماً بزاوية قائمة على الأرض اليابسة، فيما تنير الشمس وجهها البرونزي. السماء هادئة، كما لو أنها علقت أنفاسها.

«هل يُرى البحر اليوم؟» تسأل بتيت كروا.

ضحك الجندي.

«لا، إنه بعيدٌ جداً من هنا.»

«هنا، لا يوجد إلا الجبال؟»

«البحر، إنه بعيدٌ أياماً وأياماً من هنا. حتى في الطائرة. يلزم ساعات قبل رؤيته.»

رغم ذلك، تريد بتيت كروا رؤيته. إلا أن ذلك صعب، لأنها لا تعرف كيف يكون البحر. بالطبع أزرق، ولكن كيف؟»

«هل يحرق كالسماء، أم أنه بارد كالماء؟»

«في بعض الأحيان، يحرق العيون مثل الثلج في الشمس. وفي أحيانٍ أخرى يكون حزيناً وداكناً مثل ماء الآبار. لا يكون دائماً على شكلٍ واحد.»

«هل تحبه حين يكون بارداً أم حين يحرق؟»

«أفضله حين تكون هناك غيومٌ منخفضة جداً، وحين يكون مبقعاً كله بظلالٍ صفراء تتقدم فيه مثل جزرٍ كبيرة من الطحالب.»

تجمع بتيت كروا تفكيرها، وتشعر بمرور الغيوم المنخفضة فوق البحر على وجهها. إلا أنها لا تستطيع تخيّل ذلك إلا بوجود الجندي. ربما لأنه قد شاهد البحر كثيراً في الماضي، بحيث إنه يخرج منه وينتشر حوله.

يتابع الجندي حديثه: «البحر ليس شبيهاً بهنا، إنه حيّ مثل حيوانٍ حيّ ضخم. يتحرك، يقفز، يغير شكله ومزاجه، يتحدثُ طيلة الوقت، لا تمر ثانية واحدة دون أن يفعل شيئاً، ولا يمكنك أن تملّي معه.»

«ألا يكون شريراً؟»

«أحياناً، نعم، يمسك بالناس والقوارب، يبتلعهم. إلا أن ذلك يحدث فقط في الأيام التي يكون فيها غاضباً، ومن الأفضل أن يبقى المرء في منزله.»

تقول بتيت كروا: «سأذهب لرؤية البحر.»

ينظر الجندي إليها برهة دون أن يقول شيئاً.

ثم يقول «سأصحبك».

«هل هو أكبر من السماء؟» تسأل بتيت كروا.

«ليس مثلها. لا شيء أكبر من السماء.»

بما أنه تكلم بما يكفي، أشعلَ سيجارةً إنكليزية أخرى وعاد ليدخن. تحب بتيت كروا الرائحة الناعمة للتبغ. وقبل أن ينهي الجندي سيجارته، أعطاها لبتيت كروا لتأخذ عدة نفثات قبل إطفائها. تدخن بتيت كروا مستنشقة بقوة. حين تكون الشمس حارةً جداً وتصبح زرقة السماء حارقة، يصنع دخان السيجارة ستارةً ناعمة جداً، مما يجعل الخواء يصفر في رأسها، كما لو أنها تسقط من أعلى الجرف.

حين انتهت من السيجارة، رمتها بتيت كروا أمامها، في الفراغ.

«أتعرف الطيران؟» تسأل.

يضحك الجندي من جديد:

«ماذا تقصدين بالطيران؟»

«في السماء، مثل الطيور.»

«لا أحد بإمكانه فعل ذلك.»

فجأة سمع صوت طائرة تعبر السماء، عالية جداً بحيث إنه لم يكن يُرى سوى نقطة فضية في طرف المخر الأبيض الطويل الذي يشق السماء. يعكس صوت المحركات صداه متأخراً فوق السهل وفي تجاويف السيول، مثل رعدٍ بعيد.

«إنها طائرة ستراتوفورترس[١]، إنها عالية.» يقول الجندي.

«إلى أين تذهب»

«لا أدري»

تمد بتيت كروا وجهها إلى أعلى السماء، متبعة التقدم البطيء للطائرة. يكفهر وجهها، وتشدّ شفتيها، كما لو أنها خائفة أو متألمة.

«إنها مثل الباشق، حين يعبر الباشق في السماء أشعر بأن ظله باردٌ جداً، يدور ببطءٍ، ببطء، لأنه يبحث عن فريسة»، تقول.

«إذن، أنت مثل الدجاجات. إنهن يتكومن فوق بعضهن حين يعبر الباشق فوقهن!» يقول الجندي مازحاً، إلا أنه هو أيضاً يشعر بذلك، يجعل صوت المحرك في السماء قلبه يخفق أسرع.

---

(١) ستراتوفورترس: طائرة قاذفة ثقيلة إما أن تكون B-52 أو B-58 أمريكية (المترجم).

تخيل طيران الستراتوفورترس فوق البحر، إلى كوريا، خلال ساعاتٍ طويلة. وأمواج البحر شبيهة بالتجعدات، والسماء ملساء صافية، بزرقةٍ داكنة في السمت، وبزرقة تركوازية في الأفق، كما لو أن الشفق لا يتركها مطلقاً. تصطف القنابل في مخازن الطائرة الضخمة الواحدة بجانب الأخرى، إنه موت بالأطنان.

ثم تبتعد الطائرة ببطءٍ نحو صحرائها، فيما تكنس الريح مخرها الأبيض الكثيف شيئاً فشيئاً. الصمت الذي تبعها ثقيلٌ شبه مؤلم، وتوجب على الجندي أن يجهد كي ينهض عن الحجر الذي يجلس عليه. يظلّ للحظة واقفاً، ينظر إلى الفتاة الصغيرة الجالسة بزاوية قائمة على الأرض اليابسة.

«سأذهب»، يقول.

«عّد غداً» تقول بتيت كروا.

يتردد الجندي في القول أنه لن يعود غداً، وربما بعد غد وفي أي يوم آخر، لأنه ينبغي أن يطير هو أيضاً إلى كوريا. لكنه لم يتجرأ على قول شيء، فقط يكرر القول مرة أخرى بصوت متعثر:

«سأذهب.»

تنصت بتيت كروا إلى خطواته التي تبتعد على الطريق الترابي. ثم تعود الريح، باردةً، فترتجف قليلاً تحت غطائها الصوفي. الشمس منخفضة، في الأفق تقريباً، تجيء حرارتها على دفقات وكأنها تتنفس.

الآن، تحلّ اللحظة التي تضعف فيها الزرقة ويتم امتصاصها. تشعر بتيت كروا بذلك على شفتيها المتشققتين، وعلى جفنيها، وفي أطراف أصابعها، حتى إن الأرض تصبح أقل يباساً، كما لو أن الضوء يجتازها وينهكها.

من جديد، تنادي بتيت كروا النحلات، صديقاتها، أيضاً العظاءات، السرافيت السكرى بالشمس، حشرات أوراق الشجر، وحشرات أغصان الشجر، والنمل ذي الأرتال المتراصة. تناديها كلّها وهي تغني الأغنية التي علمها إياها العجوز باهتي.

«أيتها الحيوانات.. الحيوانات

خذوني

خذوني أطير

خذوني أطير

في قطعانكم»

تمدّ يديها إلى الأمام لتمسك الهواء والنور. لم تكن تريد أن يذهبا. تريد أن يبقى كلّ شيء، أن يمكث دون أن يعود إلى مخابئه.

إنها الساعة التي يحرق النور فيها ويؤلم، النور الذي يتدفق من عمق الفضاء الأزرق. لم تتحرك بتيت كروا، و يكبر الخوفُ في داخلها. وفي مكان الشمس هناك نجمٌ شديد الزرقة ينظر، تضغط نظرته على جبهة بتيت كروا. يرتدي قناعاً من الحراشف والريش. يأتي راقصاً، يضرب الأرض بأقدامه، يأتي طائراً مثل الطائرة والباشق، وظلّه يغطي الوادي مثل معطف.

إنه وحيدٌ، ساكاسوها[١] كما يدعى، يمشي إلى القرية المهجورة، على طريقه الأزرق في السماء. وعينه الوحيدة تحدق ببتيت كروا، بنظرةٍ مخيفة تحرق وتجمد في الوقت ذاته.

تعرفه بتيت كروا جيداً. هو الذي وخزها قبل قليل مثل الزنبور، عبر المساحة الشاسعة للسماء الخاوية. يأتي كلّ يوم، في ذات الساعة، عند تراجع الشمس وعودة العظاءات إلى شقوقها بين الصخور، وعندما يصير الذباب ثقيلاً ويحط في أي مكان.

---

(١) في ميثولوجيا قبيلة الهوبي النجم الأزرق أو ساكوسوها Saquasohuh روح تعني مجيء بداية العالم الجديد الذي ستظهر على هيئة نجم أزرق. يمثل النجم الأزرق الإشارة التاسعة والأخيرة قبل يوم النقاء الذي سيأتي على شكل كارثة مدمرة تؤدي إلى نقاء الأرض (المترجم).

مثل محاربٍ ضخم، ينتصب في الطرف الآخر من السماء، ينظر إلى القرية بنظرته المخيفة الحارقة والمجمدة. وينظر إلى عيني بتيت كروا، على نحو لم ينظر إليها به أحد.

تشعر بتيت كروا بالنور الجلي والصافي والأزرق الذي يصل إلى عمق جسدها مثل الماء العذب للينابيع، والذي يجعلها تثمل. إنه نورٌ ناعمٌ مثل ريح الجنوب التي تحمل رائحة النباتات والأزهار البرية.

الآن، اليوم، لم يعد النجم ساكناً. يتقدم ببطيءٍ عبر السماء، محلقاً وطائراً، مثل نهرٍ قوي. لم تترك نظرته المضيئة عيني بتيت كروا، ويلمع بوميضٍ باهر، بحيث كان عليها أن تحمي نفسها منه بيديها.

يخفق قلب بتيت كروا بشدة. لم تكن قد رأتَ شيئاً بهذا القدر من الجمال.

تصرخ: «من أنت؟»

إلا أن المحارب لم يجب. ينتصب ساكاسوها على أنف الجبل الحجري أمامها.

تدرك بتيت كروا فجأة بأنه النجم الأزرق الذي يعيش في السماء والذي نزل على الأرض ليرقص في ساحة القرية.

تريد النهوض والرحيل عدواً، إلا أن النور الذي يخرج من عين ساكاسوها موجودٌ بداخلها ويمنعها من الحركة. عندما سيبدأ المحارب رقصه سيبدأ الرجال والنساء والأطفال في العالم بالموت. تدور الطائرات ببطءٍ في السماء، عالية جداً بالكاد تُسمع، غير أنها تبحث عن فريستها. النار والموت في كل مكان، حول أنف الجبل، والبحر نفسه يحترق مثل بحيرة من القار. المدن الكبرى مضطرمة بنور باهر يتدفق من عمق السماء. تسمع بتيت كروا دوي الرعد والانفجارات وصرخات الأطفال وصرخات الكلاب الذين سيموتون. تدور الريح حول نفسها بكل قواها، لم يعد ذلك رقصاً وإنما شيء مثل عدو حصانٍ مجنون.

تضع بتيت كروا يديها أمام عينيها. لماذا يريد الناس ذلك؟ إلا أن ذلك ربما كان متأخراً، ولن يعود عملاق النجم الأزرق إلى السماء. جاء ليرقص في ساحة القرية، كما قال العجوز باهتي بأنه قد فعلها قبل الحرب الكبرى في هوتفيلا[١].

يتردد العملاق ساكاسوها، يقف أمام الجرف، كما لو أنه لا يتجرأ على الدخول. ينظر إلى بتيت كروا ونور نظرته يدخل ويحرق بقوة شديدة داخل رأسها بحيث إنها لم تعد تستطيع التماسك. تصرخ، تقف بقفزة واحدة وتظلّ ساكنة، ذراعاها مرميتان إلى الخلف، يتوقف النفس في حلقها، ينقبض القلب، لأنها رأت لتوها فجأة السماء الزرقاء أمامها، كما لو أن العين الوحيدة للعملاق انفتحت على وسعها.

لم تقل بتيت كروا شيئاً. تملأ الدموع جفنيها، لأن نور الشمس والزرقة قويٌ جداً. تترنح على طرف جرف الأرض اليابسة، وترى الأفق يدور ببطءٍ حولها، تماماً كما قال الجندي، السهل الأصفر الكبير، الوهاد الداكنة، الدروب الحمراء، الأخيلة الضخمة للميسات. ثم تثب، وتبدأ العدو في شوارع القرية المهجورة في الظلّ والنور، تحت السماء دون أن تطلق صرخة واحدة.

---

(١) Hotevilla هوتفيلا قرية تقع في ولاية أريزونا الأمريكية في محمية لقبيلة الهوبي Hopi الأمريكية الأصلية، تعرف أيضاً باسم «الميسا الثالثة **Third Mesa**» (المترجم).

الـرعـاة

-١-

كان الطريق المستقيم الطويل يجتاز بلاد الكثبان. لاشيء هنا سوى الرمل والجنبات الشوكية والأعشاب اليابسة التي تتقصف تحت الأقدام، وفوق كلّ ذلك، امتدت سماءُ الليل السوداء الكبيرة. في الريح، كانت تُسمعُ كلّ الأصوات بوضوح، أصواتُ الليل الغامضة التي تحمل معها شيئاً من الخوف. نوع من الطقطقات الخفيفة ينبعث من الحجارة التي تتقبض، وصريفُ الرمل تحتَ نعال الأحذية، وتكسّر الزُغُف. كانت الأرض تبدو شاسعةً بهذه الأصوات، وبالسماء السوداء، وبالنجوم التي تلمعُ لمعاناً ثابتاً. كان الوقتُ يبدو طويلاً وبطيئاً جداً، يتسارعُ في بعضِ اللحظات تسارعاً غريباً عصياً على الفهم، ويترنح، مثل ما يحدث عند اجتياز تيارَ نهرٍ ما. كان مشياً في الفضاء، مثل معلق في الفراغِ بين مجموعات النجوم.

كانت أصواتُ الحشرات تأتي من كل الجهات، صريرٌ متتابع يدوي في السماء. ربما كان ذلك صوت النجوم، الرسائلُ الحادّة الصوت الآتية من الفراغ. لم يكن هناك أنوارٌ على الأرض، ما عدا حُباحْب تتعرج فوق الطريق. في الليل الأسود كسواد عمق البحر، كانت الحدقات المنبسطة تبحث عن أصغر مصدرٍ للنور.

كان الكلُّ مترصداً. حيوانات الصحراء تركضُ بين الكثبان: أرانب الرمل البرية، الجرذان، الأفاعي. كانت الريح تهب أحياناً من البحر، ويسمع

هدير الأمواج المتكسّرة على الشاطئ. كانت الريح تدفعُ الكثبان اللامعة في الليل بوهنٍ مثل أشرعة سفن. تهبُّ مثيرةً غيوماً من الرمل الذي يحرق بشرة الوجوه والأيدي.

لم يكن أحد هناك، مع ذلك، كان يُلمسُ حضور الحياة والنظرات في كلّ مكان. مثل وجود المرء في ليل مدينة كبيرة نائمة، وسيره أمام كلّ تلك النوافذ التي تُخبئ الناس.

كانت الأصوات تدوي معاً. كانت أكثرُ قوة في الليل، أكثر دِقة. كان البرد يجعلُ الأرض مرتجّة، طنانة، امتداداتٌ فسيحة من الرمل تترنم، بلاطات كبيرة من الحجارة تتكلم. كانت الحشرات تَصِر، كذلك العقارب والحريشات وأفاعي الصحراء. من وقتٍ لآخر، كان البحرُ يُسمع، هديرٌ مخنوقٌ لأمواج المحيط التي كانت تأتي كي تتحطم على رمال الشاطئ. كانت الريح تحمل صوتَ البحر إلى هنا بهباتٍ فيها قليلٌ من الرذاذ.

في أي مكان أنتم الآن؟ لم تكن هناك نقاط علام. فقط الكثبان، وأنساقها، والمدى غير المرئي للرمل حيث ترتجف حزم الأعشاب، وتطقطق أوراق الجنبات، كان كلّ ذلك على مدِّ النظر. مع ذلك، وغير بعيدٍ جداً، ثمة بيوت بالتأكيد، المدينة المسطحة، المصابيح، مصابيح الشاحنات. غير أنه لم يُعد يُعرف الآن أين كانت. فقد كنست الريح الباردة كلّ شيءٍ، وأزالت كل شيءٍ، وحتته بذراتها الرملية.

كانت السماء السوداء الكبيرة تماماً ناعمة، صلبةً، تخترقها أنوارٌ صغيرةٌ بعيدة. كان البردُ آمر هذه البلاد، صوته هو المسموع فيها.

ربما في أي اتجاه أردتم الذهاب، فإنه لم يعد بإمكانكم العودة إلى الخلف مطلقاً. ربما كانت الريحُ تغطي آثاركم، على هذا النحو، برملها وتغلق كلّ الدروب خلفكم، ثم تتحرك الكثبان ببطءٍ، بحركةٍ غير محسوسة، شبيهةً بأمواج

البحر الطويلة. كان الليل يلّفكم. يُفرغ رؤوسكم، ويجعلكم تدورون في دائرة. كان الصوتُ الهادر للبحر يأتي كما لو أنه قادمٌ عبر الضباب. صريرُ الحشرات يبتعدُ ويعود ثم يذهب، ينبثق من كلّ الجهات في وقت واحد، وتصرخ كلّ الأرضِ والسماء.

كم كان ليلُ هذه البلاد طويلاً! طويلٌ جداً إلى حدٍّ يُنسى فيه كيف كان النهار. كانت النجوم تدور ببطءٍ في الفراغ، تنزلُ نحو الأفق. ويحز شهبٌ ما السماء أحياناً، منزلقاً فوق النجوم الأخرى بسرعةٍ كبيرة ومن ثم ينطفئ. الحُباحْب أيضاً تجري في الريح، تتعلق بأغصان الشجيرات المتشابكة. تبقى هناك، تومض ببطونها. في أعلى الكثبان، كانت الصحراء تُرى، تُثار وتنطفئ من كل الجهات دون توقف.

ربما لأجل ذلك كان يُلمس هذا الوجود وهذه النظرات. ثم إنه كانت هناك هذه الأصوات، كلّ هذه الأصوات الغريبة الخفيتة، التي كانت تعيش في الجوار. كانت الحيوانات الصغيرة المجهولة تهرب مسرعةً إلى تجاويف الرمل، وتدخل جحورها، إنكم في بيوتها، وفي بلادها. كانت تُطلق إشاراتها التحذيرية. كانت طيور السُبد تطيرُ من شجيرةٍ إلى أخرى، وتتبع اليربوعات دروبها الصغيرة، وتلصق الأحناش جسدها بين بلاطات الحجارةِ الباردة. كانوا هم السكان، الذين يركضون ويتوقفون، بقلوبٍ مختلجة، وبأعناقٍ مرفوعة، وبعيونٍ ثابتة. كان هنا عالمهم.

قبل الفجر بقليل، حين أصبحت السماء رمادية شيئاً فشيئاً، بدأ كلبٌ بالنباح، فأجابته الكلاب البرية. أطلقت صرخات طويلة حادة، برؤوسٍ ملتفتة إلى الخلف. كان شيئاً غريباً يجعل البشرة ترتعش.

لم يعد هناك الآن أصوات حشرات، لم تعد الحجارة تطقطق. كان الضباب يصعد من البحر متبعاً مجرى السيول الجافة، يعبر ببطءٍ فوق الكثبان، متمدداً مثل الدخان.

كانت النجوم تُمحى من السماء، ضوءٌ ما يرسم بقعةً في الشرق فوق الصحراء. بدأت الأرضُ بالظهور، ليست جميلةً على الإطلاق، لكنها رمادية متكدرة، لأنها كانت لا تزال نائمة. كانت الكلاب البرية تشردُ بين الكثبان، بحثاً عن طعام. كلابٌ صغيرة نحيفة ذات ظهورٍ مقوسة، وأطرافٍ طويلة. لها آذان مُقَرَّنة مثل الثعالب.

كان النورُ يزداد، وصارت الأشكال تتمايز. هناك سهلٌ مزروعٌ بالصخور المحروقة، وبعضُ الأكواخ الترابية ذات أسقفٍ من سعف النخيل. كانت أكواخاً متداعية، رُبما هُجرت منذ شهور، ما عدا واحدٌ منها يعيش فيه الأطفال. كان السهل الكبير من الحجارة والكثبان يحيطُ بالبيوت. والبحر خلف الكثبان. تجتاز بعضُ الدروب السهل، خطتها الأقدام الحافية للأطفال وحوافر الماعز.

حين ظهرت الشمس فوق الأرض، بعيداً في الشرق، أنار الضوءُ السهل بدفقةٍ واحدة. كان رملُ الكثبان يلمعُ مثل غبارِ النحاس، والسماءُ ناعمةٌ جليةٌ مثل الماء. اقتربت الكلاب البرية من البيوت وقطعان الماعز.

كان هنا عالمهم، في المدى الواسع للحجارة والرمل.

أحدٌ ما كان يدنو عبرَ الدروب، بين الكثبان. كان فتىً يلبس مثل أهل المدينة. على كتفه سترة كتانية مجعدة قليلاً، وحذاؤه القطني الأبيض مغطى بالغبار. من وقتٍ لآخر، كان يقف متردداً، لأن الدروب تتفرع. كان يحدد صوت البحر عن يساره، ثم يستأنف سيره. أصبحت الشمس عاليةً في الأفق، إلا أنه لم يكن يشعر بحرارتها. النورُ المنعكس على الرمل يرغمه على إغلاق عينيه. لم يكن وجهه معتاداً على الشمس، فاحمّر في بعض الأماكن، جبهته، أنفه خاصة، حيث بدأت بشرته تزول. لم يكن الفتى معتاداً أيضاً على السير في الرمل، كان ذلك يظهر من طريقة لَيّهِ لعرقوبيه حين يمشي في مهابط الكثبان.

توقف الفتى لدى وصوله إلى جدار الحجارةِ المرصوصةِ. كان جداراً طويلاً جداً يسدّ السهل، يختفي من طرفيه تحت الكثبان. كان عليه أن يقوم بالتفافةٍ طويلة كي يجد معبراً. تردد، ونظر خلفه، مفكراً بأنه ربما قد يعود على أعقابه.

حينها سمع أصواتاً قادمة من الطرف الآخر من الجدار، صرخاتٌ مخنوقة، نداءات. كانت أصوات أطفالٍ، حملتها الريح فوق الجدار، فيها شيء من الخيال، ممزوجة بهدير البحر. كانت الكلاب البرية تنبح بقوة أكثر، لأنها شعرت بحضور قادمٍ جديد.

صعد الفتى الجدار ونظر إلى الطرف الآخر. غير أنه لم يلمح الأطفال. في هذا الجانب من الجدار، امتد السهل الصخري ذاته، والشجيرات ذاتها، وفي البعيد، بدا خط الكثبان الخفيف.

كانت لدى الفتى رغبةٌ قوية في الذهاب لرؤية ما هناك. كان هناك الكثير من الآثار على الأرض، دروبٌ، صخور بين الشجيرات المتشابكة تدل على المعبر. كانت الشمس تجعل جزيئات الميكا تلمع.

كان الفتى مجذوباً إلى هذا المكان. قفز فوق الجدار، وشعر بخفةٍ أكثر، وبحريةٍ أكبر. أنصت إلى صوت الريح والبحر، ورأى التجاويف التي كانت تعيش فيها العظاءات، ورأى الشجيرات المتشابكة حيث تبني الطيور أعشاشها.

بدأ يمشي في السهل الحجري. هنا كانت الشجيرات أكثرُ علواً، يحمل بعضها ثمرات عنبية حمراء.

توقف فجأة، لأنه سمع من مكانٍ قريبٍ جداً إليه:

«فررت! فررت!»

صوتٌ غريب، كما لو أن أحدهم كان يرمي بحصيات صغيرة على الأرض. إلا أن أحداً لم يظهر.

عاد الفتى إلى التقدم. كان يتبعُ درباً ضيقاً يقود إلى مجموعة من الصخور، وسطَ المكان المسور بالحجارة المرصوصة.

مرةً أخرى، سمع من مكانٍ قريبٍ جداً إليه:

«فررت! فررت!»

كان ذلك يجيء الآن من الخلف. لكنه لم يرَ إلا الجدار والشجيرات المتشابكة والكثبان. وما من أحدٍ هناك.

إلا أن الفتى كان يشعرُ أن أحداً ما ينظر إليه. كان ذلك يجيء من الجهات كلّها في الوقت ذاته. نظرةٌ مصّرة تترصده، تتبع كلّ حركةٍ من حركاته. كان يُنظر إليه منذ زمنٍ طويل، لكن الفتى أدرك ذلك الآن فقط. لم يكن خائفاً، كان الضحى قد حلَّ، فضلاً عن أنها لم تكن نظرة مرعبة.

كي يرى ما كان سيحدث، تربع الصبي قرب دغل منتظراً، كما لو أنه يبحثُ عن شيءٍ ما في الأرض. بعد لحظةٍ، سمع صوت ركض. وقف، فرأى ظلالاً كانت تختبئ بين الشجيرات، وسمع ضحكات مخنوقة.

حينها أخرج من جيبه مرآة صغيرة، ووجّه الانعكاس باتجاه الشجيرات. كانت الدائرة البيضاء الصغيرة ترفرف، وبدت كأنها أشعلت الأوراق اليابسة.

فجأة، وسط الأغصان، أضاءت الدائرة البيضاء وجهاً، وجعلت زوجاً من العيون يلمع. حافظ الفتى على انعكاس الشمس على الوجه إلى أن نهض المجهول مبهوراً بالضوء.

نهض الأربعة معاً: كانوا أطفالاً. نظر إليهم الفتى باندهاش، كانوا صغاراً، حفاة الأقدام، بثيابٍ من كتان قديم، وجوههم ذات لون نحاسي، كذلك لون شعرهم المنسدل بخصلٍ عريضة. في الوسط، كانت هناك فتاةٌ صغيرة شرسة المنظر، ترتدي قميصاً أزرق واسعاً عليها. كان أكبر الأطفال الأربعة يمسك في يده اليمنى قدة كبيرة خضراء بدت أنها مصنوعة من قشٍ مضفور.

بما أن الفتى ظل ساكناً، اقترب الأطفال. كانوا يتكلمون بصوتٍ منخفض ويضحكون، لكن الفتى لم يكن يفهم ما يقولونه. سألهم من أين جاؤوا، ومن هم، غير أن الأطفال هزوا رؤوسهم وتابعوا ضحكهم بعض الشيء.

وبصوتٍ فيه شيء من البحّة، قال الفتى:

«أدعى غاسبار.»

نظر الأطفال فيما بينهم، وانفجروا ضاحكين. كانوا يرددون:

«غاش با! غاش با!»

على هذا النحو، بأصواتٍ حادة، كانوا يضحكون كما لو أنهم لم يسمعوا شيئاً أكثر إضحاكاً من ذلك.

«ما هذا؟» قال غاسبار، أخذ في يده القدة الخضراء التي يحملها الطفل الأكبر. انحنى الصبي والتقط حصوةً صغيرةً من الأرض، ووضعها في تجويف القدة وجعلها تدور فوق رأسه. فتح يده، فارتخت القدة وطارت الحصوة في السماء مصفّرةً. حاول غاسبار أن يتبعها بعينيه، إلا أن الحصاة اختفت في الهواء. وحين سقطت على الأرض، على بعد عشرين متراً، أشارت غيمة صغيرة من الغبار إلى المكان الذي ضربته.

صرخ الأطفال الآخرين مصفقين. ناول أكبر الأطفال القدة إلى غاسبار، وقال:

«غوم!»

اختار الفتى بدوره حصاةً من الأرض ووضعها في حلقة المقلاع. غير أنه لم يعرف الإمساك بالقدة. أرشده الصبي ذو الشعر النحاسي عن كيفية انزلاق طرف القدة حول إصبعه، وثنى أصابع غاسبار على الطرف الآخر. بعد ذلك تراجع قليلاً وقال مرة أخرى:

«غوم! غوم!»

بدأ غاسبار بلف ذراعه فوق رأسه، غير أن القدة كانت ثقيلةً وطويلة، وأقل سهولة بكثير مما كان يظن. لف عدة مرات القدة، أسرع فأسرع، وفي اللحظة التي كان جاهزاً فيها ليفتح يده، قام بحركة خاطئة. أطلقت الضفيرة صفيرها وأصابت ظهره بقوة بحيث إنها مزقت قميصه.

كان غاسبار متألماً، وغاضباً، غير أن الأطفال كانوا يضحكون بحيث إنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك، هو أيضاً. صفق الأطفال وصرخوا:

«غاش با! غاش با!»

جلسوا بعد ذلك على الأرض. أخرج غاسبار مرآته الصغيرة، وتسلى أكبر الأطفال برهةً بانعكاس الشمس، ومن ثم نظر في المرآة.

ود غاسبار معرفة أسمائهم، غير أن الأطفال لم يكونوا يتكلمون لغته. كانوا يتكلمون لغةً غريبة، ذلقة اللسان أجشة قليلاً، تطلقُ موسيقا تُوائم منظر الحجارةِ والكثبان. كانت مثل طقطقةِ الحجارة في الليل، وحفيف الأوراق اليابسة، وصوتِ الريح على الرمل.

بقيت الفتاة الصغيرة وحدها بعيدة. كانت تجلس على عقبيها، وركبتاها وقدماها مغطاة بقميصها الأزرق الكبير. كان شعرها ذا لونٍ نحاسي زهري ينسدل بخصلاتٍ كثيفة على كتفيها، عيناها شديدتا السواد، مثل الصبية، لكنهما أكثر لمعاناً. ثمة نورٌ غريب في عينيها، مثل ابتسامة لا تريد أن تظهر كثيراً. أشار أكبر الأطفال غاسبار إلى الفتاة مردداً عدة مرات:

«كاف... كاف... كاف...»

وهكذا دعا غاسبار الفتاة: كاف. كان اسماً يلائمها.

أخذت الشمسُ تلمع بقوةٍ. كانت تضيء بكلّ أشعتها الصخور الحادة، ومضات صغيرة تشّع، كما لو أنه هناك مرايا.

توقف صوت البحر، لأن الريح أصبحت تهبّ من جهة الأرض، من الصحراء. ظلّ الأطفال جالسين. كانوا ينظرون إلى جهة الكثبان وهم يثنون عيونهم. كانوا يبدون كما لو أنهم ينتظرون.

كان غاسبار يتساءل عن كيفية عيشهم هنا، بعيداً عن المدينة. ود أن يسأل أكبر الصبية، لكن ذلك لم يكن ممكناً. حتى وإن كانوا يتكلمون ذات اللغة، لما تجرأ غاسبار أن يسأل. هكذا هي الحال، كان مكاناً لا ينبغي طرحُ الأسئلة فيه.

حين صارت الشمس في أعلى السماء، غادر الأطفال كي يلحقوا القطيع. ذهبوا باتجاه الصخور الكبيرة المحروقة، هناك في الشرق، بالتتابع عبر الدرب الضيق، دون أن يقولوا شيئاً لغاسبار.

رآهم غاسبار يغادرون، وهو جالس على كومة الحجارة. كان يتساءل عما ينبغي فعله، ربما كان ينبغي أن يعود إلى الخلف، إلى الطريق، وإلى منازل المدينة، وإلى الناس الذين كانوا ينتظرونه، هناك في الطرف الآخر من الجدار والكثبان.

حين ابتعد الأطفال، وأصبحوا بالكاد مثل حشرات سوداء على السهل الصخري، استدار أكبرهم نحو غاسبار، وحوم مقلاعه العشبي فوق رأسه. لم ير غاسبار شيئاً، غير أنه سمع صفيراً بالقرب من أذنه، وسقطت الحصاة خلفه. نهض، وأخرج مرآته الصغيرة وأطلق انعكاساً نحو الأطفال.

«هاا-هوو-هاا!»

صرخ الأطفال بأصواتهم الحادة. كانوا يشيرون بأيديهم. وحدها الصغيرة كاف كانت تتابع السير عبر الدرب دون أن تلتفت.

قفز غاسبار وشرع يركض بكل قواه عبر السهل، قافزاً فوق الحجارة والشجيرات المتشابكة، ولحق بالأطفال في بضع لحظات، ومعاً تابعوا السير في طريقهم.

أصبح الجو حاراً. فتح غاسبار قميصه وطوى أكمامه. ووضع سترته الكتانية على رأسه، للاحتماء من الشمس. كانت أسرابٌ من الذباب الصغير تعبر الهواء الساخن مدّويةً حول شعر الأطفال، وكانت الشمس تبسط الحجارة وتطقطق أغصان الشجيرات. السماء صافية جداً، إلا أنه صار للونها اللون الشاحب لغاز ساخن جداً.

كان غاسبار يمشي خلف أكبر الأطفال، بعينين نصف مغلقتين بسبب الضوء. ما من أحد يتكلم. جففت الحرارة الحلوق، كان غاسبار يتنفس عبر فمه، و يؤلمه حلقه بشدة لدرجة الاختناق. توقف وسأل الطفل الكبير:

«إني عطشان...»

أعاد ذلك عدة مراتٍ مشيراً إلى حلقه. هز الصبي رأسه، ربما لم يفهم. رأى غاسبار أن الأطفال لم يعودوا كما كانوا قبل قليل. فقد أصبحت وجوههم قاسية، وبشرة وجناتهم حمراء داكنة، ذات لونٍ يماثل التراب، وكانت عيونهم أيضاً داكنة، تلمعُ بلمعانٍ معدني قاسٍ.

اقتربت كاف الصغيرة، وفتشت في جيوب قميصها الأزرق مخرجةً منها حفنة من الحبوب قدمتها لغاسبار. كانت حبوباً تشبه حبات الفول، خضراء مغبرة. بمجرد أن وضعها غاسبار في فمه، أحرقته مثل الفلفل، وسرعان ما رطبت حلقه وأنفه.

أشار الطفل الكبير إلى الحبوب وقال:

«لوُلا.»

تابعوا السير، متجاوزين أول سلسلةٍ من التلال. في الطرف الآخر كان هناك سهلٌ مماثلٌ للسهل الذي تركوه. سهلٌ صخري كبير، نمت الأعشاب وسطه.

هنا كان القطيع يرعى.

كانت هناك غنمات سود تتجاوز العشر، وبضع عنزات، وتيس أسود كبير بقي على بعدٍ قليل. توقف غاسبار ليستريح، إلا أن الأطفال لم ينتظروه، فقد كانوا ينزلون جرياً عبر الوهد المؤدي إلى السهل، مطلقين صرخات غريبة.

«هاوا! هاوووا!»

مثل نباح، ومن ثم كانوا يصفرون بأصابعهم.

نهضت الكلاب مجيبة:

«هاو! هاو! هاو! هاو!»

ارتعد التيس الكبير وضرب الأرضَ بحوافره. ثم التحق بالقطيع فتباعدت كل البهائم. كانت غيمة من الغبار قد بدأت بالدوران حول القطيع. ترسم الكلاب البرية أطواقاً سريعة، والتيس يدورُ في الوقت نفسه، مخفضاً رأسه، مبرزاً قرنيه القاطعين الطويلين.

كان الأطفال يقتربون، يعوون ويصفرون. حَّوم أكبرهم مقلاعه العشبي، وفي كلّ مرةٍ كان يفتحُ فيها يده كانت حصاةٌ تصيب بهيمة في القطيع. كان الأطفال يركضون محركين أذرعهم، دون أن يتوقفوا عن الصراخ:

«ها! هاوا! هاواب!»

حين تجمع القطيع حول التيس، أبعد الأطفال الكلابَ بضربات الحجارة. نزل غاسبار بدوره الوهد. زمجرَ كلبٌ بري، كشر عن أنيابه، فحّوم غاسبار سترته صارخاً هو أيضاً:

«ها! هاااا!»

لم يعد يشعر بالظمأ، واختفى تعبه. كان يركض في السهل الصخري محوماً سترته. كانت الشمس العالية جداً في السماء البيضاء تلمعُ بعنف، والهواء مشبع بالغبار، فيما كانت رائحة الغنم والماعز تلفّ وتخترق كل شيء.

كان القطيع يتقدم ببطءٍ وسطَ العشبِ الأصفر، باتجاه التلال. كانت البهائم ملتصقةً ببعضها، تصرخُ نائحةً. وخلفَ القطيع، كان التيسُ يسير بثقل، مخفضاً في بعض الأحيان قرنيه الحادين. كان أكبر الأطفال يراقبه. دون أن يتوقف، التقط حصاةً وجعل مقلاعه يعمل. نفث التيس بغضبٍ شديد، ومن ثم قفز حين أصابت الحصاة ظهره.

في الجو المحموم، تتابع الكلابُ البرية ركضها حول القطيع صارخةً. فيما الأطفال يردون عليها ويرمونها بالحجارة. فعل غاسبار ما يفعلونه، كان وجهه رمادياً من الغبار، وشعره ممتزجاً بالعرق. نسي كلّ شيءٍ لحظتها، كلّ ما كان يعرفه قبل وصوله، شوارع المدينة، قاعات الدراسة المعتمة، أبنية القسم الداخلي البيضاء الكبيرة، المروج، كلّ ذلك اختفى مثل سرابٍ في الهواء الساخن للسهل الخالي.

كانت الشمس خاصةً سبب ما يحصلُ هنا. كانت وسطَ السماء البيضاء، وتحتها تدور البهائم في غيمةِ الغبار. تجتاز الظلال السوداء للكلاب السهل، تعود وترحل ثانية. كانت الحوافر تطرق الأرضَ اليابسة، مما يحدث صوتاً يتدحرج ويهدرُ مثل البحر. لم تكن صرخاتُ الكلاب وأصوات الغنم ونداءات وصفير الأطفال تتوقف.

على هذا النحو، وببطءٍ، بدأ القطيع بتجاوز سلسلة التلال الثانية، متبعاً مجرى السيول. كان الرملُ يصعدُ في الهواء، محمولا في هبات الريح، ثم يهبط على السهل مشّكلاً دوامات.

كانت الوهاد تضيق أكثر، تحيطها أدغال شائكة. تترك الأغنام في مسلكها خُصلاً من الصوف الأسود. مزق غاسبار ملابسه بالأغصان، وسال الدم من يديه، إلا أن الريح الحارة أوقفت الدم فوراً. كان الأطفالُ يصعدون التلال دون تعبٍ، إلا أن غاسبار وقع عدة مرات منزلقاً على الحصى.

حين وصلوا إلى القمة، توقف الأطفال ليشاهدوا ما حولهم. لم يرَ غاسبار شيئاً بهذا القدر من الجمال. كان السهلُ والكثبان أمامهم تهبط ببطءٍ، على هيئة أمواجٍ إلى أن تصل حدودَ الأفق. كان مدى واسعاً جداً متموجاً، بكتلٍ صخرية كبيرة داكنة، وبأكمات رملية حمراء وصفراء. كان كلّ شيءٍ بطيئاً، هادئاً جداً. في الشرق، جرفٌ صخريٌ أبيض يشرف على السهل مادّاً ظلّه الأسود. وثمة وادٍ بين التلال والكثبان يتلوى ويهبط متدرجاً، وفي طرف الوادي، في البعيد، بعيداً جداً بحيث كاد ذلك أن يصير ضرباً من الخيال، كانت الأرضُ تُشَاهدُ بين التلال: بالكاد، رماديةً، زرقاء، خضراء، خفيفة مثل غيمة، الأرض البعيدة، السهلُ العشبي والماء. خفيفة، وديعة، رهيفة مثل البحر المرئي من بعيد.

كانت السماء هنا كبيرةً، والنور أكثرُ جمالاً، أكثر صفاءاً. لم يكن هناك غبارٌ. تهبُ الريح في أوقاتٍ متقطعة، عبر الوادي، الريحُ المنعشة التي تجعلكم ممتلئين بالسكينة.

كان غاسبار والأطفال ينظرون إلى السهل البعيد دون أن يتحركوا، وهم يشعرون بنوعٍ من السعادة في أجسادهم. ودّوا أن يطيروا بلمح البصر وأن يحطّوا هناك وسطَ الوادي.

لم ينتظر القطيع الأطفال، نزل التيسُ الكبير ذو الرأس الأسود المنحدرات بسرعةٍ متبعاً الوهد، لم تعد الكلاب البرية تنبح، فقد كانت تنطّ خلف القطيع.

نظرَ غاسبار إلى الأطفال. كانوا واقفين على صخرةٍ مشرفة، يتأملون المشهد دون كلام. كانت الريحُ تحرك ملابسهم، فيما صارت وجوههم أقلُّ قسوةً، والنور الأصفر يلمع على جباههم وشعورهم. حتى إن كاف الصغيرة فقدت هيئتها الشرسة. قامت بتوزيع حفنات من الحبوب المفلفلة على الأطفال. مدت يدها، دالةً غاسبار على الوادي الذي كان يلمع قرب الأفق، قائلةً:

«جينا»

تابع الأطفالُ السير في الطريق، أثر الغنم، كان غاسبار يمشي أخيراً. وكلّما كانوا ينزلون التلال كان الوادي البعيد يختفي خلف الكثبان. إلا أنهم لم يعودوا بحاجةٍ إلى رؤيته. كانوا يتبعون الوهد، باتجاه الشمس المشرقة.

خفّ الحر. كان النهار قد مضى دون أن يشعروا، وأصبحت السماءَ مذهبةً، وما عاد الضوء ينعكس على جزيئات الميكا.

كان القطيع متقدماً على الأطفال بنصف ساعة من الوقت، حين وصلوا إلى قمة أكمة، رأوه يصعد الطرف الآخر، والحجارة تسقط بفعله.

غربت الشمس بسرعة. حلّ غسقٌ قصير، فيما بدأ الظلُ يغطي الوهد. حينها جلسَ الأطفال في تجويف صخرةٍ ينتظرون الليل. جلس غاسبار بجانبهم، كان ظمآناً وفمه متورماً بسبب الحبوب المفلفلة. نزع حذاءه فرأى قدميه تنزفان، كان الرملُ قد دخل إلى حذائه ونزع بشرته.

أشعل الأطفال ناراً من العسلوج. ومن ثم غادر أحد الصبية الصغار باتجاه القطيع، وعاد في الليل حاملاً قربةً مليئةً بالحليب. شرب الأطفال، كلٌّ بدوره. كانت الصغيرة كاف الأخيرة، ثم أعطت القربة لغاسبار. شرب غاسبار ثلاث جرعات كبيرة. كان الحليب عذباً ودافئاً، مما هدأ بسرعة ورم فمه وحلقه.

حلّ البرد، إذ كان يخرج من الأرض، مثل نفث قبو. اقترب غاسبار من النار وتمدد على الرمل. كانت الصغيرةُ كاف قدّ نامت بجانبه، فرش غاسبار فوقها سترته الكتانية. ومن ثم، بعينين مغلقتين، أنصت إلى صوت الريح، الذي شكلّ مع زفير النار موسيقا عذبةً ملائمة للنوم، كما كان يُسمع من بعيد ثغاء الماعز والغنم.

أيقظ غاسبار القلقُ الخفيف. فتح عينيه، فرأى أول ما رأى السماء السوداء بنجومها والتي كانت تبدو قريبة جداً. كان البدر أبيضاً، يضيءُ مثل مصباحٍ، والنار مطفئة، فيما نام الأطفال. حين أدار رأسه، رأى غاسبار أكبر

الأطفال واقفاً أمامه. كان عبل (كان غاسبار قد سمع اسمه عدة مرات حين كان الأطفال يتكلمون) ساكناً ومقلاعه العشبي الطويل بيده، ونور القمر ينير وجهه ويلمع في عينيه. نهض غاسبار متسائلاً عن الوقت الذي نام فيه. كانت نظرة عبل هي التي أيقظته، كانت نظرةٌ تقول:

«تعال معي.»

نهض غاسبار ومشى خلف الصبي. كان بردُ الليل قارساً، مما أكمل صحوه. وعلى مسافة عدة خطوات، أدرك أنه نسي لبس حذائه، غير أن قدميه المسلوختين كانتا أفضل على هذا النحو، فتابع.

تسلقا معاً انحدار الوهد. تحت نور القمر، كانت الصخور بيضاء، مائلة إلى الزرقة. كان غاسبار يتبع عبل نحو قمة التل، بقلبٍ يخفق. لم يتساءل حتى إلى أين كان يذهب. ثمة شيءٌ غامض يجذبه، ربما شيءٌ ما في نظرة عبل، غريزة ما كانت تقوده، تساعده على السير بأقدامٍ عارية على الحصى الحاد، دون صوتٍ. كان الظلّ الرشيق لعبل يقفز أمامه من صخرةٍ إلى أخرى، بصمتٍ ومرونة مثل قط.

في أعلى الوهد، أخذتهما الريح، ريحٌ باردة تقطع النفس. توقف عبل وتفحص ما حولهما. كانا في مكان شبيه بهضبةٍ صخرية. كانت بعض الأدغال السوداء تتحرك في الريح، والبلاطات الصخرية الملساء تلمعُ في نور القمر، تفصل الشقوق ما بينها.

لحق غاسبار ببعلٍ، دون صوتٍ. كان الفتى يترصد. لا شيء يتحرك في وجهه، ما عدا عينيه. رغم صفير الريح، كان يُخيل لغاسبار أنه يسمعُ خفقان قلب عبل في صدره. كان يرى توهجَ غيمة البخار الصغيرة أمام وجهه في كل مرة يتنفس عبل فيها.

دون أن تترك عيناه الهضبة المنارة، التقط عبل حصاة ووضعها في مقلاعه العشبي. ثم، فجأة، حّوم القدة فوق رأسه. كان المقلاع يدور أسرع فأسرع مثل طائرة مروحية. ابتعد غاسبار، كان هو الآخر يتفحص الهضبة، تفحص كلّ حجر، كلّ شق، كلّ دغل أسود. كان المقلاع يدور مصدراً صفيراً مستمراً، في البداية خفيضاً شبيهاً بهزيز الريح، ومن ثم حاداً مثل صوت صفارة إنذار.

بدت موسيقا المقلاع تملأ كل الفضاء. كانت السماء والأرض والصخور والشجيرات والأعشاب كلّها تردد الصدى. كان يصل ذلك حتى الأفق، كان صوتاً ما ينادي. ماذا كان يريد؟ لم يخفض غاسبار عينيه، كان ينظر إلى ذات النقطة مباشرةً أمامه، على الهضبة القمرية، فيما كانت عيناه تحترقان من التعب والرغبة. كان جسد عبل يرتجف، كما لو أن صفير المقلاع يخرج منه، من فمه ومن عينيه، كي يغطي الأرض ويصل إلى عمق السماء السوداء.

فجأةً، ظهر أحدٌ ما على الهضبةِ الحجرية. أرنبٌ بري صحراوي كبير، بلون الرمل. كان واقفاً على أطرافه، أذناه الطويلتان منتصبتان. كانت عيناه تلمعان مثل مرآتين صغيرتين، فيما نظره متجهٌ نحو الطفلين. ظلّ الأرنب البري ساكناً مسمراً في طرف البلاطة الحجرية، مستمعاً إلى موسيقا المقلاع العشبي.

قرقعت القدة واستلقى الأرنب البري على جانبه حيث إن الحصاة قد أصابت تماماً ما بين عينيه.

استدار عبل نحو رفيقه ونظر إليه. كان وجهه مُناراً بالسرور، ركض الطفلان معاً لالتقاط الأرنب البري. أخرج عبل سكيناً صغيرة من جيبه، ودون تردد قطع رقبة الحيوان، وثم ثبت الطرفين الخلفيين ليفرغه من دمه.

أعطى الأرنب البري لغاسبار، وبيده سلخ الجلد إلى الرأس، ومن ثم شق البطن، وأخرج الأحشاء ورماها في أحد الصدوع.

نزلا ثانية نحو الوهد، أثناء عبورهما أمام شجيرة، اختار عبل غصناً طويلاً وقلّمه بسكينه.

حين وصلا إلى المخيم، أيقظ عبل الأطفال. أشعلوا النار ثانية بأعشاب عسلوج جديدة. سفد عبل الأرنب البري على الغصن وقرفص أمام النار ليشويه. حين نضج الأرنب، قسّمه بأصابعه، فأعطى غاسبار فخذاً واحتفظ بالآخر له.

أكل الأطفال سريعاً، ورموا العظام للكلاب البرية، ثم عادوا إلى الاستلقاء حول جذوة النار وناموا. ظلّ غاسبار بضع دقائق، بعينين مفتوحتين، ينظر إلى القمرِ الأبيض الذي يشبه منارةً فوق الأفق.

-٢-

منذ عدة أيام، والأطفال يعيشون في جينا. كانوا قد وصلوا إلى هنا قبل غروب الشمس بقليل، دخلوا الوادي في الوقت ذاته الذي دخل فيه القطيع. فجأة، عند منعطف الدرب، رأوا السهل الأخضر الكبير الذي كان يلمع بوداعةٍ، وتوقفوا برهةً دون أن يستطيعوا الحركة، كان ذلك رائعاً جداً.

كان رائعاً حقاً! أمامهم فضاء الأعشاب العالية المتموج مع الريح، والأشجار المتهادية، والكثير من الأشجار المشيقة، بجذوعٍ سوداء وأوراق عريضة خضراء، لوز، حور، أشجار غار ضخمة، كان هناك أيضاً أشجار نخيلٍ عالية بسعفٍ متهادية. كانت التلال الحجرية تَمّدُ ظلها حول السهل، فيما كانت الكثبان الرملية، من ناحية البحر، بلون الذهب والنحاس. إلى هنا، وصل القطيع، فقد كانت الأرض أرضهم.

كان الأطفال ينظرون إلى العشب دون أن يتحركوا، كما لو أنهم لم يجرؤوا على المشي عليه. كانت البحيرة المحاطة بالنخيل وسط السهل، تلمع مثل مرآة، أحسّ غاسبار بارتعاشٍ في جسده. التفت ونظر إلى الأطفال، كانت وجوههم منارةً بالنور العذب القادم من سهل العشب. لم تعد عينا كاف الصغيرة داكنتين، صارتا شفافتين، بلون العشب والماء.

كانت هي أول من انطلق. ألقت بحملها، فيما كانت تصرخ وبكلّ قواها بكلمةٍ غريبة:

«مويا ا ا!...»

وانطلقت تركض وسط العشب.

«إنه الماء! إنه الماء!» فكر غاسبار. غير أنه صرخ مع الآخرين بالكلمة الغريبة، وبدأ يركض نحو البحيرة.

«مويا! مويا ا ا!»

كان غاسبار يركض بسرعةٍ، والأعشاب الطويلة تضربُ يديه ووجهه، وتتنحى أمام جسده حّافةً. كان غاسبار يركض عبر السهل، فيما تدق قدماه الحافيتان الأرض الرطبة، وتجز ذراعيه أوراق العشب القاطعة. كان يسمع صوت قلبه، وحفيف الأعشاب التي تنثني خلفه. وعلى بعد بضعة أمتارٍ إلى اليسار، كان عبل يركض بسرعةٍ أيضاً، صارخاً. كان يختفي أحياناً تحت العشب، ثم يظهر، قافزاً فوق الحجارة. كانت طرقهما تتقاطع، تتباعد، ويركض خلفهما الأطفال الآخرون، يقفزون لرؤية المكان الذي يذهبون إليه. كانوا ينادون، فيما غاسبار يجيب:

« مويا ا ا!»

يشمون رائحة الأرض الرطبة والرائحة الحامزة للعشب المهروس ورائحة الشجر. فيما كانوا يتابعون جريهم دون استعادة أنفاسهم، كانت شفراتُ العشب تسوط وجوههم مثل سياط، يصرخون دون أن يشاهدوا بعضهم، يتنادون، مرشدين بعضهم بعضاً إلى الماء.

«مويا! مويا!»

كان غاسبار يرى سطح الماء أمامه، يتلألأ وسط العشب. خطر له بأنه سيكون أول من يصل، يركض على نحوٍ أسرع. إلا أنه فجأة، سمع صوت كاف خلفه. كانت تصرخ مستغيثة مثل شخصٍ قد ضاع:

« مويا ا ا!»

لذا عاد غاسبار إلى الخلف، وبحث عنها بين العشب. كانت قصيرةً جداً بحيث لم يرها. دار عدة دورات منادياً:

«مويا!»

وجدها بعيدةً خلف الأطفال الآخرين، تركض بخطواتٍ قصيرة، تحمي وجهها بذراعها، لابد أنها وقعت عدة مرات، لأن قميصها وساقيها غطاهما التراب. رفعها غاسبار ووضعها على كتفيه، وعاد إلى الأمام. صارت هي من يقوده الآن. تدفعه باتجاه الماء، متشبثةً بشعره، صارخة:

«مويا! مويا ا ا!»

ببضع قفزات، تدارك غاسبار تأخره، فتجاوز الصبيين الصغيرين، ووصل إلى حافة الماء مع عبل في الوقت ذاته. سقط الثلاثة معاً في الماء البارد، لاهثين، وشرعوا بالشرب ضاحكين.

قبل حلول الليل، بنى الأطفال منزلاً. كان عبل هو المعماري، قصّ أعواد قصب طويلة وأغصاناً. وبمساعدة الصبية الآخرين، هيأ الهيكل بطوي القصب على شكل أقواس وربطه في الأعلى بالأعشاب. ثم سدّ الفجوات بأغصان صغيرة. خلال هذا الوقت، جلست الصغيرة كاف وأوغسطين، أحد الصبيين الصغيرين، مقرفصين على حافة البحيرة، يصنعان الطين.

حين صارت العجينة جاهزة، نشروها على جدران المنزل برّبتها براحات الأيدي. كان العملُ يتقدم بسرعة، وعند غروب الشمس كان المنزل قد انتهى. كان شبيهاً بكوخ أسكيمو، من طين، مع جانبٍ مفتوحٍ للدخول. لم يكن عبل وغاسبار يستطيعان الدخول إلا على أطرافٍ أربعة، إلا أن الصغيرة كاف كانت تستطيع الوقوف فيه منتصبةً. كان المنزل على ضفة البحيرة، وسط شاطئ رملي. تشكل الأعشاب العالية حوله جداراً أخضر. في الطرف الآخر من البحيرة تنتصب أشجار النخيل العالية، والتي تم الحصول على السعف منها لسقف المنزل.

بعد أن شرب القطيع ابتعد عبر سهل العشب. ولم يبدُ القلق على الأطفال لأجله، إذ كانوا يسمعون الثغاء من وقتٍ لآخر قادماً مع الريح من الطرف الآخر للعشب.

حين حلّ المساء، ذهب أصغر الصبية لحلب الماعز. شربوا معاً الحليب العذب والدافئ، ومن ثم ناموا متراصين بحانب بعضهم داخل المنزل. كان يصعد من البحيرة نوع من الضباب الخفيف، فيما توقفت الريح. كان غاسبار يشم رائحة التراب المبلول على جدران المنزل، وينصت إلى صوت الضفادع وحشرات الليل.

مضت عدة أيام على عيشهم هنا، كان منزلهم هنا. كانت النهارات طويلة جداً، والسماء دائما فسيحةً وصافية، فيما كانت الشمسُ تجتاز في وقتٍ طويل طريقها من أفقٍ إلى آخر.

كلّ صباحٍ، عند استيقاظه، غاسبار يشاهدُ سهل العشب يرشحُ بقطراتٍ صغيرة تلمع في النور. كانت التلال الحجرية فوق السهل ذات لونٍ نحاسي، فيما تبرز الصخور الحادّة أمام السماء الصافية. لم يكن هناك غيوم في جينا، ما عدا مخرٌ أبيض لطائرةٍ نفاثة تعبرُ ببطءٍ الفضاء أحياناً. كان بالإمكان رؤيةُ السماء لساعاتٍ، دون فعلِ أي شيءٍ آخر. كان غاسبار يجتازُ سهل العشب، ويذهب للجلوس قرب أوغسطين، بجانب القطيع. ينظران معاً إلى التيس الكبير الأسود الذي ينتزع خصل العشب، فيما الماعز والغنم تسير خلفه. كان للماعز رؤوس ظبيان طويلة، وعيون مائلة ذات لونٍ أصفر ذهبي. كان الذباب الصغير يدوي دون توقفٍ في الهواء.

أطلع عبل غاسبار على كيفية صنع مقلاعٍ. اختارَ عدة رقاقات عشبٍ أخضر داكن، من نوعٍ خاص، يدعوه غوم. بتثبيتها بأصابع قدميه، صنع منها ضفيرة. كان ذلك صعباً، لأن العشب قاسياً وزلقاً، فتنحل الضفيرة دائماً، وكان

على غاسبار أن يبدأ من جديد. كانت حواف العشب حادة، فسال الدم من يديه. توسعت الضفيرة لتشّكل الجيب الذي توضع فيه الحصاة. في كل طرفٍ، دلّ عبل غاسبار على كيفية إغلاق ضفيرةٍ من خلال حلقةٍ صلبة، يمتّنها بأعشابٍ أكثر ضيقاً.

حين انتهت الضفيرة، فحصها عبل بعناية. شدّ كلّ طرفٍ ليتأكد من صلابةِ القدة. كانت طويلة ومرنة، لكنها أكثر قصراً من قدة عبل. جربها عبل في الحال، اختار حصاةً مستديرةً من الأرض ووضعها وسط القدة. ومن ثم أطلعه من جديد على كيفيّة الإمساك بالطرفين: حلقة حول المعصم والأخرى بين الأصابع وراحة اليد.

بدأ المقلاع دورانه. أنصت غاسبار إلى الصفير المنتظمِ للقدة. غير أن عبل لم يرم الحجر، وبحركةٍ مباغتة ودقيقة، أوقف القدة وأعطاها لغاسبار، ومن ثم أشار له إلى جذع نخلةٍ في البعيد.

حّوم غاسبار المقلاع بدوره، غير أنه كان سريعاً، وثقلِ الحجر يجذب جذعه. كرر الأمر عدة مرات، مُسرعاً بشكلٍ تدريجي، وحين سمع دوي القدة فوق رأسه مثل محرك طائرة، عرف أنه وصل إلى السرعة المطلوبة. وببطءٍ دار جسده حول نفسه، وصوب نحو النخلة المنتصبة في الطرف الآخر من السهل. صار واثقاً من نفسه، و صار المقلاع جزءاً منه. وكأنه رأى قوساً كبيراً يوحّده مع جذع النخلة، وفي ذات اللحظة صرخ عبل:

«جيا!»

فتح غاسبار يده وساطت القدة الهواء. قفزت الحصاة غير المرئية نحو السماء، وبعد ثانيتين، سمع غاسبار صوت الاصطدام بجذع النخلة.

منذُ تلك اللحظة، عرف غاسبار أنه لم يعد كما كان. صار يرافق الطفلَ الأكبر حين يقود القطيع إلى وسط الحقل. كانا يغادران عند مطلع الفجر، ويعبران الأعشاب العالية، يقوده عبل بصفير مقلاعه فوق رأسه، فيما يجيب غاسبار بمقلاعه.

في البعيد، عند الكثبان الأولى، حددت الكلاب البرية معزاةً تائهة، مزق نباحها الحاد الصمت. ركض عبل فوق الحجارة. كان أكبر الكلاب قد هاجم المعزاة، كان يدور حولها، وقد انتفش شعره الأسود، ومن وقتٍ لآخر، يهاجم مزمجراً. كانت المعزاة تتراجع مبرزة قرنيها، إلا أن قليلاً من الدم كان يسيل من عنقها.

عند وصول عبل وغاسبار، هربت الكلاب الأخرى، غير أن الكلب ذا الشعر الأسود استدار نحوهم. كان لعابه يسيل وعيناه تلمعان من الغضب. وبسرعةٍ، وضع عبل حجراً قاطعاً في مقلاعه وحومّه. غير أن الكلب البري كان يعرف صوت المقلاع، وعند انطلاق الحجر، قفز جانباً متجنباً إياه، فأصاب الحجر الأرض. عندها، هاجم الكلبُ وقفز دفعة واحدة فوق الفتى. صرخ عبل على غاسبار بشيء ما ففهمه مباشرة. وبدوره لقم مقلاعه بحجر حاد وحومّه بكل قواه. توقف الكلب الأسود واستدار نحو غاسبار مزمجراً. أصابت الحصاة الحادة رأسه وهشمت جمجمته. ركض غاسبار نحو عبل وساعده على المشي على ساقيه، بما أنه كان يرتجف. ضغط عبل بقوة على ذراع غاسبار، ومعاً قادا المعزاة نحو القطيع. فيما كانا يبتعدان استدار غاسبار ورأى الكلاب البرية تلتهمُ جسدَ الكلب الأسود.

كانت النهارات تمرّ على هذا النحو، نهاراتٌ طويلةٌ جداً كما لو أنها أشهر. لم يعد غاسبار يتذكر جيداً ما عرفه قبل وصولهم إلى هنا، إلى جينا. في بعض الأحيان، كان يفكر بشوارع المدينة، بأسمائها الغريبة، وبالسيارات والشاحنات. كانت الصغيرة كاف تحبُّ أن يقلد لها صوت السيارات، وبالأخص السيارات الأمريكية الكبيرة التي تندفع باستقامةٍ على الطرق مطلقةً زماميرها:

أي أي أي أي اه اه اه هو هو هو!

كانت تضحك كثيراً أيضاً من أنف غاسبار. كانت الشمس قد حرقته، ففقد بشرته وحلّت محلها حراشف صغيرة. حين كان غاسبار يجلس أمام المنزل ويخرج مرآته الصغيرة من جيبه، كانت تجلس إلى جانبه وتضحك مرددةً كلمةً غريبة:

«زيزاي! زيزاي!»

كان بقية الأطفال يضحكون ويرددون، هم أيضاً:

« زيزاي!»

فهم غاسبار أخيراً. ذات يوم، أشارت له الصغيرة كاف بأن يتبعها. مشت دون صوتٍ إلى أن وصلت إلى حجرٍ مسطح في الرمل، قرب شجر النخيل. توقفت ودلّت غاسبار على شيء ما، فوق الحجر. كانت عظاءة رمادية طويلة تقشرت بشرتها في الشمس.

« زيزاي!» قالت. ولمست أنف غاسبار ضاحكة.

لم تعد الفتاة الصغيرة تخافُ شيئاً الآن. كانت تحب غاسبار، ربما لأنه لم يكن يعرف الكلام، أو بسبب أنفه شديد الاحمرار.

في الليل، حين كان البردُ يصعدُ من الأرض ومن البحيرة، كانت تجتازُ أجسادَ الأطفال الآخرين النائمين وتأتي لتتكور إلى جانب غاسبار. كان غاسبار يتظاهر بأنه لم يستيقظ، ويبقى وقتاً طويلاً دون حركة، إلى أن ينتظم تنفس الفتاة الصغيرة لأنها قد نامت. فيغطيها بسترته الكتانية ثم ينام هو أيضاً.

بما أنه صار هناك صيادان الآن ، كان الأطفال غالباً ما يأكلون حتى الشبع. كانوا يجدون الأرانب البرية الصحراوية عند مشارف الكثبان، أو يجدون تلك التي جازفت منها قرب شاطئ البحيرة، أو طيور حجلٍ رمادية يأتون بها وقت حلول الليل من بين الأعشاب العالية. حيث كانت تطير أسراباً فوق السهل، فيما تصفّر الحجارة قاطعةً طيرانها. كان هناك أيضاً طيور الفري التي تطير على مستوى العشب، كان ينبغي وضع حصاتين أو ثلاث في المقلاع للوصول إليها. كان غاسبار يحبُّ الطيور، ويأسف لقتلها. كان يفضل الطيور الصغيرة الرمادية ذات الأطراف الطويلة التي تهرب راكضة في الرمل، والتي تطلق أصواتاً غريبة حادة:

«كورلييي! كورلييي! كورلييي!»

كانا يجلبان الطيور للصغيرة كاف التي تنتف ريشها، ثم تلفها بالطين وتضعها على الجمر لتشوى.

كان غاسبار وعبل يذهبان دائماً للصيد معاً. كان عبل يوقظ صديقه، أحياناً، دون إصدار صوتٍ، فقط بالنظر إليه مثل المرة الأولى. كان غاسبار يفتح عينيه، وينهض بدوره ويضّم المقلاعَ العشبي في قبضته، ويغادران الواحد تلو الآخر عبر العشب العالي، تحت نور الشفق الرمادي. كان عبل يتوقف من وقتٍ لآخر كي ينصت. والريح التي تهبّ على العشب تحمل أصواتَ الحياة الرقيقة وروائحها. كان عبل ينصتُ ومن ثم يغيّر اتجاهه قليلاً. كانت الأصوات تصبح أكثر دقةً، وينبغي تمييز أصوات طيور الزرزور في السماء وهديل حمام الورشان عن أصوات الحشرات وحفيف الأعشاب. كان الصبيان ينسلان وسط الأعشاب العالية مثل الأفاعي، دون صوتٍ. يمسك كلٌّ منهما بمقلاعه الملقم، وبحصاةٍ في اليد اليسرى. وحين يصلان إلى المكان الذي تقبع فيه الطيور، يبتعد كل منهما عن الآخر، وينهضان محّومين قدتيهما. فجأة، كانت طيور الزرزور تطير متدفقة في السماء، فيفتح الصبيان يدهما اليمنى، الواحدَ تلو الآخر، فتقتل الحجارة الصافرة الطيور.

عند عودتهما إلى المنزل، يكون الأطفال قد أشعلوا النار، وتكون الصغيرة كاف قد أعدت أوعية الماء. يأكلون الطيور معاً، عند ظهور الشمس وراء التلال في الطرف الآخر من جينا.

في الصباح، يصير لون ماء البحيرة معدنياً، وتطوف حشرات الناموس وعناكب الماء على السطح. يرافق غاسبار الفتاة الصغيرة التي تذهب لحلب الماعز، مساعداً إياها في الإمساك بالبهائم أثناء تفريغها الضروع في القرب الكبيرة. كانت تقوم بذلك بهدوء، دون أن ترفع رأسها، مدندنة أغنية بلغتها التي تحمل شيئاً من الغرابة. ومن ثم يعودان إلى المنزل حاملين الحليب الدافئ لبقية الأطفال.

كان الأخوان الصغيران (كان غاسبار يظن أن اسمهما أوغسطين وأنطوان، غير أنه لم يكن متأكداً تماماً من ذلك) يصطحبانه لرفع الأفخاخ، وذلك في الطرفِ الآخر من البحيرة، في المكان الذي يبدأ فيه المستنقع. كان أنطوان يضع مسبقاً في طريق الأرانب البرية عقداً متحركة مصنوعة من العشب المضفور مربوطة بالعسلوج المعقوف. في بعض الأحيان، كانوا يجدون أرنباً برياً مخنوقاً، إلا أنه غالباً ما يكون قد تم اقتلاع الشرك. أو يجدون جرذاناً ينبغي رميها بعيداً. وفي أحيان أخرى، تكون الكلاب البرية قد مرت أولاً والتهمت الغنائم.

كان غاسبار قد حفر بمساعدة أنطوان حفرةً للإمساك بثعلب. غطى الحفرة بنبات العسلوج والتراب. ومن ثم مرّر في الطريق المؤدي إلى الحفرة جلد أرنب بري طازج. بقيت المصيدة عدة ليالٍ سليمة، لكن ذاتَ صباح عاد أنطوان حاملاً شيئاً في قميصه. حين فتح حزمته، رأى الأطفال ثعلباً صغيراً ترّف عيناه في ضوء الشمس. أخذه غاسبار من عنقه مثل قط وأعطاه لكاف الصغيرة. في البداية، كان كلٌّ منهما خائفاً بعض الشيء من الآخر، إلا أنها قدمت له في راحة يدها حليب الماعز ليشرب، فأصبحا صديقين. كان اسم الثعلبُ ميم.

في جينا، لم يكن الوقتُ يمضي كما هو الحال في أي مكانٍ آخر. لعلّ النهارات لا تنقضي مطلقاً. كان هناك الليل والنهار، والشمس التي تصعد ببطءٍ في السماء الزرقاء، والظلال التي تتقلص، ثم تتمدد على الأرض، إلا أنه لم يكن لذلك ذات الأهمية. لم يكن غاسبار يكترث به، كان يشعر أن كلّ الوقت هو ذات النهار الذي يبدأ من جديد، نهارٌ طويلٌ جداً جداً لا ينتهي أبداً.

لم يكن لوادي جينا نهاية، لم ينته أحد أبداً من ارتياده. هناك دائماً أمكنة جديدة لم يذهب أحدٌ إليها قط. هناك مثلاً في الطرف الآخر من البحيرة، منطقة من العشب الأصفر القصير، ومكان شبيه بمستنقعٍ ينمو فيه البردي. ذهب الأطفال إلى هناك ليقطفوا القصب للصغيرة كاف التي كانت تريد ضفر السلال.

توقفوا على حافة المستنقع، نظر غاسبار إلى الماء الذي يلمع بين القصب. كانت حشرات يعسوب كبيرة تطير على مستوى الماء تاركةً خلفها مخوراً دقيقة. كانت الشمس تنعكس بقوةٍ، والهواءُ ثقيلٌ، والناموس يرقصُ في النور حول شعر الأطفال. فيما كان أوغسطين وأنطوان يقطفان القصب، تقدم غاسبار داخل المستنقع. كان يمشي ببطءٍ مبعداً النباتات، ومتفحصاً الطين بقدميه العاريتين. وصل الماء سريعاً أسفل صدره. كان الماء عذباً ساكناً، فأحس غاسبار بشعورٍ طيب. تابع المشي في المستنقع وقتاً طويلاً، وفجأةً، شاهد أمامه هذا الطائر الكبير الأبيض الذي كان يسبح على سطح الماء. كان ريشه يشكّل بقعةً باهرةً على الماء الرمادي للمستنقع. عند اقتراب غاسبار منه، خفق الطائر بجناحيه وابتعدَ بضعة أمتار.

لم يكن غاسبار قد رأى قط طائراً بهذا الجمال. كان يلمعُ مثلَ زبدِ البحر، وسطَ العشب والقصب الرمادي. ودّ غاسبار أن يناديه، أن يكلمه، إلا أنه لم يكن يريدُ إخافته. يتوقف الطائرُ الأبيض من وقتٍ لآخر وينظر إلى غاسبار. ثم يطير قليلاً، دون مبالاة، لأن المستنقع كان له وكان يريد أن يبقى وحيداً.

ظلّ غاسبار وقتاً طويلاً لا يتحرك في الماء ناظراً إلى الطائرِ الأبيض. كان الوحلُ الناعم يغطي قدميه، والنور يلمعُ على سطحِ الماء. بعد برهةٍ، اقترب الطائر من غاسبار. لم يكن خائفاً، لأن المستنقع كان حقاً له، له وحده. كان يريد فقط رؤية الغريب الذي ظلّ ساكناً في الماء.

بعد ذلك، بدأ يرقص، كان يخفق بجناحيه، فيرتفع جسده الأبيض قليلاً فوق الماء الذي يضطرب ويجعل القصب يتحرك، ثم ينزل ثانية، عائماً حول الصبي الصغير. ودّ غاسبار لو يستطيع محادثته بلغته، ليقول له إنه معجب به، وأنه لا يريد أن يؤذيه، وأنه يودُ فقط أن يكون صديقه. إلا أنه لم يجرؤ على إثارة الصخب بصوته.

كان كلُّ شيءٍ صامتاً في هذا المكان. لم تعد صرخاتُ الأطفال على الضفة تُسمع، ولا النباح الحادِ للكلاب. كانت تُسمع فقط الريح الخفيفة التي تهب على القصب، وتهز ورق البردي. لم تعد هناك تلالُ حجارة ولا كثبان ولا أعشاب. لم يكن هناك سوى الماء ذو اللون المعدني والسماء والبقعةُ الباهرة للطائر المنساب على المستنقع.

لم يعد الطائر مهتماً بغاسبار. كان يعوم ويصطاد في الوحل، بحركاتٍ رشيقة لرقبته الطويلة. ومن ثم كان يحط مبعداً جناحيه العريضين البيضاويين، كان يبدو حقاً ملكاً متعالياً وغير مكترثٍ، يحكم مجاله المائي.

فجأة، صار يخفقُ بجناحيه، ورأى الصبي الصغير جسده بلونه الزبدي يرتفع ببطءٍ، فيما كان يجرجر قدميه الطويلتين على سطح المستنقع مثل عوامات طائرة مائية. أقلعَ الطائر الأبيض وقام بانعطافٍ كبير في السماء. عبر أمام الشمس واختفى، ممتزجاً بالنور.

ظلّ غاسبار لوقتٍ طويل دون حركة في الماء، متمنياً عودة الطائر. فيما بعد، وفيما كان يعود إلى الخلف باتجاه صوت الأطفال، كانت هناك بقعةٌ غريبة أمام عينيه، بقعةٌ براقة مثلَ الزبد تتنقلُ مع نظرته، وتهربُ إلى وسطِ القصب الرمادي.

غير أن غاسبار كان سعيداً لأنه كان يعرف أنه قد التقى ملك جينا.

-٣-

حتروس، اسم التيس الأسود الكبير. يعيش في الجانب الآخر من السهل العشبي، عند تخومِ الكثبان، محاطاً بالماعز والغنم. كان أوغسطين مسؤولاً عن حتروس. يذهب غاسبار أحياناً بحثاً عنه، يقترب عبر الأعشاب العالية، مطلقاً الصفير وصارخاً لإعلامه، على هذا النحو:

«يا - ها - هو!»

فيسمع صوت أوغسطين يجيبه من بعيد.

كانا يجلسان على الأرضِ، وينظران إلى التيس والماعز، دونَ كلام. كان أوغسطين أصغرَ من عبل، لكنه أكثر جدية. كان بوجه جميل ناعمٍ، قلما يبتسم، وبعينين داكنتين وعميقتين تبدوان كما لو أنهما تريان بعيداً، خلفكم، نحو الأفق. كان غاسبار يحب نظرته المملوءة بالغموض.

كان أوغسطين الشخص الوحيد الذي يستطيعُ الاقترابَ من التيس. يمشي نحوه ببطءٍ، ويقول كلاماً بصوتٍ منخفض، كلاماً عذباً ورخيماً، فيتوقفُ التيسُ عن الأكل لينظر إليه، باسطاً أذنيه. كانت للتيس نظرةُ شبيهةً بنظرةِ أوغسطين، ذات العينين اللوزيتين الواسعتين والداكنتين والمذهبتين، اللتين تبدوان كما لو أنهما تريانكم بصفاء.

يظلُ غاسبار جالساً جانباً كي لا يزعجهما. كان يودُ الاقتراب من حتروس للمس قرنيه والصوف السميك فوق جبهته. كان حتروس يعرفُ أشياءً كثيرة، ليست تلك الأشياء الموجودة في الكتب والتي يحبُّ الناس الحديث عنها، إنما أشياءٌ صامتة وقوية، أشياءٌ ملأى بالجمالِ والغموض.

يبقى أوغسطين طويلاً واقفاً، مستنداً على التيس، يقدم له طعاماً من العشب والجذور، ويحادثه في أذنه طيلة الوقت. كان التيس يتوقف عن مضغ العشب ليسمعَ صوت الصبي الصغير، ثم يخطو عدّة خطوات هازاً رأسه فيمشي أوغسطين معه.

كان حتروس قد رأى كامل الأرض، ما وراء الكثبانِ والتلال الحجرية. يعرفُ المروج، وحقول القمح والبحيرات والشجيرات والدروب. يعرفُ آثار الثعالب والأفاعي أفضل من أي أحد آخر. هذا ما كان يعلّمه لأوغسطين، أشياء الصحراء والسهول كلّها، والتي يُحتاج تعلّمها حياةً كاملة.

كان يبقى قربَ الصبي الصغير، يأكل من يده العشب والجذور. ينصتُ إلى الكلام العذب والرخيم، فيرتعش وبر ظهره قليلاً. ثم كان يهز رأسه، بحركتين أو ثلاث حركات مباغتة من قرونه، ويذهب ملتحقاً بقطيعه.

حينها يعاود أوغسطين الجلوس إلى جانب غاسبار، ينظران معاً إلى التيس الأسود الذي يتقدم ببطءٍ وسطَ الماعز المتراقص. كان يقودها نحو مرعى آخر، أبعد قليلاً، حيث العشب لم يمسسه أحد.

كان هناك أيضاً كلبُ أوغسطين. لم يكن كلبه حقاً. كان كلباً برياً مثل الكلاب الأخرى، غير أنه يبقى إلى جانب حتروس والقطيع، فأصبح أوغسطين صديقه. كان قد سّماه نون. كلبٌ سلوقي ذو وبرٍ طويل، رملي اللون، له أنفٌ رقيق وممدود، وأذنان قصيرتان. كان أوغسطين يلعب معه من وقت لآخر، يصفّر بأصابعه ويصرخ باسمه:

«نون! نون!»

عندها كان العشب الطويلُ ينفتح ويصل نون بأقصى سرعة، مطلقاً صرخات قصيرة، ويقف منتصباً على سيقانه الطويلة، ببطنٍ خافق. كان أوغسطين يتظاهر بأنه يرمي له حجراً، ثم يصرخ باسمه مرة أخرى:

«نون! نون!»

فيرحلُ راكضاً وسط العشب. كان السلوقي يقفز خلفه نابحاً، سريعاً مثل سهم. ولأنه كان أسرع من الطفل، يقوم باستداراتٍ كبيرة في السهل، قافزاً فوق الحجارة، يتوقف، بوجه منتصبٍ. كان يسمع من جديد صوت أوغسطين، فيمضي. بعد بضع قفزات، يصل إليه وسط العشب، ويتظاهر بمهاجمته مزمجراً. كان أوغسطين يرمي له الحجارة، ويهرب من جديد، فيما السلوقي يدور حوله. في النهاية، يخرج الاثنان من سهل العشب لاهثَيْن.

لم يكن حتروس يحب كثيراً هذا الضجيج. كان ينفث ويراوح بغضب، ومن ثم يقود قطيعه أبعدَ قليلاً. حين كان أوغسطين يعود للجلوس إلى جانب غاسبار، كان السلوقي يستلقي على الأرض، ثانياً طرفيه الخلفيين إلى الجانب، وتاركاً طرفيه الأماميين مستقيمين، رافعاً الرأس، مغلقاً عينيه ويبقى دونَ حركةٍ، تماماً مثل تمثال. كانت أذناه تتحركان فقط، مترصدتين الأصوات.

كان أوغسطين يتكلّم معه أيضاً، يتكلم معه دون كلماتٍ، كما هو الحال مع التيس الأسود، ولكن بالصفير الخافت بين أسنانه، بهدوء جديد. غير أن السلوقي لم يكن يحب أن يقترب منه أحد. حين ينهض أوغسطين، كان ينهض هو أيضاً، ويبقى بعيداً.

عند توفر اللحم، يجتاز أوغسطين سهل العشب، حاملاً العظام إلى نون، فيضعها على الأرض، ويبتعدُ بضعَ خطواتٍ مطلقاً صفيره، فيجيء نون ليأكل. لم يكن لأحد الحق في القدوم نحوه في هذه اللحظة، كانت الكلابُ الأخرى تحوم حوله، فيما نون يزمجر دون أن يرفع رأسه.

كان أمراً حسناً وجود هؤلاء الأصدقاء في جينا. لم يكونوا وحيدين مطلقاً.

في المساء، عندما كان الهواءُ المثقلِ بالشمس يُوقفُ الريحَ، كانت الصغيرة كاف تشعل النار لتطردَ الذباب الصغير الراقص قرب الأعين

والآذان. ومن ثم تذهبُ مع غاسبار لحلب الماعز. عند اجتيازهما العشب العالي معاً، كانت الفتاةُ الصغيرة تتوقف. كان غاسبار يفهم ما تريده، فيحملها على كتفيه، مثل المرةِ الأولى لحظةَ وصولهم أمام البحيرة. كانت خفيفة جداً، وبالكاد يشعر غاسبار بها على كتفيه. كانا يصلان راكضين إلى المكان الذي يعيش فيه حتروس قرب قطيعه. كان أوغسطين يجلس على الدوام في المكان ذاته، ناظراً إلى التيس الأسود والتلال البعيدة.

كانت الصغيرةُ كاف تعود وحيدةً حاملة القربة المنتفخة بالحليب، فيما يبقى غاسبار مع أوغسطين حتى حلول الليل. وقتُ الظل، تسري قشعريرة غريبة في كلّ الأشياء، إنه الوقت المفضل لغاسبار وأوغسطين. يخفت النور شيئاً فشيئاً، ويصير العشب والأرض رماديين، فيما تظل قمم الكثبان منارة. في هذه اللحظة، تكون السماء شديدة الصفاء بحيث يتولد لدى المرء إحساسٌ بالتحليق، عالياً جداً، من خلال رسم دوائر بطيئة مثل طير الشوحة. لا تعود هناك الريح ولا حركة على الأرض، فيما تجيءُ الأصوات من بعيد، عذبة جداً، وهادئة جداً. تُسمع الكلاب التي تتجاوب من تلةٍ إلى أخرى، والغنم والماعز التي ترتص حول التيس الأسود مطلقةً ثغاءها النائح. يملأُ الظلُ كلَّ السماء مثل دخانٍ، وتظهرُ النجومُ واحدةً تلو أخرى. كان أوغسطين يشير إلى أنوارها، مانحاً لكلِّ واحدةٍ اسماً غريباً يحاول غاسبار حفظها. إنها أسماء نجوم جينا، الأسماءُ التي كان ينبغي تعلمها، والتي كانت تلمعُ بقوةٍ في الفضاء الأزرق الداكن.

«الطاير.. التنين... كوكب... مِراك...»

يلفظُ الأسماءَ ببطءٍ، على هذا النحو، بصوته الرخيم. فيما تظهر في السماء الزرقاء الداكنة، خافتةً في البداية، نقطةٌ وحيدةٌ من النور تتذبذب، تارةً حمراء وتارةً زرقاء، ومن ثم ثابتةً قوية، ممتدة، ترشق أشعتها الحادة، تلمع مثل جمرٍ وسطَ الخواء. كان غاسبار يستمع إلى أسمائها السحرية بانبهار، كانت الكلماتُ الأكثر جمالاً التي لم يسمع قط مثلها.

«فكدا.. اليوث.. ميزار.. القايد...»

كان أوغسطين ينادي النجوم، ورأسه مقلوب إلى الخلف، ينتظر قليلاً بين كلّ اسمٍ، كما لو أن الأنوار كانت تذعن لنظرته وتكبر، تجتاز فراغ السماء، تصل إليه، فوق جينا. صارت تسطع بينها نجوم جديدة، نجوم أصغر، بالكاد تُرى، ذرات رمل تمحى للحظة، ثم تعود من جديد.

«الدرامين.. دنب.. شدير... ميراش..»

تشبه الأنوار أسطولاً صغيراً عند حافة الأفق، تتحد فيما بينها وترسم أشكالاً غريبة تغطي السماء. لا يعود هناك شيءٌ على الأرض، لا شيء تقريباً. كانت الكثبان مغطاةٌ بالظل، والعشب مغمور. كان قطيع الماعز والغنم يمشي حول التيس الأسود الكبير إلى أعلى الوادي دون صوت. غاسبار وأوغسطين يشاهد السماء بعيون كبيرةٍ مفتوحةٍ. في الأعلى، كثيرٌ من الكائنات، كثيرٌ من الشعوب المنارة، طيورٌ، أفاعٍ، دروب متعرجة بين مدن النور، أنهارٌ، جسور، حيوانات مجهولةٌ متوقفة، ثيران، كلاب بعيونٍ تلمع، أحصنة،

«إنيف..»

غربانٌ بأجنحةٍ ممتدة يلمع ريشها، عمالقة متوجون بالألماس، ساكنين، ينظرون إلى الأرض،

«النيلام، جويرا..»

سكاكين، حراب، سيوفٌ مسبجة، طائرة ورقية مشتعلة معلقة في ريح الخواء. كان هناك على وجه الخصوص، وسط الإشارات السحرية نورٌ لامعٌ في آخر قرنه المفولذ الطويل، التيس الأسود الكبير حتروس منتصباً في الليل، متوجاً على عالمه،

«راس الحاج..»

كان أوغسطين مستلقياً على ظهره متأملاً كلّ النجوم التي تلمع في السماء، لم يعد يناديها، لم يعد يتحرك. كان غاسبار يرتجف، يمسك أنفاسه، منصتاً بكلّ قواه ليسمعَ ما كانت النجوم تقوله. كان كما لو أنّه ينظرُ إليها بكلّ جسده، بوجهه، بيديه، كي يسمعَ الهمس الخفيف الذي يرن صداه في عمق السماء، صوت الماء ونار الأنوار البعيدة.

كان بالإمكان البقاء وسطَ سهل جينا طيلةَ الليل. حيث يُسمع غناءُ الحشرات الذي يبدأ ضعيفاً في البداية، ثم يعلو، فيملأ كل شيء. كان رملُ الكثبان يظلّ حاراً، فيحفرُ الطفلان فيه حفراً للنوم. وحده التيس الأسود الكبير لا ينام، يسهر أمام قطيعه، وعيناه تلمعان مثل شعلتين خضراوتين. لعله يبقى ساهراً لتعلّم أشياء جديدة عن النجوم والسماء. أحياناً، كان يهز وبره الصوفي الثقيل، وينفث من منخريه، عند سماعه صوت زحف ثعبان، أو لأن كلباً برياً كان يحوم. كانت الماعز تمضي راكضة، وحوافرها تضرب الأرض دون أن يُعرف مكانها، ومن ثم يعود الصمت من جديد.

عند طلوع القمر فوق التلال الحجرية، يستيقظ غاسبار، يجعله هواء الليل مرتجفاً. ينظر حوله، ويرى أن أوغسطين قد رحل. كان الصبي الصغير يجلس على بعد عدة أمتار جانب حتروس، يكلّمه بصوتٍ خافت، ودائماً بذات الكلمات الرخيمة.

كان حتروس يحركُ فكيه، يميل على أوغسطين نافثاً على وجهه. فيعلم غاسبار بأنه يقوم بتعليمه أشياء جديدة. يُعلّمه ما تَعلّمه في الصحراء، في النهارات تحت الشمس الحارقة، أشياءَ النور والليل. ربما كان يحدثه عن الهلال المعلق فوق الأفق، أو عن الأفعى الكبيرة لدرب التبانة التي تدّب عبر السماء.

كان غاسبار يظلُ واقفاً، ينظرُ بكل قواه إلى التيس الأسود الكبير محاولاً فهمَ القليلِ من الأشياء الجميلة التي يعلّمها لأوغسطين، ومن ثم يجتاز الحقل العشبي عائداً إلى المنزل حيث ينامُ الأطفال.

يظلّ واقفاً برهةً أمام المنزل، ناظراً إلى الهلال الرفيع وسطَ السماء السوداء. كان نفسٌ خفيف يجيء من خلفه، فيعرفُ دون أن يلتفت أن كاف الصغيرة قد استيقظت. يشعر بيدها الدافئة التي تضعها في يده وتشدها بقوة.

حينها، كانا يصعدان معاً إلى السماء، وقد أصبحا خفيفين مثل الريش، يطيران نحو الهلال. يرحلان برأسٍ مرفوع لوقتٍ طويلٍ جداً، وقت طويل جداً، دون أن تغادر عيونهما الهلال الفضي، ودون أن يفكرا بشيء، بالكاد، يتنفسان. يطيران فوق وادي جينا، أعلى من طيور الباشق، والطائرات النفاثة. يريان كلّ القمر، القرص الأسود الداكن للقوس الفاتن المتمدد في السماء الشبيه بابتسامة. تشّد كاف الصغيرة يد غاسبار بكلّ قوتها كي لا تقع إلى الخلف، لكنها كانت الأخف وزناً، وهي التي كانت تسحب الفتى نحو الهلال.

عندما كانا ينظران إلى القمر وقتاً طويلاً، ويصلان قريباً منه، بحيث يشعران بالشعاع الندي للنور على وجهيهما، كانا يعودان إلى داخل المنزل، ويظلاّن لوقتٍ طويل دون نوم، ينظران عبر الفتحة الضيقة للباب إلى الضوء الشاحب، وينصتان إلى صرير الجرادة الحاد. كانت الليالي جميلةٌ وطويلةٌ في جينا.

- ٤ -

يتوغل الأطفال أكثر فأكثر في الوادي. كان غاسبار يغادر باكراً في الصباح، والعشب العالي لا يزال ندياً، والشمس لا تزال غير قادرة بعد على تدفئة كلّ الحجارة وكلّ رمل الكثبان.

تحط قدماه العاريتان على آثار الأمس، تتبعان الدروب. كان لابد من الانتباه إلى الأشواك المخفية في الرمل، وصخور الصوان الحادة. في بعض الأحيان، كان غاسبار يتسلق صخرةً كبيرة، عند طرف الوادي، وينظر حوله، فيرى الدخان الرفيع الصاعد على نحوٍ مستقيم إلى السماء. كان يتخيل الصغيرة كاف مقرفصةً أمام النار، تطبخُ اللحم والجذور.

في مكانٍ أبعد، يرى غيمةَ الغبار التي يثيرها القطيع في سيره. حيث يكون الماعز متجهاً إلى البحيرة بقيادة التيس الكبير حتروس. أثناء تفحصه لكلّ مكانٍ من الوادي، كان غاسبار يرى بقية الأطفال، ويحيّهم من بعيد بإصدار الأشعة من مرآته الصغيرة، فيجيبه الأطفال بالصراخ:

«ها - هو - ها!»

كلّما ابتعد عن وسط الوادي، كانت الأرض تصبحُ أكثر جفافاً، متشققةً ومتيبسةً بفعل الشمس، دبيبها تحت الأقدام مثل جلد طبلٍ. كانت تعيش هناك حشراتٌ غريبة على شكل أغصان عسلوج، وخنافس وحريشات وعقارب. كان غاسبار يقلب بحذرٍ الحجارة القديمة لرؤية العقارب هاربة، بذيلها المنتصب. لم يكن غاسبار يخشاها. كما لو كان هناك بعض الشبه بينه وبينها، بهزاله وضموره على الأرض المغبرة. كان يحبُّ الرسوم التي تتركها في

الرمل، طرقٌ صغيرة ومتعرجة ودقيقة، مثل وبر ريش الطيور. كان هناك أيضاً النمل الأحمر، الذي يركض بسرعةٍ على البلاطات الحجرية، هارباً من أشعة الشمس المميتة. كان غاسبار يتبعه بنظراته، ويفكر بأنه هو أيضاً لديه أشياء ليعلّمها. بالتأكيد إنها أشياءٌ صغيرة لا تصدق، حيث يصبح الحصى كبيراً مثل الجبال وباقات الأعشاب العالية مثل شجر. عند نظر المرء إلى الحشرات، يفقد حجمه، ويبدأ بإدراك ما الذي يهتز دون توقفٍ في الهواء والأرض، ينسى كلّ ما تبقى. ربما لأجل ذلك، كانت النهارات طويلة جداً في جينا. لم تكن الشمس تنتهي من السير في السماء البيضاء، فيما كانت تهبّ الريح لأشهرٍ وسنوات.

في مكان أبعد، عند اجتياز التلة الأولى، كانت هناك بلاد الأرضة. وصل غاسبار وعبل إليها ذات يوم، وتوقفا مرتاعين. كانت هضبةً ترابية حمراء كبيرة، تخطها سيول جافة، لا ينبت شيء فيها، لا شجيرات ولا أعشاب. كانت هناك فقط مدينة الأرضة.

مئاتُ الأبراج المصفوفة، مصنوعةٌ من التراب الأحمر، مع أسقفٍ من خيوطٍ منسلة وقطع من جدران متهدمة. كان بعضها عالٍ جداً، جديدٌ وصلب مثل ناطحات سحاب، فيما بدا بعضها غير منته، أو مهشم، وبجدران مبقعة باللون الأسود كما لو أنها حُرقت.

لم يكن هناك صوتٌ في هذه المدينة. كان عبل ينظر، فيما يلتفت بجسده إلى الخلف، استعداداً للهرب، إلا أن غاسبار كان يتقدم عبر الشوارع وسط الأبراج العالية، هازاً مقلاعه على ساقه. ركض عبل للحاق به، وسارا معاً عبر المدينة. كان التراب صلباً ومضغوطاً حول المباني كما لو أنه قد تم رصّه. لم تكن للأبراج نوافذ، مبان كبيرة عمياء تنتصب في الضوء العنيف للشمس، أضنتها الريح والمطر. كانت القلاع صلبةٌ مثل الحجارة، ضرب غاسبار الجدران بقبضته، ومن ثم حاول خدشها بالحصى. إلا أنه لم يستطع اقتلاع شيء سوى القليل من البودرة الحمراء.

كان الطفلان يمشيان بين الأبراج ناظرين إلى الجدران السميكة. كانا يسمعان خفقان الدم في أصداغهما، فيما يصدر نفسهما صفيراً من فمهما، لأنهما كانا يشعران بأنهما غريبان، ولأنهما خائفان. لم يتجرأا على التوقف. في وسط المدينة، كانت هناك مأرضة أكثر علواً من الأخريات بكثير. قاعدتها عريضة مثل جذع نخلة، ولم يكن يستطيع الطفلان أن يصلا قمتها وإن كانا أحدهما فوق الآخر. توقف غاسبار متأملاً المأرضة. كان يفكر بما في داخل البرج، بهذه الأقوام التي كانت تعيش في الأعلى تماماً، معلقة في السماء، إلا أنها لا ترى أبداً النور. تلفها الحرارة، دون أن تعرف أين الشمس. كان يفكر فيهم، وفي النمل أيضاً، وفي العقارب وفي الخنافس التي تترك آثارها في الرمل. كان لديهم الكثير من الأشياء ليعلّموها، أشياءٌ غريبةٌ ومتناهية الصغر، حين تطول النهارات بطول حياة. لذا، استند على الجدار الأحمر وأنصت. كان يصفّر ليدعو الناس في الداخل، إلا أن أحداً لم يجبه. لاشيء هناك سوى صوت الريح التي تدندن عند مرورها بين أبراج المدينة، وقلبه الذي يرن صداه. حين ضرب غاسبار أعلى الجدار بقبضتي يديه، خاف عبل وهرب، غير أن المأرضة ظلت صامتة. لعل سكانها كانوا نائمين، محاطين بالريح والضوء، ملتجئين داخل قلعتهم. أخذ غاسبار حجراً كبيراً ورماه بكل قوته على البرج. كسر الحجر جزءاً من المأرضة مخلفاً صوت تهشم زجاج. رأى غاسبار في حطام الجدار حشرات غريبة تتخبط. كانت تشبه قطرات العسل، في التراب الأحمر. غير أن الصمت لم يتوقف في المدينة، صمتٌ يضغط ويهدد من أعالي كل الأبراج. شعر غاسبار بالخوف مثل عبل، فشرع يركض في شوارع المدينة بأسرع ما يمكنه. حين لحق بعبل، نزلا معاً راكضين نحو سهل العشب دون أن يلتفتا.

في المساء، عند غروب الشمس، جلس الأطفال قرب المنزل لمشاهدة رقص كاف الصغيرة. كان أنطوان وأوغسطين يصنعان مزامير صغيرة بقصب المستنقع، يقطعان عدة قصبات بأطوالٍ مختلفة، ويربطانها معاً

بالأعشاب. حين يبدأان بالنفخ في القصبات، كانت الصغيرة كاف تشرع بالرقص. لم يسمع غاسبار قط موسيقا كهذه الموسيقا. كانت مجرد نغمات تنساب، تصعد وتنزل بأصوات حادة مثل صرخات الطيور. كان الصبيان يعزفان كلٌّ بدوره، يتجاوبان ويتكلمان فيما بينهما، دائماً مع ذات النغمات التي تنساب. أمامهما، وبرأسٍ منحن قليلاً، كانت الصغيرة كاف تحرك وركيها بانتظام، جذعها مستقيم تماماً، ويداها مبتعدتان عن جسدها، ثم ضربت الأرض بقدميها الحافيتين، بحركةٍ سريعة من أخمص القدم وعقبيها، مما أحدث قرعاً يرنّ صداه داخل الأرض، مثل قرع الطبل. نهض الصبيان بدورهما، وتابعا العزف على المزمار، مع ضرب الأرض بأقدامهما العارية. وهكذا عزفا ورقصت الصغيرة كاف، إلى أن غابت الشمس عن الوادي. ومن ثم جلسوا جانب النار المشتعلة، غير أن أوغسطين غادر إلى الطرف الآخر من الأعشاب العالية، حيث كان يعيش التيس الأسود الكبير والقطيع. تابع العزف وحيداً هناك، فيما كانت الريح تحمل،من لحظة إلى أخرى، أصوات الموسيقا الخفيفة والنغمات المنسابة والخافتة مثل صرخات الطيور.

في السماء التي تكاد تكون سوداء، شاهد الأطفال عبور طائرة نفاثة. كانت تلمعُ عاليةً جداً مثل ذبابة صغيرة قصديرية، وخلفها مخرها الأبيض الذي كان يتوسع، ويفلق السماء إلى فلقتين.

ربما كان للطائرة أيضاً أشياء لتعلمها، أشياءٌ لا تعرفها الطيور.

هنا في جينا، كان هناك الكثير من الأشياء للتعلم. لم يكن يتم تعلّمها بالكلام، مثل مدارس المدينة، ولا بالإرغام، وبقراءة الكتب أو المشي في الشوارع الممتلئة بالصخب وبالأحرف المضيئة. كان يتم تعلمها دون إدراك، بسرعةٍ شديدة تارةً، مثل حجر يصفرُ في الهواء، وببطءٍ شديد تارةً أخرى، يوماً بعد يوم. كانت أشياءٌ جميلة جداً، تستمر طويلاً. لا تأخذ مطلقاً شكلاً واحداً، تتغير وتتحرك دائماً. كان يتم تعلمها ثم نسيانها، ثم تعلمها مرة أخرى.

لم يكن معروفاً كيف كانت تجيء: كانت هنا، في النور، في السماء، على الأرض، في أحجار الصوان وجزيئات الميكا، في الرمل الأحمر للكثبان. كان يكفي رؤيتها وسماعها. غير أن غاسبار كان يعرف جيداً أن الناس في الأمكنة الأخرى لا يستطيعون تعلمها. كان ينبغي أن يكون المرء في جينا لتعلمها، مع الرعاة، ومع التيس الكبير حتروس، والكلب نون، والثعلب ميم، ومع كل النجوم التي فوقكم، وفي مكان ما المستنقع الرمادي، مع الطائر الكبير ذي الريش الزبدي اللون.

كانت الشمس خاصة هي المُعلّم في جينا. كانت عالية جداً في السماء، تسطع مانحةً حرارتها للحجارة، ترسم كلّ تلة، وتضع لكلّ شيء ظله. لأجلها، كانت الصغيرة كاف تصنع من الطين صحوناً وأطباقاً تضعها على الورق لتجف. كانت تصنع أيضاً دمى من الطين، تغطي رأسها بالعشب، وتلبسها ببقايا الخرق. ومن ثم كانت تجلس وتنظر إلى الشمس تشوي الخزف والدمى. كانت بشرتها هي الأخرى تصير بلون التراب، ويصير شعرها شبيهاً بالعشب.

كانت الريح غالباً ما تتكلم، بنفسها. ما كانت تعلّمه لا نهاية له. كانت تجيء من طرف الوادي، تجتازكم وتذهب نحو الطرف الآخر، تعبر مثل نفسٍ يجتاز حلقكم وصدركم. كانت غير مرئية وخفيفة، تملؤكم، تنفخكم، دون أن تشبعوا أبداً. أحياناً، كان غاسبار وعبل يستمتعان في الامتناع عن التنفس بإغلاق أنفيهما. كانا يفعلان ذلك كما لو أنهما يغطسان تحت البحر، عميقاً جداً، بحثاً عن المرجان. يقاومان بضع ثوان، على هذا النحو، بفم وأنف مغلقين. ومن ثم بضربةٍ عقب، كانا يصعدان إلى السطح، وتدخل الريح من جديد في مناخيرهما، الريح العنيفة التي تصيب بالثمالة. كانت الصغيرة كاف تحاول ذلك قليلاً، هي الأخرى، غير أن ذلك كان يسبب لها الحازوقة.

كان يخطر لغاسبار أنه إذا استطاع أن يفهم كلّ الدروس، فإنه سيكون شبيهاً بالتيس الكبير حتروس، كبير جداً، قوي على الأرض المغبرة، مع

هاتين العينين اللتين تقذفان بلمعان أخضر. سيكون أيضاً مثل الحشرات، وسيستطيع بناء منازل طينية كبيرة، عالية مثل المنارات، ذات نافذة واحدة فقط في الأعلى، يُشاهد منها كلّ وادي جينا.

صاروا يعرفون جيداً، هذه البلاد، بباطن أقدامهم فقط يعرفون مكانهم. كانوا يعرفون كلّ الأصوات، تلك التي تذهب مع نور النهار، وتلك التي تولد في الليل. يعرفون أين يجدون الجذور والأعشاب الصالحة للأكل، الفاكهة اللاذعة للشجيرات، الزهور ذات الطعم السكري، الحبوب، التمور، اللوز البري. كانوا يعرفون دروب الأرانب البرية، الأماكن التي تجلس فيها الطيور، البيض في الأعشاش. عند عودة عبل، عند حلول الليل، كانت الكلاب البرية تنبح مطالبةً بحصتها من الأحشاء. كانت الصغيرة كاف ترميها بجمرات مشتعلة لإبعادها. كانت تضم الثعلب ميم في قميصها. كان للكلب نون وحده حق الاقتراب، كونه صديقَ أوغسطين.

كان الوقت صباحاً، عندما وصل سرب الجراد. لذا، كانت الشمس عالية في السماء. كان ميم هو الذي سمعها أولاً، حتى قبل أن تظهر فوق الوادي. وقف أمام باب المنزل، بأذنين منتصبتين، وبجسدٍ مرتجف. ومن ثم جاء الصوت، فتجّمد الأطفال بدورهم.

كانت غيمةٌ منخفضة، ذات لون دخاني أصفر، تتقدم محلّقة فوق الأعشاب. فجأة راح الأطفال يصرخون ويركضون عبر الوادي، فيما كانت الغيمة تتهادى، تتأرجح، مزوبعةً فوق العشب، وصوت آلاف الحشرات الصار يملأ الفضاء. كان عبل وغاسبار يركضان أمام الغيمة، ملوحيّن بقدتي مقلعيهما. فيما كان الأطفال الآخرون يرمون بأغصان جافة في النار، فينبثق لهبٌ كبير. لبضع لحظات، أظلمت السماء، كانت غيمةُ الحشرات تمّر ببطءٍ أمام الشمس، مظلّلةً الأرض. كانت الحشرات تضرب وجوه الأطفال، وتخدش بشرتهم بأقدامها المسننة. في الطرف الآخر من حقل الأعشاب، كان القطيع

يهرب نحو الكثبان، فيما يتراجع التيس الأسود الكبير ضارباً الأرض باهتياج. كان غاسبار يركض دون توقف، والمقلاع يحوم فوق رأسه مثل طائرة مروحية. كان الأزيز المستمر من أجنحة الحشرات يرن صداه في أذنيه، فيما يتابع الركض دون أن يعرف إلى أين يذهب، ضارباً الهواء بقدته. كانت الغيمة تدور بلا نهاية حول سهل العشب، كما لو أنها كانت تبحث عن مكان لتنقض عليه. كان الغطاء البني للحشرات ينتشر، يتأرجح. في بعض الأماكن كانت الحشرات تسقط على الأرض، ثم تعود إلى الطيران بثقل، منتشية بصوتها. امتلأ خدا عبل ويداه بالخطوط المدماة، فيما كان يركض دون أن يأخذ نفساً، تسحبه حركة مقلاعه. وفي كل مرة كانت قدته تضرب الغيمة الحية، كان يصرخ فيجبيه غاسبار.

غير أن سرب الجراد لم يتوقف. كان يبتعد شيئاً فشيئاً فوق المستنقع، دائماً متهادياً متأرجحاً. كان يهرب نحو التلال الحجرية. كانت الحشرات الأخيرة تصعد في الهواء والسماء تخلو. انخفض الصوت الصار، ثم اختفى. حين عاد ضوء الشمس إلى الظهور، عاد الأطفال نحو المنزل منهكين. تمددوا على الأرض، حلوقهم جافة، ووجوههم متورمة.

ومن ثم غادر صغار الأطفال صارخين وسط العشب العالي، ليجمعوا حشرات الجراد المرهقة. عادوا بحضون ملأى بالحشرات. أكل الأطفال الجراد إلى أن حل المساء، وهم جالسين حول الجمر الحار. في ذلك اليوم كان للكلاب البرية وسط العشب العالي أيضاً وليمة كبيرة.

-٥-

كم من الأيام قد مرّ؟ كان القمر قد كبر، ثم عاد ليصير هلالاً رقيقاً يستلقي فوق التلال. اختفى بعض الوقت من السماء السوداء، وحين عاد، حيّاه الأطفال بطريقتهم، مطلقين صراخهم وبالانحناء إجلالاً. الآن، أصبح من جديد مستديراً وناعماً في السماء الليلية، يغسل وادي جينا بنوره العذب، المائل إلى الزرقة. مع ذلك كان هناك شيء من الغرابة في نوره. شيء ما يشبه البرد والصمت. كان الأطفال ينامون باكراً في المنزل، غير أن غاسبار كان يبقى طويلاً جالساً على العتبة، ينظر إلى القمر الذي يموج في السماء. كان عبل أيضاً قلقاً. يغادر في النهار وحيداً إلى البعيد، دون أن يعرف أحد إلى أين كان يذهب. كان يغادر مؤرجحاً مقلاعه بمحاذاة فخذه، ولا يعود إلا عند حلول الليل. لم يعد يحمل اللحم ما عدا، من وقت لآخر، طيوراً صغيرة هزيلة ذات ريش موحل لا تُسكت جوعاً. في الليل، كان يستلقي مع بقية الأطفال داخل المنزل، إلا أن غاسبار كان يعرف أنه لا ينام، كان ينصتُ إلى صوت الحشرات ونقيق الضفادع حول المنزل.

كانت الليالي باردةً، يلمع القمر بقوة، نوره مثل الصبّر[١]. كانت الريح الباردة تحرق وجه غاسبار خلال تأمله الوادي المُنار. في كل مرة كان يزفر فيها، يتصاعد البخار خارجاً من منخريه. كلُّ شيء كان جافاً وبارداً، قاسياً، دون ظلٍ. كان غاسبار يشاهد بجلاء كلّ رسوم وجه القمر، البقع الداكنة، الصدوع، الفوهات.

---

(١) الصبّر: طبقة خفيضة من الجليد تتكوّن بتجمّد نقيطات ماء الضّباب (المترجم).

لم تكن الكلاب البرية تنام. كانت تطوف وسطَ الحقل المُنار، هادرة ونابحة. ينخر الجوع بطونها، وتبحث بلا طائلٍ عن بقايا الطعام. حين كانت تقترب من المنزل، كان غاسبار يرميها بالحجارة. كانت تقوم بوثباتٍ إلى الخلف هادرةً، ثم تعود.

تلك الليلة، قرر عبل اصطياد الثعبان ناش. نحو منتصف الليل، نهض والتحق بغاسبار. وقف بجانبه، ونظر إلى الوادي المُنار بالقمر. كان البرد شديداً، وحجارة الميكا تلمع، وتسطعُ الأعشاب العالية مثل شفرات. لم يكن هناك ريحٌ. كان القمرُ يبدو قريباً جداً، كما لو أنه لم يكن هناك شيءٌ بين الأرض والسماء، وكما لو أنه يمكن لمس الفراغ. ولم تكن النجوم تتلألأ حول القمر.

قام عبل بعدة خطوات، ثم استدار ونظر إلى غاسبار طالباً منه المجيء معه. كان جلاءُ القمر يمشط وجهه بالأبيض، وعيناه تضيئان في ظلّ محجريهما. أخذ غاسبار مقلاعه العشبي ومشى معه. إلا أنهما لم يعبرا الحقل العشبي، فقد حاذيا المستنقع باتجاه التلال الحجرية.

حين عبرا أمام الشجيرات، ربط عبل قدته حول عنقه. وقطع بسكينه الصغيرة غصنين طويلين وقلّمهما بعناية. أعطى واحداً منهما إلى غاسبار واحتفظ بالآخر بيده اليمنى.

أسرع في سيرهِ على الأرض الحصوية، منحنياً إلى الأمام، دون صوتٍ، بوجهٍ مترصد. كان غاسبار يتبعه مقلداً حركاته. في البداية، لم يكن يعرف أنهما قد بدأا صيد ناش. ربما كان عبل قد لاحظ آثار أرنب بري صحراوي، وربما سيقوم قريباً بتحويم مقلاعه. لكن في تلك الليلة، كان كلّ شيء مختلفاً. كان النور هادئاً وبارداً، فيما كان الطفل يسير صامتاً، والعصا الطويلة في يده اليمنى. كان ناش الثعبان، الذي ينسلُ ببطءٍ في الرمل مطلقاً حلقاته الشبيهة بجذور الأشجار، يسكنُ وحيداً في هذه المنطقة من جينا.

لم يرَ غاسبار ناش مطلقاً. كان قد سمعه ليلاً فقط، في بعض الأحيان، عند مروره قرب القطيع. كان الصوت ذاته الذي سمعه في المرة الأولى، عند اجتيازه الجدار الحجري على طريق جينا. كانت كاف الصغيرة قد أرته رقص الثعبان، مؤرجحاً رأسه، وكيفية زحفه البطيء على الأرض. في الوقت الذي كانت تنطق فيه اسم ناش: «ناش! ناش! ناش! ناش!» كانت تقلد بفمها الخشخشة التي يصدرها بطرف ذيله على الحجارة وعلى الأغصان اليابسة.

تلك الليلة كانت حقاً ليلة ناش، كان كلّ شيءٍ مثله، بارداً وجافاً، لامعاً بالحراشف. في مكان ما، أسفل التلال، على البلاطات الباردة، كان ناش يزلق جسده الطويل ويتذوق الغبار بحد لسانه المزدوج، باحثاً عن فريسة. ببطءٍ، كان ينزل نحو قطيع الغنم والماعز، يتوقف من وقتٍ لآخر، ساكناً مثل جذر، ثم يتحرك من جديد.

انفصل غاسبار عن عبل. صارا يمشيان على خط واحد، على مسافة بضع أمتار، منحنيين إلى الأمام، وقد ثنيا ركبتيهما، ويقومان بحركات بطيئة بجذعيهما وبأذرعهما، كما لو أنهما يسبحان. تآلفت عيونهما مع نور القمر، عيونٌ باردة وشاحبة مثله، ترى كلّ تفصيل على الأرض، كلّ حجرٍ، كلّ صدع.

كانت الأرض شبيهة على نحو ما بسطح القمر. يتقدمان ببطءٍ على الأرض الجرداء، بين الصخور المتكسرة والشقوق السوداء. في البعيد، ظهرت التلال المشرومة مثل حواف بركان يشّع في مواجهة السماء السوداء. يشاهدان في كلُّ شيءٍ حولهما الميكا المشعة، الجص، ملح المناجم. كان الطفلان يسيران بحركاتٍ بطيئة، وسط بلاد الحجارة والغبار. وجهاهما وأيديهما شديدة البياض، وملابسهما وامضة، مبقعةً بالأزرق.

هنا بلاد ناش.

كان الطفلان يبحثان عنه، يفحصان الأرض، متراً وراء متر، يسمعان كلّ الأصوات. ابتعد عبل أكثر عن غاسبار، وقام بدورةٍ كبيرة حول الهضبة

الكلسية. حتى عندما كان بعيداً جداً، كان غاسبار يرى البخار الذي يلمع أمام وجهه، ويسمع صوت نَفسه، كان كلُّ شيءٍ صافياً ودقيقاً، بسبب البرد.

صار غاسبار يتقدم وسط العليق، عبرَ الوهد. وفجأةً، بينما كان يعبرُ قرب شجرةٍ فقدت أوراقها، شجرةُ أكاسيا احترقت بالجفاف والبرد، ارتعش الصبي الصغير. توقف بقلبٍ يخفق، لأنه سمع صوتُ الحفيف ذاته، «فرررت-فرررت» الذي كان قد رنّ صداه في اليوم الذي اجتاز فيه جدارُ الحجارة المرصوصة. رأى الثعبان ناش، تماماً فوق رأسه، يفك التفافات جسده الطويل عن أحد الأغصان. كان ناش ينزل ببطءٍ من شجرة الأكاسيا، وكل حرشفةٍ من بشرته تلمعُ مثل معدن.

لم يعد غاسبار يستطيع الحركة. كان ينظرُ بإمعانٍ إلى الثعبان الذي لم ينته من الانزلاق على طول الغصن، ثم الالتفاف حول الجذع والنزول إلى الأرض. كان كلّ رسم على بشرة الثعبان يلمع بنقاء. ينزلق الجسد إلى الأسفل، لامساً بالكاد جذع الشجرة، وفي طرف الجسد، الرأسُ المثلث ذي العينين الشبيهتين بالمعدن. أخذ ناش وقتاً طويلاً بالنزول، دون صوت. لم يكن غاسبار يسمع سوى ضربات قلبه التي تخفق بقوةٍ في الصمت. كان نور القمر يلمعُ على حراشف ناش، وعلى حدقتيه الجامدتين.

لابد أن غاسبار قد قام بحركةٍ ما، لأن ناش توقف ورفعَ رأسه. نظر إلى الصبي الصغير، فيما شعر غاسبار بأن جسده يتجمد. أراد أن يصرخ، أن ينادي عبل، غير أن حلقه لم يكن يسمح له بتمرير أي صوت. لم يعد يتنفس. بعد برهة طويلة، استعاد ناش حركته، وحين لمس الأرض، صار مثل ماءٍ يجري في الرمل، جدولٌ طويل جداً من الماء الشاحب يخرجُ ببطءٍ من جذع الشجرة. كان غاسبار يسمعُ صوت حفيف بشرته على الأرضَ، حفيفٌ خفيف، كهربائي، شبيهٌ بصوت الريح على أوراق الشجر اليابسة.

ظل غاسبار دون حركةٍ إلى أن اختفى ناش. حينها بدأ يرتجف، بشدةٍ مما دفعه إلى الجلوس على الأرض كي لا يسقط. كان ما زال يشعر بالنظرة القاسية لناش على وجهه، ما زال يشاهدُ حركة الماء البارد للجسدِ المنزلق على الشجرة. ظل غاسبار لوقت طويل ساكناً مثل حجر، منصتاً إلى خفقان قلبه في صدره. فوق الأرض، كان القمر الدائري ينير الوهد الخالي.

سمع غاسبار عبل الذي كان يناديه. كان يصفر بتمهلٍ شديد من بين أسنانه، غير أن الهواء الرنان جعل الصوت قريباً جداً. ما لبث أن سمع غاسبار صوت خطواته. كان الصبي الصغير يقترب بسرعة كبيرة بحيث بدت قدماه أنهما بالكاد تلامسان الأرض. نهض غاسبار ولحق بعبل، واتبعا معاً الوهد يقتفيان أثر ناش.

بدأ عبل بالصفير ثانية، ففهم غاسبار أن ذلك كان لأجل ناش، كان يناديه على هذا النحو، بلطفٍ، بصوتٍ متتابعٍ رتيب. في المخابئ بين جذور شجر الأكاسيا، كان ناش يلتقط الصفير، ويمدّ عنقه هازاً رأسه المثلثي. كان جسده ينزلق ملتفاً على نفسه، يبحثُ قلقاً عن مصدر الصفير، غير أن الاهتزاز الحاد كان يحيط به، كما لو أنه آت من جميع الجهات. كانت موجةٌ غريبة تمنعه من الهرب وتجبره على عقد جسده.

حين ظهر الطفلان، بخيالين عاليين بيضاوين في نور القمر، ضرب ناش بذيله الحصى غاضباً، مما أنتج طقطقة شرر. كانت بشرته متألقة، بالكاد يتحرك، مثل قشعريرة على الأرض الرملية. كان الجسد يدور في مكانه، منزلقاً على الحصى متمدداً، حالاً نفسه، فيما كان غاسبار ينظر من جديد إلى رأسه المثلث ذو العينين الخاليتين من الأجفان. كان يشعر بذات البرودة التي خدرت قبل قليل أعضاءه وأوقفت عقله. انحنى عبل إلى الأمام وبدأ يصفر بصوت أعلى، فيما قلده غاسبار. بدأ الاثنان يرقصان رقص ناش بحركات سباحين بطيئة. كانت أقدامهما تنزلق على الأرض، إلى الأمام، إلى

الخلف، ضاربة بالكعوب. كانت أذرعهما الممدودة ترسم دوائر، وكانت العصا تصفر أيضاً في الهواء. تابع ناش التقدم نحو الطفلين، مطلقاً حلقاته إلى الجانب، وفي أعلى رقبته الواقفة كان رأسه يتهادى لمتابعة الرقص.

حين لم يعد ناش بعيداً عن الطفلين أكثر من بضع أمتار، أسرعا بحركة رقصهما. صار عبل يتكلم، كأنه كان يتكلم في الوقت الذي يصفر فيه بين أسنانه، مما أصدر أصواتاً غريبة وموزونة، مع انفجارات عنيفةً وصّارة، مثل موسيقا الريح التي كانت تدوي عبر الهضبة الصخرية حتى التلال البعيدة والكثبان. كانت كلماتٌ مثل طقطقة الحجارة في البرد، مثل أزيز حشرات، مثل نور القمر، كلمات قوية وقاسية بدت كما لو أنها كانت تغطي كلّ الأرض.

كان ناش يتابع الكلمات ووقع الأقدام الحافية التي تطرق الأرض، فيما كان جسده يهتز دون توقف. وفي قمة عنقه، كان رأسه المثلث يرتعش. ببطءٍ، انثنى إلى الخلف منقلباً قليلاً إلى الجنب. كان الطفلان يرقصان على بعد أقل من مترين منه. ظل برهةً طويلة على هذا النحو، ممدداً ومتأرجحاً. ثم فجأة استرخى وضرب مثل السوط. رأى عبل الحركة، فقفز إلى الجانب. وفي الوقت ذاته، أزت عصاه وأصابت الثعبان قرب عنقه. تلوى ناش ثانية نافثاً، فيما كان الطفلان يرقصان حوله. لم يعد غاسبار خائفاً. حين ضرب ناش باتجاهه، قام فقط بخطوةٍ إلى الجنب، وبدوره حاول أن يسوط الثعبان من رأسه. غير أن ناش تلوى بسرعة، فأثارت العصا القليل من الغبار.

لم يكن ينبغي التوقف عن الصفير والكلام، حتى بالتنفس، لأجل أن يدوي الليل كلّه. كانت موسيقا مثل النظرة، موسيقا دون خفوت، تمسك بناش على الأرض وتمنعه من الرحيل. تدخل فيه عبر بشرة جسده، مصدرة الأوامر إليه، موسيقا باردة ومميتة تبطء قلبه وتحرف حركاته. كان السم جاهزاً في فمه، ينفخ غدده، غير أن موسيقا الطفلين ورقصهما المتموج كانا أكثر قوة، جعلتهما في منجى.

لف ناش جسده حول صخرة، كي يسوط الهواء برأسه على نحوٍ أفضل. كان الخيالان البيضاويان للطفلين يتحركان أمامه دون توقف، فشعر بالوهن. أطلق رأسه عدة مرات إلى الأمام ليعض، غير أن جسده الممسوك بالصخرة كان قصيراً جداً فكان يضرب الرمل الدقيق فقط. في كلِّ مرةٍ كانت العصاتان تئزان وتهشمان فقرات عنقه.

في النهاية، ترك ناش نقطة استناده. انبسط جسده الطويل على الأرض، وامتد بكل جماله، لامعاً مثل درع ومتموجاً مثل التوتياء. كانت الرسوم المنتظمة على ظهره تبدو عيوناً. كانت عظيمات ذيله تهتز مصدرة موسيقا حادة وبلا صدى تختلط بالصفير وبإيقاع أقدام الطفلين. رفع رأسه شيئاً فشيئاً، في أعلى عنقه العمودية. توقف عبل عن الصفير ومشى نحوه، رافعاً إلى أعلى عصاه الرفيعة، غير أن ناش لم يتحرك. بقي رأسه الذي ظل بزاوية قائمة مع عنقه ملتفت نحو الصورة البيضاء لذلك الذي كان يقترب، ويكاد يصل، وبضربة واحدة ضرب عبل الثعبان وهشم عنقه.

لم يعد هناك أي صوت على الهضبة الكلسية. إلا، من وقت لآخر، صوت مرور الريح الباردة بين الجنبات وعبر أغصان الأكاسيا. كان القمر عالياً في السماء السوداء، ولم تكن النجوم تتلألأ. ظل عبل وغاسبار برهةً ينظران إلى جسد الأفعى الممدد على الأرض، ثم رميا عصاتيهما وعادا إلى جينا.

-٦-

فيما بعد، تغيّرت كلّ الأشياء سريعاً في جينا. كانت الشمس تلمعُ بقوةٍ أشد في السماء الخالية من الغيوم، وأصبح الحرّ لا يطاق بعد الظهر. تكهرب كلُّ شيءٍ. كان الشرار يُرى دائماً على الحجارة، وتُسمع طقطقة الرمل وأوراق العشب والشوك. تغيّر ماء البحيرة أيضاً. أصبح كامداً وثقيلاً بلون المعدن، يعكس نور السماء. لم يعد هناك حيوانات في الوادي، ما عدا النمل والعقارب التي كانت تعيش تحت الحجارة. جاء الغبار، كان يصعد في الهواء عند المشي، غبارٌ جاف وخشن ومؤلم.

كان الأطفال ينامون في النهار، متعبين من الضوء والجفاف. في بعض الأحيان، كانوا يستيقظون جراء قلقٍ جديد، يشعرون بالكهرباء في أجسادهم، وفي شعورهم. يركضون مثل الكلاب البرية، دون هدف، ربما بحثاً عن فريسة ما. لكن، لم يعد هناك أرانب برية ولا طيور. لقد تركت الحيوانات جينا دون أن ينتبهوا، ولإطفاء جوعهم، كانوا يجمعون العشب ذا الأوراق العريضة المرة، وينبشون الجذور. عادت الصغيرة كاف إلى إعداد مؤونة من الحبوب المفلفلة للرحيل. كان الطعام الوحيد هو حليب الماعز الذي كانوا يتقاسمونه مع الثعلب ميم. غير أن القطيع أصبح عصبياً. كان يغادر نحو التلال، وكان ينبغي الذهاب أبعد فأبعد لحلب الماعز. لم يعد أوغسطين يستطيع الاقتراب من التيس الأسود الكبير. كان حتروس يحكُّ الأرض بغضبٍ فتتعالى غيمةٌ من الغبار. كلّ يوم كان يقود القطيع إلى مكانٍ أبعد، إلى أعلى الوادي، هناك حيث تبدأ التلال، كما لو أنه كان يبعث إشارةً للرحيل.

كانت الليالي باردة جداً بحيث فقد الأطفال قوتهم. كان ينبغي أن يبقوا متراصين، دون أن يتحركوا ودون أن يناموا. لم تعد أصوات الحشرات تسمع، لم يعد يُسمع سوى صوت الريح التي تهب وأصوات الحجارة التي تتكمش.

كان غاسبار يعتقد أن شيئاً ما سيحدث، لكن لم يفهم ما هو. كان يظلُ ممدداً على ظهره طيلة الليل، قرب الصغيرة كاف الملتفة بسترته الكتانية. لم تكن الفتاة الصغيرة، هي الأخرى، تنام، كانت تنتظر، معانقةً الثعلب.

كانوا كلّهم ينتظرون، حتى عبل لم يعد يذهب إلى الصيد. يظل مستلقياً أمام باب المنزل والمقلاع حول عنقه، وعيناه تلتفتان إلى التلال المنارة بالقمر. كان الأطفال وحيدين في جينا، وحيدين مع القطيع والكلاب البرية التي كانت تنوح بصوتٍ منخفض في جحورها الرملية.

في النهار، كانت الشمسُ تحرق الأرض، وكان لماء البحيرة طعمُ الرمل والرماد. حين تشرب الماعز، كانت تشعر بتعبٍ في أعضائها، وكانت عيونها الداكنة ملأى بالنعاس. لم يكن عطشها يرتوي.

ذات نهار، عند الظهر، غادر عبل المنزل مع مقلاعه العشبي، في طرف ذراعه. كان وجهه متوتراً، وعيناه تلمعان من الحمى. مشى غاسبار خلفه، رغم أنه لم يطلب منه ذلك، مُسلحاً بمقلاعه. اتجها نحو المستنقع حيث كان ينمو البردي. لاحظ غاسبار أن ماء المستنقع قد انخفض، وأنه بلون الوحل. كان الناموس يرقص حول وجهي الطفلين، كان ذلك صوت الحياة الوحيد في هذا المكان. دخل عبل في الماء ومشى بسرعةٍ، فأضاع غاسبار رؤيته، فتابع وحيداً، يغرز في وحل المستنقع. بين القصب كان يرى سطح الماء كامداً وجامداً، وكان النورُ يرسل لمعاناً خاطفاً، والحرُ شديدٌ جداً بحيث إنه كان من الصعب عليه أن يتنفس. كان العرق يسيل على وجهه وعلى ظهره، و يخفق قلبه بقوة في صدره. أسرع غاسبار، لأنه أدرك فجأة ما كان عبل يبحث عنه.

فجأة، لمحَ بين القصب الطائر الأبيض، ملكُ جينا. كان ساكناً على سطح الماء بجناحيه المفتوحين، أبيضٌ جداً مثل بقعة زبد. توقف غاسبار ونظر إلى

الطائر، مملوءٌ بفرحٍ أترع كلّ جسده. كان الطائر الأبيض بحالٍ جيدة، كما رآه في المرة الأولى، صعبَ المنال ومحاطاً بالنور مثل تجلٍّ. كان غاسبار يعتقد بأنه يحكم الوادي بصمتٍ، في مكانه وسطَ المستنقع، والأعشاب، والتلال والكثبان، حتى الأفق، ربما كان سيطفئ التعب والجفاف المنتشر في كلّ مكان، وربما كان سيصدر أوامره ويعود كل شيءٍ إلى ما كان عليه من قبل.

حين ظهر عبل، على بعد أمتارٍ فقط، أدار الطائر رأسه ونظر باندهاش. إلا أنه ظل ساكناً، جناحاه الأبيضان الكبيران مفتوحان فوق الماء اللامع. لم يكن خائفاً. لم يعد غاسبار ينظر إلى الطائر، فقد رأى الفتى رافعاً ذراعه فوق رأسه وفي طرف ذراعه القدة الكبيرة الخضراء التي كانت تبدأ في الدوران، مصدرة غناءها المميت.

«سيقتله!» فكّر غاسبار. واندفع فجأة نحوه، وبكل قوته كان يركض في المستنقع نحو عبل، دافعاً سيقان البردي. وصل فوق عبل في اللحظة التي كان الحجر سينطلق فيها، وسقط الطفلان في الوحل فيما كان أبو منجل الأبيض يخفق بجناحيه الهواء ويطير.

كان غاسبار يشد عنق عبل لإبقائه في الوحل. كان الراعي الصغير أكثر نحافة منه، إلا أنه أكثر رشاقةً وأكثر قوة. وفي لحظة، تحررَ وتراجع عدة خطوات في المستنقع. توقف ونظر إلى غاسبار، دون أن ينبس بكلمة. كان وجهه داكناً وعيناه مليئتان بالغضب. حوم مقلاعه فوق رأسه وأفلت القدة. انحنى غاسبار، غير أن الحصاة أصابت كتفه الأيسر ورمته في الماء مثل لكمة. أزت حصاة أخرى قرب رأسه. كان غاسبار قد أضاع مقلاعه وهو يصارع في المستنقع، فاضطر أن يهرب. بدأ يركض بين القصب. كان الغضب والخوف والحزن يصنعون في رأسه شيئاً شبيهاً بصوت قوي. كان يركض بأسرع ما يستطيع بتعرج كي يستطيع التخلص من عبل.

حين وصل إلى اليابسة، لاهثاً، رأى أن عبل لا يتبعه. جلس غاسبار على الأرض مختبئاً بين حزم القصب، وظلّ وقتاً طويلاً، إلى أن استعاد هدوء

قلبه ورئتيه. كان يشعر بالحزن والتعب، لأنه يعرف الآن بأنه لن يستطيع العودة إلى الأطفال. لذا، حين صارت الشمس قريبةً من الأفق. سار في طريق التلال وابتعد عن جينا.

لم يلتفت إلا مرةً واحدة حين صار في أعلى التلة الأولى. نظر طويلاً إلى الوادي والسهل العشبي والبقعة الناعمة للبحيرة. قرب الماء، شاهد المنزل الطيني الصغير وعمود الدخان الأزرق الذي كان يصعد مستقيماً في السماء. حاول التقاط خيال الصغيرة كاف الجالسة قرب النار، لكن ذلك كان بعيداً جداً، ولم يرَ أحداً. من هنا، في أعلى التلة، كان المستنقع يبدو صغيراً جداً، مرآة كدرة تنعكس فيها السيقان السوداء للقصب والبردي. سمع غاسبار نباح الكلاب البرية، فيما ارتفعت غيمةٌ من الغبار الرمادي في مكان ما في طرف الوادي، هناك حيث كان التيس الكبير حتروس يمشي أمام قطيعه.

تلك الليلة، نام غاسبار ثلاث ساعات ملفوفاً في تجويف صخرة. خدّرَ البرد الشديد ألم جرحه، وجعل التعب جسده ثقيلاً وفاقداً للحس مثل حجر.

أيقظت الريح غاسبار، تماماً قبل الفجر. لم تكن الريح المعتادة، كانت نسمة حارة، مكهربة، قادمة من بعيد من خلف التلال الحجرية. كانت تصل متبعة الأودية والوهاد، تعوي داخل المغاور وعلى الصخور، ريحٌ عنيفة، ملأى بالوعيد. نهض غاسبار على عجل، غير أن الريح كانت تمنعه من السير. اتبع غاسبار، بجهدٍ وبجسدٍ منحنٍ إلى الأمام، وهداً ضيقاً مسدوداً بجدران الحجارة المتراصة المنهارة. دفعته الريح عبر الوهد إلى أن وصل إلى طريق. بدأ غاسبار بالركض على الطريق، دون أن يعرف إلى أين كان يذهب. الآن، طلع النهار، لكن النور كان غريباً، أحمر ورمادياً، كان يولد من كلّ الجهات معاً، كما لو أن هناك حريقاً. لم تعد الأرض سوى سحابةً من غبارٍ تتسل مع الريح الأفقية. كانت خيالية، تذوب مثل غاز. كان الغبارُ الجاف المُحمل بذراتٍ قاطعة يضرب الصخور، والشجر، والأعشاب، يقضم بمناقيره المليونية، ينهك ويحك البشرة. كان غاسبار يركض دون أن يأخذ نفساً، من وقتٍ لآخر يحرك ذراعيه صارخاً، كما فعل الأطفال لإبعاد

غيمةَ الجراد. كان يركضُ بأقدامٍ حافيةٍ على الطريق، بعينين نصف مغلقتين، فيما كان الغبار الأحمر يركض أسرع منه. كانت الزوابع الرملية تتسل بين ساقيه مثل أفاعٍ، تلفه، تزوبع وتغطي الطريق بدفقات طويلة. لم يعد غاسبار يرى التلال، ولا السماء. لم يعد يرى إلا هذا الوميض الذي يعكر الفضاء، هذا النورُ الغريب والأحمر الذي كان يلّف الأرض. كانت الريح تئز وتصرخ على الطريق، تدفع غاسبار وتجعله مترنحاً حين تضرب ظهره وكتفيه. كان الغبار يدخل فمه ومنخريه، يخنقه. سقط غاسبار على الطريق عدة مرات، فانسلخت بشرة يديه وركبتيه. غير أنه لم يكن يشعرُ بالألم. كان يهرب راكضاً، وذراعاه مضمومتان أمامه، باحثاً بنظره عن مكانٍ يلتجئ إليه.

ركض على هذا النحو عدةَ ساعات، ضائعاً في عاصفةِ الرمل. من ثم على حافة الطريق، رأى هيئةً ملتبسة لكوخ. دفع غاسبار الباب ودخل، كان الكوخ خالياً، أغلق الباب، وقرفص مستنداً على الجدار ووضع رأسه داخل قميصه.

استمرت الريحُ طويلاً. كان الوميض الأحمر ينير داخل الكوخ، والحرارة تشع من الأرض والسقف والجدران، كما لو أنه داخل فرن. ظل غاسبار دون حركةٍ، بالكاد يتنفس، وقلبه يخفق ببطءٍ شديد كما لو أنه سيموت.

حين توقفت الريح، ساد صمتٌ كبير، وبدأ الغبار بالسقوط ببطءٍ على الأرض، وانطفأ الوميض الأحمر شيئاً فشيئاً.

خرج غاسبار من الكوخ، نظر حوله، دون أن يدرك. كان كلّ شيءٍ قد تغير في الخارج. كانت كثبان الرمل على الطريق، مثل أمواجٍ ساكنة، الأرض والحجارة والشجر مغطاة بالغبار الأحمر. بعيداً قرب الأفق، كانت هناك بقعةٌ غريبة مضطربة في السماء، مثل دخانٍ يتسرب. نظر غاسبار حوله، فرأى أن وادي جينا قد اختفى. ضاع الآن، في مكانٍ ما من الطرف الآخر من التلال، لا يمكن بلوغه، كما لو أنه لم يكن.

ظهرت الشمس، سطعت، ونفذت حرارتها العذبة إلى جسد غاسبار. سار عدة خطوات على الطريق، نافضاً الغبار عن شعره وملابسه. في نهاية الطريق، كانت هناك قرية من الآجر الأحمر منارة بضوء النهار.

ثم وصلت شاحنة، بمصابيح مضاءة. علا صوت هدير محركها، فابتعد غاسبار. مرت الشاحنة من جانبه، في غيمةٍ من غبارٍ أحمر، دون أن تتوقف، متابعةً طريقها نحو القرية. كان غاسبار يمشي على الرمل الحار، عبر الطريق. فكر بالأطفال الذين كانوا يتبعون التيس حتروس عبر التلال والسهول الحصوية. لا بد أن التيس الأسود الكبير كان غاضباً بسبب الريح والغبار، ولأن الأطفال قد تأخر رحيلهم كثيراً. كان عبل أمام القطيع، وقدته الطويلة الخضراء تتهادى في طرف ذراعه. يصرخ من وقت لآخر:«يا! ياا!» فيجيبه الأطفال الآخرون. أما الكلاب البرية المصفرة تماماً من الغبار فكانت تركض بالتفافات كبيرة، وهي تصرخ أيضاً.

كانوا يعبرون وسط الكثبان الحمراء، نحو الشمال أو نحو الشرق، بحثاً عن ماءٍ جديد. ربما في مكان أبعد، عند اجتياز جدار الحجارة المتراصة، هناك وادٍ آخر، شبيه بجينا، عينٌ من الماء لامعة وسطَ حقلٍ عشبي. أشجار نخيل عالية متهادية مع الريح، وهناك، من الممكن بناء منزل من الأغصان والطين. سيكون هناك سهول ووهاد تعيش فيها أرانب الصحراء البرية، فسحاتٌ عشبية تجلس فيها الطيور قبل الفجر. وفوق المستنقع، قد يكون هناك، ربما، طائرٌ كبير أبيض يطير منحنياً فوق الأرض مثل طائرة تدور.

لم يكن غاسبار ينظر إلى المدينة التي دخلها لتوه، لم يكن يرى جدران الآجر، ولا النوافذ المغلقة بالستائر المعدنية. كان لا يزال في جينا، لا يزال مع الأطفال، مع الصغيرة كاف والثعلب ميم، مع عبل وأنطوان وأوغسطين، مع التيس الكبير حتروس والكلب نون. كان حقاً معهم، دون حاجةٍ للكلام، حتى في اللحظة التي كان يدخل فيها مكتب الدرك مجيباً على أسئلة رجلٍ يجلس خلف آلة كاتبة قديمة:

«أدعى غاسبار.. ضعت... ».

المحتوى

الطبعة الأولى /٢٠١٥

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة